الإنصاف فى تاريخ الأشراف

فى المغرب الأقصى

{ الأدارسة }

إعداد

محمد سليمان الطيب

الطبعة الأولى

١٩٩٤ م - ١٤١٥ هـ

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

الإدارة: ٩٤ ش عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

تليفون . ٦١٨٩٦٩ - ٢٦٣٨٦٨٤ فاكس ٤٩ ٠ ٢٦١٩

٩٢٩,٧ محمد سليمان الطيب.
م ح إ ن
الإنصاف فى تاريخ الأشراف فى المغرب الأقصى: الأدارسة/إعداد محمد سليمان الطيب .- القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٩٤ .

١٧٣ ص : ٢٤ سم .

ببليوجرافية : ص ١٧٣ .

يشتمل على حواشي.

تدمك : ٥ - ٠٦٩٧ - ١٠ - ٠٩٧٧

١- الأنساب العربية. أ - العنوان.

تصميم وإخراج فنى / محمد سيد عبد العال

إهداء

إلى أبناء الأمة العربية المجيدة من المحيط إلى الخليج.

إلى قبائل وعشائر وعائلات الأشراف من بدو وحضر؛ من ذرية السبطين من آل البيت الطاهرين فى المشرق والمغرب العربى؛ وعلى امتداد الوطن العربى الكبير فى قارتى آسيا وإفريقيا.

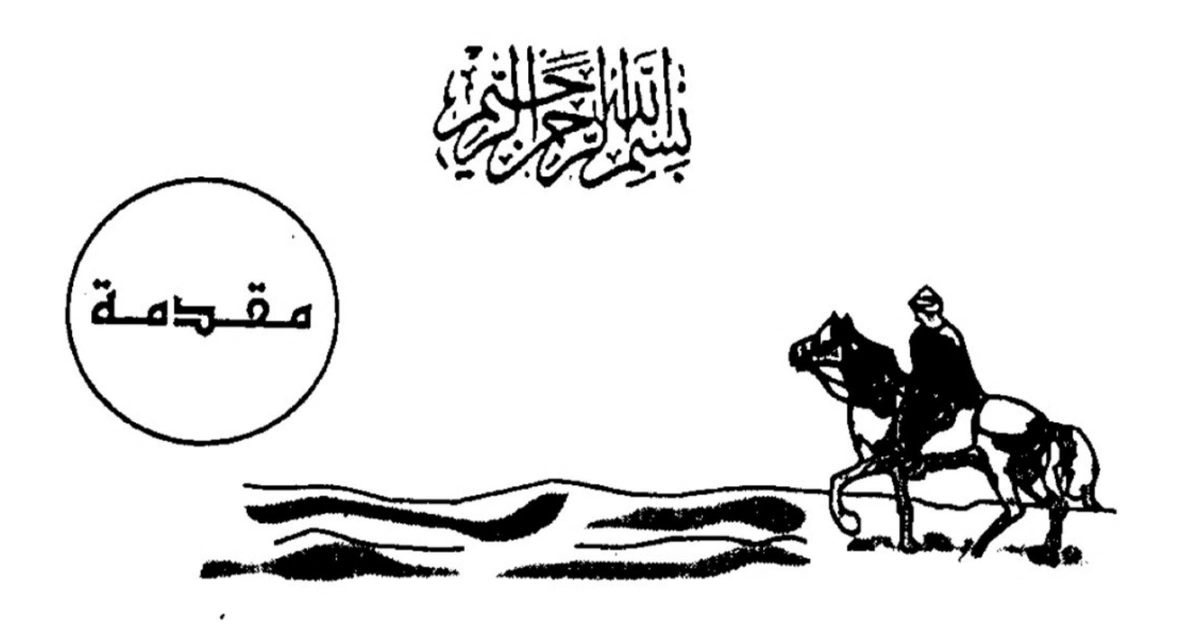
إلى السيد الفاضل والمكرم الشريف الإدريسى الحسنى / محمد محمود الخضرى ناشر الكتاب وصاحب دار الفكر العربى بالقاهرة والتي تشع بنور العلم والمعرفة قرابة نصف قرن من الزمان، إلى الملايين من أبناء الأمة العربية والإسلامية وأنحاء العالم المتحضر فى قارات العالم الست على كوكب الأرض.

﴿ ويسرنا توضيح نسب آل الخضرى كما هو معتمد بنقابة السادة الأشراف فى القاهرة﴾

وهم آل الخضرى؛ من ذرية سيدى يونس السعدى الشيبانى الإدريسى «صاحب الطريقة السعدية الصوفية» والمدفون بضريحه الكائن حتى الآن في باب النصر بالقاهرة بمصر المحروسة، وهو ابن السيد سعد الدين الشهير بالجباوى (وجبا قرية فى الشام من بلاد حوران بسوريا) وهاجر جده إليها من مكة المشرفة وهو ابن السيد يونس بن السيد عبد الله مزيد بن السيد يونس المكى الشهير بالشيبانى المهاجر من مكة المكرمة إلى دمشق الفيحاء بالشام ابن السيد عبد الله المهاجر من طرابلس الغرب إلى مكة المكرمة بن السيد يونس بن السيد أبو السعود محمد الطيب المهاجر من مدينة تونس الخضراء إلى طرابلس الغرب ابن السيد على الإدريسى الحسنى الجنانى (نسبة لأم جنان وهى بلدة بنواحى الأربعاء بالمغرب) ابن السيد صاحب الإمدادات والعرفان وكنز العلوم والحقائق مولاى مؤيد الدين السيد شيبان الإدريسى الحسنى دفين تونس وصاحب الرواق الكائن بجامع الزيتونة ابن السيد سعد الله الشهير بشيبان دفين الزاوية الشيبانية الكائنة بفاس ويقال لها زاوية مولاى السيد شيبان بن مولاى السيد عبد الرحمن المجذوب الأول (ويقال له الأكبر بن مولاى



السيد على المحجوب الإدريسى الحسنى دفين مكناس ابن مولاى السيد على المراكشى دفين مراكش ابن مولاى السيد عمر الإدريسى الحسنى دفين فاس ابن مولاى السيد إدريس الأنور ابن مولاى السيد إدريس الأكبر - رضى الله عنه - الذى فتح المغرب الأقصى على يديه ابن مولاى السيد عبد الله المحض الشهير بالكامل ابن مولاى السيد حسن المثنى ابن مولاى الإمام أبى محمد الحسن السبط ابن على ابن أبى طالب وابن بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء - رضى الله عنها- .



الحمد لله، خالق الوجود، المسبب الفضل والجود، المنزه عن الصاحب والشريك والولد، الواحد الأحد، الذى اصطفى محمداً من خلاصة خلقه وأطهره نسباً، فقد صح عنه فى جميع الأخبار، مما رواه الثقات أن النبى المختار قال ما معناه: «إن الله اصطفى من بنى آدم العرب، واصطفى من العرب كنانة، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار» ﷺ وعلى آله وأصحابه السادات الأبرار، مظهرى دينه ومبلغيه سائر الآفاق وأقاصى الأقطار، وخصوصًا أهل بيته الفحول، بنى علي بضعة فاطمة الزهراء البتول، ينابيع الدين ومنبع المكارم، فالمحى قواعده، ومانحى أفنانه العظائم.

أما بعد: فاعلم أيها القارئ الكريم، أنه ورد فى علم التاريخ المشتمل على علم الأنساب آثار وآيات الأخبار، مما هو متعارف مشهور فى كتبه مدون مسطور، قال أبى عباس أحمد القلقشندى فى كتابه «قلائد الجمان فى التعريف بعرب الزمان» ما نصه:

لاخفاء إن معرفة علم التاريخ يشتمل على علم الأنساب هو من الأمور المطلوبة والمعارف المندوبة، لما يترتب عليه من الأحكام الشرعية والمعارف الدينية، فقد وردت الشريعة باعتبارها فى مواضع العلم بنسب النبى ﷺ، أنه النبى الهاشمى القرشى العدنانى الذى كان فى مكة المكرمة، ثم هاجر منها إلى المدينة

المنورة وتوفى بها، فإنه لابد لصحة الإيمان من معرفة ذلك وواجب على كل مسلم أن يعلمه.

ومن فوائد علم النسب، التعارف بين الناس حتى لا يُنسب أحد إلى غير آبائه، ولا ينسب إلا إلى أجداده.

وقد قال النبى ﷺ ما معناه: «حرمة نسب الرجل نفسه إلى غير آبائه»، ومن يفعل ذلك لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكيه. وقال رب العزة يؤكد ذلك فى كتابه العزيز﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾. صدق الله العظيم.

وتحريم التبنى خير دليل على حكمة الخالق فى عدم اختلاط الأنساب، وتحريم الزنا وجعله جريمة كبرى من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله وقتل النفس بغير حق يؤكد الهدف السامى الذى يريده الله للناس وهو حفظ الأنساب وطهارة النسل، وإن الله حق لا يستحى من الحق، وقد أشار بقوله - تعالى - إلى أنه خلق الناس على أشكال وأنواع وطبقات عندما قال عزوجل:

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا﴾ . صدق الله العظيم.

وهكذا يتضح لنا أنه بدون الإلمام ومعرفة علم الأنساب لفات إدراك ذلك وتعذر الوصول إليه.

وقد صنّف فى علم الأنساب جماعة من أجل العلماء وأعيانهم كأبى عبيد القاسم ابن سلام، والبيهقى وابن عبد البر، وابن حزم وغيرهم، وذلك دليل شرفه ورفعة قدره، والحامل لأصل التاريخ ما قاله الشيخ جار الله المكى فى تحقيق الصفا فى تراجم بنى الوفا ما نصه:

وقد ورد فى الأثر عن سيد البشر أنه قال: «من أرَّخَ مؤمنًا فكأنما أحياه، ومن قرأ تاريخه فكأنما زاره ومن زاره استوجب رضوان الله وحق على المزور أن يكرِم زائره».

فإذا كان هذا فى مطلق مؤمن، فكيف بخاصة الخاصة وأهل الفضل والمزايا المتراصة، فكيف بمن يتعلق بسفينة النجاة ويم البركات ومقاليد الشفاعات، كهذه الرسالة الموضوعة فى نبذة سرية من أحوال بنى صاحب الرسالة ذوى الفضل والجلالة والعلا، حائزى قصب السبق فى كل ما ملا المسماة «بالدرر السنية فى

أخبار السلالة الإدريسية» وما فى حكمها من السادات العلوية ممن له ولاية ودولة فى الأقطار المغربية مشتملة على مقدمة وست دول: الدولة الفاسية وما فى إيالتها، الدولة الثانية التلمسانية وما فى نواحيها، الدولة الثالثة الغمارية وما فى حكمها، الدولة الرابعة السبتية وما فى حكمها، الدولة الخامسة الأندلسية وما فى حكمها، الدولة السادسة الصحراوية وما فى حكمها.

وسترى لكل واحدة بيانًا شافيًا على ما عند صاحب القرطاس والمغرب وما فى العبر لابن خلدون التونسى، وما فى سلاسل الفصول لابن خلدون التلمسانى، وما فى عمدة الطالب فى نسب علي بن أبى طالب لابن عنبة.

فالمقدمة وفيها فصلان:

الفصل الأول : وفيه نوعان

الأول فى أصل النسبة الإدريسية وتنوع أفنانها فى أقطار الأرض وانتشار سلطانها واختصاص كلٍ بأركانها. قال فى المغرب كصاحب العمدة ما معناه: أنه لما انتقلت الولاية من بنى أمية لبنى العباس ووصلت النوبة لهارون الرشيد حصل منه من الأذية فى حق العلويين ما هو معلوم من العباسيين، حيث جار الرشيد فى حقهم جورًا عظيمًا، وأراد قطع دابرهم بالكلية، فهربوا منه إلى الأراضى البعيدة من طاعته فممن هرب منه من الشرفاء إلى المغرب الأقصى السيد/ إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ بعد أن شهد مجامع الحسين بن علي صاحب فخ - كربلاء -، فلما قُتل الحسين فى جماعته بفخ، فر إدريس وأخوه سليمان ومولاه راشد بن مرشد الزبيدى أخوه من الرضاعة فلم يزل يجدّ السير حتى وصل تلمسان(*) فثبت أخوه سليمان وذهب معه إلى تلمسان وأقام بها وسيأتى خبره، ثم انتقل إدريس إلى طنجة فلم يجدْ ما يوافقه بها، فرجع إلى زرهون فوجد عبد المجيد بن مصعب سلطانا، وكانت الخلافة له فى قبائل البربر، فقام فخلع عبد المجيد له الخلافة، وترك له الحكم، وعقد له البيعة، وتركه حاكما، وكان عنده ثلاثة من الوزراء، عبد المجيد بن مصعب الأوربى، وأخوه عمر بن مصعب الأوربى الزرهونى،

(*) تلمسان : مدينة قديمة كانت عاصمة لعدة دويلات ظهرت فى بلاد المغرب، وهى الآن تابعة للدولة الجزائرية، وتقع فى شمال غرب الجزائر قرب الحدود المغربية.

وراشد بن مرشد الزبيدى، ثم تزوج مولاى إدريس بنت وزيره عبد المجيد، واسمها كنيزة المرضية، ذات حسن وجمال، وبهاء وكمال واعتدال، فحملت منه بالنجل السعيد، وهو إدريس الأصغر.

وسبب موت إدريس الأكبر أنه أتاه سليمان بن جرير النبرى ثم الزميرى من الشرق بأمر هارون الرشيد بقارورة من المسك مسمومة، ولم يزل يجدّ السير حتى وصل إليه، وفرح به، ثم دفع له القارورة المسمومة فشمها فطلع السم فى خياشيمه، فمات - رحمة الله عليه - عام سبعة وسبعين فى القرن الثانى للهجرة.

وفى العمدة أن الإمام إدريس شهد مجامع الحسين بن علي العابد صاحب فخ، فلما قُتل الحسين انهزم حتى دخل المغرب فسُم هناك بعد أن ملك، وقد وصل إلى زرهون وطنجة ومعه مولاه راشد، ودعاهم إلى الدين فأجابوه وملكوه، فاغتم لذلك حتى امتنع من النوم، ودعا سليمان بن جرير الرقى متكلم الزيدية، وأعطاه سمًا، فورد سليمان بن جرير إلى إدريس متوسمًا بالذهب، فُسر إدريس بن عبد الله، ثم طلب غرة فوجد خلوة من مولاه راشد، فسقاه السم وهرب، فخرج راشد خلفه فضربه على وجهه ضربة منكرة وفاته وعاد، وقد مضى إدريس لسبيله.

قال: ولما مات إدريس وضعت المغاربة التاج على بطن زوجته أم إدريس الأصغر وولدته بعد أربعة أشهر بعد موت أبيه. قال: وقد كان داود بن القاسم الجعفرى أحد كبراء العلماء، وممن له المعرفة بالنسب حاضراً قصة إدريس بن عبد الله وقتله بالسم وولادة إدريس بن إدريس، قال: كنت بالمغرب فما رايت أشجع منه ولا أحسن وجهًا، وقال علي الرضى بن موسى الكاظم رضى الله عنه: إدريس ابن إدريس بن عبد الله من شجعان أهل البيت والله ما ترك فينا مثله. وقال أبو هاشم داود بن القاسم بن إسحاق من عبد الله بن جعفر الطيار بن أبى طالب الهاشمى : أنشدنى إدريس بن إدريس لنفسه شعراً:

لو مال صبرى بصبر الناس كلهم ∴ لكل فى روعتى وظل فى جزعى
بأن الأحبة واستبدلت بعدهم ∴ هما مقيمًا وسلمًا غير مجتمع
كأننى حين يجرى الهم ذكرهم ∴ على ضميرى مجبول على الفزع
تأوى الهموم إذا حركت ذكرهم ∴ إلى جوارح جسم دائم الجزع.

ثم بعد أن وضعت أمه حملها بعد تمامه أسمته على اسم أبيه إدريس، وقام به وزراء أبيه، وتكفل به راشد بن مرشد الزبيدى حتى إذا بلغ ثمانية أعوام وقيل اثنتى عشرة سنة، وبلغ الحلم، وقرأ جميع العلوم، وأمر ببنيان المدينة البيضاء، وأعانه الله على بنيانها .

ثم زوجته أمه «الحُسنى» بنت سليمان بن محمد النجاعى، وكانت أمه كاملة العقل والحياء والدين، تابعة للكتاب والسنة، وروى أن إدريس كان لا يفعل شيئًا حتى توافقه «الحُسنى»، ثم توفى رحمه الله بعدما استقر بمدينة فاس، وكان سبب موته حبه من العنب الزواعى، وسيأتى لذلك مزيد بيان، وقد خلف اثنى عشر ولدًا هم محمد وأحمد وقاسم وعمر وعمران وعلي وعيسى ويحيى وحمزة وعبد الله وداود وكثير، قال فى العمدة: وأعقب إدريس الأصغر بن إدريس بن عبدالله المحض عدة رجال منهم محمد وعمران والقاسم وأحمد وعيسى وعمر وداود ويحيى وعبد الله وحمزة وعلي، وقيل إنه أعقب من غير هؤلاء أيضًا ولكل منهم ممالك ببلاد المغرب الأقصى.

وقال فى رفع التدليس: فى ذرية الإمام إدريس بعد أن ذكر الأئمة الاثنى عشر ما نصه فتولى الإمام محمد بن إدريس الخلافة بعد موت أبيه وبقى بنوه بفاس متوارثين المُلك بعده كما سيأتى، وقسّم على إخوته المذكورين البلاد برأي جدته كنيزة بنت عبد المجيد الأوربى فأعطى لعمران جبل الريف وبادس وأحوازهما، وأعطى لعمر رجس وأحوازه، وأعطى لأبى القاسم سبتة وطنجة وأحوازهما، ولأحمد الهبط وأحوازها، وأعطى لعيسى سلا وأحوازه، وأعطى لعبد الله قشتالة وتادلة وأحوازهما، وأعطى ليحيى غمارة وأحوازها، وأعطى لداود تلمسان وأحوازها، وأعطى لأحمد الملقب بكثير مالقة وغرناطة وطرفا من جبل الفتح، وأعطى لعلي سجلماسة وأحوازها.

فهذه سادتنا الأشراف الإثناعشر فآوى كل واحد منهم إلى بلدة وانتسل بها وترك ذريته هناك، فانتسلت ذرية عمران بجبل الريف وبادس وعّد منهم العلامة ابن خلدون التلمسانى نحو العشرة وهم ما بين زين العابدين الزيان القصبى الآتى ذكره وبين الإمام عمران بن إدريس وهم يوسف بن حسين بن إدريس بن سعيد بن

يعقوب بن داود بن محمد بن عبد الله بن حمزة بن علي بن عمران، وسيأتى لذلك مزيد فى فضلهم فراجعه.

وفى المرآة ما نصه: ولما قسم الإمام محمد بن إدريس أعمال المغرب على إخوته فولى تيساس وأقطارها أخاه عمر - وتيساس هذه فى شرق تطاون(*)، على مسيرة يوم منها، فى موضع كثير الحجارة والصخر، فى سفح جبل غربها، تحتها فى شمالها جرف كثير الصخر عظيمة على مكسر موج البحر، لها بحر بقاع يجلب لها منه جدول، ولها بسيط تركبه الجداول من كل جهة فتسقى الزرع والكتان والثمار، وأهلها فى أمن من القحط، وهى قديمة العمران ولم تزل قائمة إلى حدود ثمانمائة، فجلا عنها أهلها بسبب جور فارح بن مهدى واليها من قبل بنى مرين فخلت من سكانها وانتقلوا إلى القبائل وغيرها، ولم يزل سورها ماثلاً إلى الآن.

قال: والقبيلة الحافة بها من جهاتها الثلاث هى قبيلة بنى زيات من قبائل بنى زيال من بطون غمارة البربر ويقال يال ونال مكان الياء إخوان فتفرع يال إلى بنى زيات وبنى منصور وبنى بوزروا وتفرع نال بالنون إلى بنى خالد وبنى وززين وبنى قير بالقاف المعقودة وبنى مسيح وبنى جلاوهم بجيم مفتوحة ثم لا مشددة بعدها ألف.

الفصل الثانى

« فيما يتعلق بأحوال فتح المغرب أدناه وأوسطه وأقصاه»

والمراد ببلاد المغرب هى ما وراء الإسكندرية غربًا، إلى السوس الأقصى الموالى لساحل المحيط من المعمور، والمقصود منه من إفريقية إلى آخر المعمور وأدناه إفريقية وهى ما وراء ديار مصر غربًا سميت باسم أفريقش بن أبرهة الحبشى ملك اليمن، لأنه كما قيل - والله أعلم - غزاها ففتحها فيما قبل الإسلام، وبينها وبين مصر ممالك وأعمال كثيرة ينبغى ذكرها لتعلق أخبارها بها عند المؤرخين وفى ذلك أنواع.

(*) تطاون : هي مدينة تطوان الآن في المملكة المغربية.

النوع الأول:

« فى ذكر فتح طرابلس(*) وهى برقة وأعمالها»

قال ابن عبد الحكيم كان البربر(١) بفلسطين من بلاد الشام يعنى زمن داود عليه السلام، فخرجوا منها متوجهين إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوبية(٢) ولمرية، وهما كورتان من كور مصر الغربية مما يشرب من ماء السماء ولا ينالها النيل، فتفرقوا هنالك، فتقدمت زناتة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال، وتقدمت لواتة وسكنت أرض أنطابلس وهى برقة، وتفرقت فى بلاد المغرب، وانتشرت حتى وصلت السوس الأقصى، ونزلت هوارة مدينة لبدة ونزلت بقوسة مدينة سبرة، وجلا من كان بها من الروم من أجل ذلك، وأقام الأفارق وكانوا خدماء للروم على صلح إلى من غلب على بلادهم وهم بنو فارق بن بيصر بن حام بن نوح، فسار عمرو بن العاص القرشى بعد الإسلام إلى هذه البلاد فى الخيل حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة آلاف دينار من الذهب يؤدونها إليه جزية، على أن يبيعوا من شاءوا من أبنائهم فى جزيتهم ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابى خراج، وإنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها، وبعد ذلك وجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع القرشى حتى بلغ زويلة. قال الطبرى: فافتتحها بصلح وصار ما بين برقة وزويلة سلمًا للمسلمين. وقال أبو العالية الحضرمى: سمعت عمرو بن العاص على المنبر يقول لأهل أنطابلس عهد يوفى لهم به.

النوع الثانى:

فى ذكر فتح طرابلس

قال ابن الحكيم: ثم سار عمرو بن العاص حتى نزل على طرابلس فى سنة اثنين وعشرين، فنزل القبة التى على الشرق من شرقيها، فخرج من بنى مدلج(٣)

(*) طرابلس الغرب: كانت تسمى زمن الروم أنطابلس، وهى عاصمة للجماهيرية العربية الليبية بالوقت الحاضر.

(١) وهذا يؤكد رواية بعض العلماء أن البربر من الكنعانيين سكان الشام.

(٢) لوبية: سميت بلاد برقة وطرابلس باسم لوبية ثم تحرفت إلى ليبيا فى عهود قريبة.

(٣) «بنى مدلج» بطن من كنانة العدنانية، كانوا ضمن عربان الفتح ولهم إقطاع فى الديار المصرية وهم أشهر قبائل العرب فى مصر فى صدر الإسلام وقد ذابوا فى قرى ومدن مصر ولم يعد لهم اسم يذكر بالوقت الحاضر.

ذات يوم من عسكر عمرو في سبعة نفر، فمضوا غرب المدينة حتى أمعنوا عن العسكر، ثم رجعوا فأصابهم الحر فأخذوا على ضفة البحر وكان البحر لاصقًا بسور المدينة ولم يكن فيه ما بين المدينة والبحر سور وكانت سفن الروم شارعة في مرساها إلى بيوتهم فنظر المدلجي وأصحابه، وإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة، ووجدوا مسلكًا إليها من الموضع الذي حسر منه البحر، فدخلوا حتى أتوا من ناحية الكنيسة، وكبروا فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم، وأبصر عمرو وأصحابه السلة في جوف المدينة، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم، فلم يفلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم، وغنم عمرو ما كان في المدينة من سبرة متحصنين وهي المدينة العظمى وسوقها السوق القديم، فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس وأنه لم يصنع فيهم شيئًا ولا طاقة لهم به، آمنوا فلما ظفر عمرو بمدينة طرابلس جرد خيلاً كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير، فصبحت خيله مدينة سمرة وهم غافلون، وقد فتحوا أبوابها لتسرح مواشيهم، فدخلوا فلم ينج منهم أحد، واحتوى أصحاب عمرو على ما فيها ورجعوا إلى عمرو ثم أراد عمرو أن يوجه إلى المغرب، فكتب إلى عمر بن الخطاب إن الله عز وجل فتح علينا طرابلس وليس بيننا وبين إفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا ، لا تفعل، إنها ليست بإفريقية، ولكنها الفرقة، غادرة، مغدور بها، لا يقر بها أحد ما بقيت. وكأنه أشار رضي الله عنه بقوله الفرقة وغادرة مغدورة بها متفرسًا إلى ما يقع من النكث بعد الإبرام والكفر بعد الإسلام المتكرر من أهلها البربر والروم على حد سواء.

فقد ذكر ابن خلدون التونسي: إنهم ارتدوا بعد الإسلام ونقضوا بعد الإبرام ما يزيد أو يقرب من اثنتي عشرة مرة، فلذلك تكرر فتوحها مرات ومرات، وظلت على تمردها وردتها والحروب مشتعلة بها بين العرب المسلمين وبين البربر نحو سبعين عامًا كما سيأتي بيانه وقد ترجم لها بذلك وآخر من فتحها موسى بن نصير، وكان ذلك في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان الأموي، وأولها عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

النوع الثالث:

فى ذكر فتوح إفريقية الشمالية «بلاد المغرب[١]»

وأولها كـان فى خلافة عـثمان بن عـفان رضى الله وهى غزوة عـبد الله بن سعد بن أبى السرح أخ الإمـام والخليفة عثمان فى الرضاعـة رضى الله عنهما، قال فى الإكتفاء ما نصه:

قال ابن عـبد الحكيم: ولما عزل عثمان عمرو بن العـاص عـن مصـر وأمـر عبد الله بن سـعد بن أبى السرح، كان يـبعث المسلمين فى جرائد الخيل كـما كانوا يفعلون فى إمرة عـمرو بن العاص، فيصـيبون من أطـراف إفريـقـية، ويغنـمون، فكتـب عـبد الله بن سـعد فى ذلك الوقت إلى عـثمـان وأخبره بقربهـا من حوز المسلمين وأستأذنه فى غزوها، فندب عثـمان الناس إلى ذلك بعد المشورة فيه، فلما اجتمع الناس أمَّر عليهم الحارث بن الحكم أن يقدموا على عبد الله بن سعد فيكون إليه الأمر فخرج عبد الله بن سعد إليها وكان عليها ملك يقال له جرجير كان هرقل قيصر الروم قـد استخلفه فخلعه وخرج عنه، وكـان سلطان ما بين طرابلس الغرب إلى طنجـة ثغـر إفريقـيـة ومـسـتـقـر سلطانه يومـئذ بمدينـة يقال لهـا قـرطاجنة[٢] الإفريقـية، فلقى عبـد الله جرجير هذا فـقاتله فقـتله عبد الله بن الزبيـر بن العوام القرشى فيـما يزعمون وهرب جيش جرجـير وبث عبد الله السرايا وفرقـها فأصابوا غنائم كثيرة فلما رأى ذلك رؤساء إفريقـية سألوه أن يأخذ منهم مالاً على أن يخرج من بلادهم فقبل منهم ذلك ورجع إلى مصر ولم يول على إفريقية أحداً ولا اتخذ بها قيروانًا.

وفى كتاب سيف لما وجه عبدالله بن سعد إلى إفريقية قال له عثمان: إن فتح الله عليك إفريقية، فلك مما أفاء الله عليك خمس الخـمس، فلما انتهى إلى إفريقية سهلها وجـبلها، واجتمعـوا على الإسلام وحسنت طاعتهم، وقـسم عبد الله على الجند ما أفاء الله عليه بعد أن أخرج الخمس، فعـزل منه لنفسه خمسه وبعث بأربعة

---

(١) بلاد المغرب المقصودة هنا هى : تونس والجزائر والمملكة المغربية.

(٢) قرطاجنة فى بلاد تونس على البحر وقد بناها الفينيقيون المهاجرون من لبنان ببلاد الشام إلى شمال إفريقية وقد دمرها الرومان عدة مرات وآخرها قبل الفتح العربى فلم يبق منها إلا آثار وأطلال من قصورها.

أخماس إلى عثمان، وضرب فسطاطًا فى موضع القيروان، ووفد وفد إلى عثمان فشكوه فيما أخذه من الخمس، فقال : أنا نفلته، وإنما النفل تبصرة وتدريب للرجال، ثم كتب إلى عُقبة بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحُصين الفهريّين[١] وأمرهما بالمسير إلى الأندلس وهى - شبه جزيرة أيبريا فى أوروبا- فيمن ندب معهما من الرجال وأمرهما بالاجتماع مع عبد الله بن سعد على صاحب إفريقية وبعد ذلك يسير إلى الأندلس ويأتيها من قبل البحر وكان عثمان رحمه الله قد كتب إلى من انتدب إلى الأندلس « أما بعد فإن القسطنطينية إنما تُفتح من قِبَل الأندلس، وإنكم إن لم تفتحوها كنتم شركاء من يفتحها فى الأجر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

قال كعب : يعبر البحر إلى الأندلس أقوام يفتحونها بنورهم إلى يوم القيامة.

وقال ابن ناجى فى معالم الإيمان ما نصه: ذكر من نزل القيروان من الصحابة رضى الله عنهم أول جيش نزل القيروان من جيوش المسلمين عبد الله بن أبى سرح العامرى القرشى فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنهما سنة سبع وعشرين بعد الهجرة، ثم جيش معاوية بن خديج السكونى[٢] ثلاث مرات ولى ذلك سنة أربع وثلاثين فى خلافة سيدنا عثمان أيضًا، ثم عُقبة بن عامر الجهنى[٣] ،ثم رويفع بن ثابت الأنصارى سنة سبع وأربعين، ثم عُقبة بن نافع الفهرى «القرشى» أيضًا سنة خمسين بعد الهجرة وفيها اختط القيروان وفى كل جيش من هذه الجيوش تنزل طائفة من الصحابة بأرض القيروان (بلاد تونس حاليا).

وروى الواقدى عن ربيعة بن عباد الدئلى، قال: أغزانا عثمان رضى الله عنه إفريقية فخرجنا مع الناس حتى قدمنا مصر فخرج عبد الله بن سعد وهو أمير الناس

---

(١) الفهريّين : من فهر أىَ من قريش وفهر هو جدهم ولقب بقريش.

(٢) السكونى: منسوب إلى قبيلة السكون اليمانية القحطانية وتمت إلى كندة بصلات النسب والقربى ، وقال النبى يمتدحهم ﷺ : « اللهم صل على السكاسك والسكون والأملوك . ملوك ردمان وخولان . . . خولان العالية» .

(٣) الجهنى : منسوب إلى قبيلة جهينة القُضاعية المعروفة حتى الآن فى السعودية ومصر والسودان والشام.

بمصر بمن كان معه وبمن قدم عليه من المدينة فكانوا عشرين ألفاً ونحن نريد بطريق الروم بإفريقية يقال له جرجير، كان قد غلب على ما هنالك من أرض المغرب، فلما وصل عبد الله من مصر كان يقدم الطلائع والمقدمات أمامه وكثيراً ما كنت أكون فى الطلائع، فوالله وأنا بطرابلس إذا مراكب قد رست بالساحل فشددنا عليهم، فأقاموا ساعة ثم أسرناهم فكتفناهم وهم مائة، حتى لحقنا ابن أبى سرح فقتلهم جميعًا لأنهم قراصنة يفتكون بالعزّل من المسلمين قرب السواحل ويخطفون الأطفال والنساء، وقد تحصن منا أهل طرابلس ولم يتعرضوا لنا فأخذنا ما فى السفينة فكانت هذه أول غنيمة أصبناها ونحن فى وجهتنا، ثم لحق بنا الناس وأقاموا أيامًا، وكانت السرايا فى وجهة تأتى بالبقر والشاة والعلف، ثم تمادينا حتى وردنا إفريقية فأقمنا أيامًا بيننا وبين جرجير ملكهم ندعوه إلى الإسلام وكلما دعوناه إلى الإسلام نفر ثم استطال وقال : لا أقبل هذا أبداً، فقلنا له : تخرج لنا خراجًا فى كل عام، فقال: لو سألتمونى درهمًا واحداً لم أفعل، ثم إنا تهيأنا للقتال بعد الإعذار إليه منا، فهيأنا عبد الله بن سعد فجعل ميمنة وميسرة وقلبا، وسار بأصحابه فقال له رجل من قبط مصر كان معه: إن القوم لا يصافونك وهم يهربون فاجعل لهم كمينًا، وفرقهم فى أماكن، ففعل ذلك عبد الله وغدا بنا على التعبئة والروم قد رفعوا الصليب وعليهم من السلاح ما الله أعلم به، ومعهم من الخيل ما لا يحصى، فتصاولنا ساعة من النهار، وصارت الشمس قدر رمحين أو أكثر، ثم حمل عبد الله بالمسلمين فى عزم قوى على الروم، فكانت الهزيمة عليهم، وكرّ الكمين عليهم من كل مكان، فأكثروا فيهم القتل والأسر فطلبوا الصلح فصالحهم عبد الله بن أبى سرح على خراج. وروى عن أسامة بن زيد الليثى أن مقدار ما صالحهم عليه عبد الله بن سعد بلغ ألف ألف دينار.

وذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن سعد غزا إفريقية فى جماعة من الصحابة فلقى جرجيراً وهو فى مائة ألف وصالح بن أبى السرح فى سُبيطلة[1]

---

(١) سبيطلة : فى وسط تونس معروفة باسمها حتى الآن، وكانت بها معركة شهيرة بين ابن باديس وعرب الهلالية ومن عاونهم من سُليم وذلك فى عام ٤٤٣ هـ أثناء الغزوة الكبرى لقبائل هِلال وسُليم لبلاد المغرب بأمر الخلافة الفاطمية بالقاهرة.

وهى مدينة على سبعين ميلاً من القيروان، فقتل جرجيراً وهو فى مائة ألف وصالح ابن أبى سرح أهل الحصون وأهل المدائن على مائة ألف رطل من الذهب.

قال أبو عثمان سعيد بن عفير فى تاريخه: ولما سمعت الروم والأزارقة بخروج عبد الله بن سعد ووصوله إلى إفريقية خرجوا إليه ومعهم جرجير بالبراز، فبرز إليه عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم فقتله ابن الزبير ومنهم من قال قتلاه كلاهما، ثم كانت الهزيمة على الروم، واتخذ المسلمون ذلك المنزل معسكراً ومنزلاً وأصابوا غنائم كثيرة، وقسم عبد الله الفئ على الجيش فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف مثقال، وتولى قسم الغنيمة عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ونفل عبد الله ابن أبى سرح ابنة جرجير إلى عبد الله ابن الزبير لأنه قتل جرجيراً أباها، وبلغ الخمس أربعمائة دينار. قال عبد الله بن الزبير: هجم علينا جرجير فى عسكره فى عشرين ومائة ألف فأحاطوا بنا من كل مكان وسقط فى يد المسلمين ونحن فى عشرين ألفًا، فاختلف الناس على ابن أبى سرح فدخل فسطاطًا له، ورأيت عورة من جرجير نظرته به خلف عسكره على برذون أشهب، معه جاريتان له تظللان عليه بريش الطواويس وبينه وبين جرجير أرض بيضاء ليس فيها أحد، فخرجت أطلب ابن أبى سرح فقيل قد خلا فى فسطاطه، فدخلت عليه فوجدته مستلقيا على ظهره، فلما دخلت عليه فزع فاستوى جالسًا فقلت : إيه كل آرق يعور، فقال: ما أدخلك عليَّ يا ابن الزبير، فقلت له: إنى رأيت عورة من العدو فاخرج فاندب الناس، قال : وما هىّ؟ فأخبرته فخرج معى سريعًا، فقال : أيها الناس انتدبوا مع ابن الزبير فاخترت ثلاثين فارسًا، وقلت لسائرهم : اثبتوا على مصافكم، وحملت فى الوجه الذى رأيت فيه جرجيراً، وقلت لأصحابي : احموا ظهرى فوالله ما لبثت أن خرقت الصف إليه، فخرجت صابراً لله ولا يحسب هو وأصحابه إلا أننى رسول إليه، حتى دنوت منه فعرف الشر فى وجهى، فثنا برذونه موليًا فأدركته بادراً، فدفعت بالسيف إليه فأصبت إحدى الجاريتين فقطعتها، واحتززت رأسه فنصبته فى رمحى، وكبّرت وحمل المسلمون فى الوجه الذى كنت فيه وأرفض العدو من كل وجه، ومنح الله المسلمين اكتفاءهم، فلما أراد ابن أبى سرح أن يوجه بشيراً إلى عثمان أمير المؤمنين رضى الله عنه، قال : أنت أولى ممن ها هنا بذلك، انطلق إلى أمير المؤمنين

وأخبره بالخبر، فقدمت على عثمان فأخبرته بنصر الله وفتحه ووصفت له أمرنا كما كان. وروى عن عبد الله بن نافع وعبد الملك بن حبيب أن عبد الله بن الزبير وصل من إفريقية إلى المدينة فى شهر، وذكر الحسن بن سعيد الخراط إنه وصل إلى المدينة من سبيطلة فى ثمانية عشر يومـًا، كان يومئذ ابن بضع وعشرين سنة، فلما وصل عبد الله بن الزبير إلى المدينة وأخبر عثمان رضى الله بما كان من الفتح، أمره عثمان أن يقوم بذلك خطيبًا فى مسجد رسول الله ﷺ فقال : أنا وهبت لك ذلك فقام أمير المؤمنين عثمان خطيبـًا فى الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إن الله فتح عليكم إفريقية وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله، وكان عبد الله رضى الله عنه إلى جانب المنبر، فقام فقال: الحمد لله الذى ألف بيننا بعد الفرقة وجعلنا متحابين بعد البغضة الذى لا تُجحد نعماؤه ولا يزال ملكه له الحمد كما حمد نفسه وكما هو أهله إلى آخر خطبته المشهورة، قال: وأقام ابن أبى سرح بسبيطلة وهو الأمير على عسكره، والحاكم بينهم، فلما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سبيطلة غارت أنفسهم، وتجمعوا وكاتب بعضهم بعضًا واستقلوا ضرب ابن أبى السرح فخاف منهم بما معه من الغنائم، فكتب إلى خليفته بمصر أن يندب إليه مراكب فى البحر ويجعل فيها غنائم المسلمين، فوصل كتابه إلى مصر وأخذ خليفته فيما أمره به واتصل بالروم قصد ابن أبى سرح إياهم واستقباله حربهم، فخافوه وراسلوه، ودار بينهم تشاجر، فجعلوا له جعلاً على أن يرتحل بجيشه ولا يتعرضوا لشىء معه، فأجابهم إلى ذلك، ووجهوا إليه مائة قنطار من الذهب، فقبضها منهم وانصرف عنهم راجعًا إلى مصر، بعد أن أقام بإفريقية سنة وشهرين، فلما وصل إلى طرابلس وافته المراكب فجعل فيها أثقال جيشه، ونفذ هو ومن معه إلى مصر سالمين، ووجه إلى عثمان رضى الله عنه بالأموال التى معه من الخمس وغيره، فوقعت الفتنة على أثر ذلك، واستشهد عثمان رضى الله عنه وولى بعده علي رضى الله عنه، وبقيت إفريقية على حالها إلى ولاية معاوية، فلما ولى معاوية عزل عبد الله بن أبى سرح عن مصر وإفريقية وولى معاوية بن خديج الكِندى وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وكان ذلك فى سنة أربعين بعد الهجرة، فأراد معاوية بن أبى سفيان غزو إفريقية، فأغزى معاوية بن خديج، فخرج معاوية من مصر وهو عامل معاوية عليها سنة خمس وأربعين بعد الهجرة ومعه عبد الله بن الزبير وجماعة من الصحابة

وغيرهم من التابعين، وكان معه أيضاً عبد الملك بن مروان ويحيى والأكدر بن حمام اللخمى وكريب بن أبزة بن الصماخ وخالد بن ثابت الفهرى وأشراف من جند مصر، حتى وصل إلى إفريقية وقصد جلولا(*) وعليها عامل لجرجير الرومى الذى كان ملك سبيطلة، فنزل بجيشه على قروية وهى قروان إفريقية، فدخل منها إلى جبل يقال له القرن، قال فلما وصلوا إليها امتنعوا منه وتحصنوا فحاصرهم حتى فتحها فى قصة طويلة، فغنم كل ما كان فيها ثم أنفذ الغنائم إلى معاوية بن أبى سفيان بالشام، وقال أبو بكر المكى قال أبو العرب : إن معاوية بن خُديج غزا إفريقية ثلاث غزوات، أما الأولى فهى سنة أربع وثلاثين فى خلافة عثمان بن عفان، وكانت تلك الغزوة لا يعرفها كثير من الناس، وأما الثانية فهى فى سنة خمس وأربعين من الهجرة، وقال محمد بن يوسف الوراق القيروانى إن معاوية ابن خديج غزاها سنة أربع وثلاثين وهى أولى غزواته ثم غزاها عُقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى سنة اثنين وأربعين ثم غزاها معاوية بن خديج وهى حرب كلها، وغزا معاوية جزيرة صقلية فى مائتى مركب وأصاب منها غنائم كثيرة وانصرف إلى قمونية وقسم عليهم فيأهم وبعث بالخمس إلى معاوية بن أبى سفيان وهذه الغزوة هى غزوة معاوية بن خديج الثانية وكانت سنة خمس وأربعين، وقيل سنة إحدى وخمسين كما ذكر الوراق.

وقال المالكى : لما وصلت الغنائم إلى معاوية بن أبى سفيان، أعاد عليها معاوية ابن خديج بجيوش الشام ومصر إلى إفريقية، وكان ذلك سنة خمسين ومعه عبد الملك بن مروان، فوصل إلى إفريقية واحتفر الآبار التى تسمى اليوم آبار خديج بباب تونس، وإنما احتفرها إذ كان عسكره هناك، ثم غزا منها وغنم غنائم كثيرة من نواحيها ورجع قافلاً إلى قمونية، وبنى بناحية القرن مساكن وسماها قيروانا، وموضع القيروان غير مسكون ولا معمور، ثم رحل معاوية بن خُديج من إفريقية إلى معاوية بن أبى سفيان فرفع الغنائم إليه ثم عزله معاوية من مصر وولى عليها سلمة بن مخلد الأنصارى، فوجه سلمة خالد بن ثابت الفهرى إلى إفريقية وكان من التابعين، فخرج فى محرم سنة أربع وخمسين فانتهى إلى مواضع منها وأصاب غنائم كثيرة، ثم عزل سلمة وولى عليها أبا المهاجر بجيش من قِبَلِهِ فوصل

---

* جلولا : بلدة تقع في أطراف مدينة القيروان ببلاد تونس الخضراء، وبها مقام الصحابي أبي زمعة البلوي، ويزار حتى الآن من أهل القيروان.

إلى إفريقية، فأخذ عُقبة بن نافع الفهرى فحبسه وضيق عليه، فبلغ خبره معاوية، فكتب إلى أبى المهاجر يأمره بتخليته ويعنفه فيما صنع، فأطلقه أبو المهاجر وأرسله برسل من قبله حتى أخرجه من قابس فمضى وهو حنق على أبى المهاجر فدعا الله عز وجل أن يمكنه منه فلم يزل أبو المهاجر خائفًا من دعائه، وقال: هو عبد لا تُرد له دعوة. ثم إن أبا المهاجر صالح بربر إفريقية وفيهم كسيلة الأوربى وأحسن إليه واتخذه صديقًا وصالح عجم إفريقية وخرج بجيوش من العرب للفتح كل ما مر به حتى انتهى إلى العيون التى تسمى اليوم عيون أبى المهاجر نحو تلمسان ولم يستخلف على القيروان أحدًا ينظر فيها لأن أكثرهم خرج معه ولم يبق إلا الشيوخ ونساء وأطفال ثم رجع إليها فأقام بها. انتهى كلام المالكى.

وقال محمد بن يوسف الوراق: أن عُقبة بن نافع الفهرى غزا إفريقية غزوته الثانية فى سنة ست وأربعين من الهجرة فافتتح كثيرًا من حصونها وأثخن فى قتل الروم والبربر واختط مدينة القيروان وتحول بها أيامًا ثم قدم أبو المهاجر مولى سلمة بن مخلد الأنصارى إلى إفريقية سنة خمس وخمسين على نحو ميلين وجدّ فى بنائها وتشييدها ولم يزل عُقبة فى حبسه حتى أتاه كتاب الملك الخليفة معاوية بن أبى سفيان يأمره بإطلاقه.

قال المالكى: ولما سرح عُقبة من وثاقه توجه إلى معاوية بن أبى سفيان فوجده قد توفى وولى بعده يزيد فدخل وأخبره بما صنع أبو المهاجر بالقيروان. وما حل به منه، وقال: فتحت إفريقية وبنيت مسجد الجامع فبعث عُبيدًا الأنصارى فأهاننى وأساء عزلتى فغضب يزيد وقال: أدركوها قبل أن يخربها، ورد عُقبة إليها وأزال ولاية سلمة عنها وأقره بمصر وذلك فى سنة اثنتين وستين من الهجرة فقدم عُقبة عليها فى عشرة آلاف فارس فوصل إلى القيروان فأخذ أبا المهاجر وحبسه وقيده وأخذ منه ما وجد بيده من الأموال فبلغ ذلك مائة ألف دينار ذهبًا، وجدد بناء القيروان وشيدها ونقل إليها الناس فعمرت وعظم شأنها وعلا قدرها وأعز الله بها الإسلام وأقر بها أعين الأنام، ثم إن عقبة خرج بأصحابه وبكثير من أهل القيروان إلى المغرب، واستخلف عليها عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي وخرج بأبى المهاجر معه موثوقًا ولما خرج عُقبة دعا بأولاده فقال لهم: إنى بعت نفسى من الله ولا أدرى ما يقضى عليّ فى سفرى، ثم قال: يابنى إنى أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها إياكم أن تملأوا صدوركم شعرًا



وتتركوا القرآن، املأوا صدوركم من كتاب الله فإنه دليل على الله، وخذوا من كلام العرب ما تهذبون به ألسنتكم ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه وأوصيكم أن لا تداينوا ولو لبستم العباء، فإن الدّين ذل بالنهار وهم الليل، فدعوه تسلم لكم إقداركم وأعراضكم وتبقى لكم الحرمة مع الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المترخصين يحملونكم دين الله، ويفرقون بينكم وبين الله، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والحيطة، فإنه أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا، ثم قال: عليكم سلام الله، وأرى أن لا ترونى بعد يومى هذا، ثم قال: اللهم تقبل نفسى فى رضاك، واجعل الجهاد رحمتى من دار كرامتى عندك، ثم سار لا يدافعه أحد حتى انتهى إلى باغى والروم يهربون من طريقه يمينًا وشمالاً فحاصرها، وقد اجتمع فيها الروم فقاتلهم وحاصرهم حصاراً شديداً ثم انهزم عددهم فقتلهم قتلاً ذريعًا، وغنم أموالهم، ثم كره أن يقيم عليهم فرحل عنهم ونزل على تلمسان وهى من أعظم مدائنهم وانضم إليها من حولها فخرجوا إليه فى عدد لا يعلمه إلا الله تعالى فقاتلهم حتى ظن المسلمون أنه الفناء فضرب الله فى وجوه الروم فقاتلهم إلى باب الحصن وأصاب الناس منها غنائم كثيرة ثم ترك القيام عليها فرحل يريد الزاب(*) فسأل عن أعظم مدائنه فقيل له مدينة يقال لها آدانة وهى دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فلما بلغهم قدوم المسلمين عليهم هربوا إلى حصنهم وإلى الجبال، فلما قدم عُقبة نزل على واد منها على ثلاثة أميال أو أكثر قليلاً فبلغوه عند الوادى فى وقت المساء وكان وقت نزوله يكره قتالهم بالليل فتواقف القوم الليل كله لا راحة لهم ولا فترة ولا نوم فسماه الناس إلى اليوم وادى السهر لأنهم سهروا فيه عليه فلما أصبح عُقبة صلى الصبح ثم أمر المسلمين بقتالهم فقاتلوهم، فقال ما رأى المسلمون قتالاً مثله قط حتى يئس المسلمون من أنفسهم ثم أعطاهم الله تعالى الظفر، فانهزم الروم وقتل فرسانهم وأهل النكاية والبأس منهم واستولت الهزيمة على بقيتهم وفى هذه الغزوة ذهب الروم من الزاب وذلوا، فكره عُقبة المقام عليهم وقد تحصنوا فرحل يريد المغرب الأقصى حتى نزل تاهرت فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم، فقام فى الناس خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها

* الزاب: منطقة فى شرق بلاد الجزائر وأهم مدنها بسكرة وتقع هذه المنطقة جنوب الأوراس.

الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضى الله عنهم وأنزل عليهم كتابه بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على من كفر بالله إلى يوم القيامة فهم أشرافكم والسابقون منكم للبيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة وأنتم اليوم فى دار غربة، وإنما بايعتم رب العالمين فقد نظر إليكم فى مكانكم هذا ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبًا لرضاه وإعزازًا لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى وربكم عز وجل لا يسلمكم فاصبروا والقوهم بقلوب صادقة، فإن الله تعالى جعل معكم بأسه الذى لا يُرد عن القوم المجرمين، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه.

فالتقى المسلمون معهم فاقتتلوا قتلاً شديداً فلم يكن لهم بقتال العرب من طاقة فولوا هاربين فقتلهم المسلمون قتلاً ذريعا فأبادوا فرسان البربر وتفرق جمعهم وأقيالهم وقليل من نجا منهم ثم رحل حتى نزل طنجة فنزل على بحر وهو الأندلس، فقيل له ذاك بحر لا يرام وعليه ملك عظيم الشأن وما أظنك تقدر أن تجوز هذا البحر فقال لهم: دلونى على رجال البربر والروم، فقيل له: قد تركت خلفك الروم وقد أمنتهم وما أمامك إلا البربر وهم فى عدد لا يعلمه إلا الله وهم الجهاد البربر فسألهم عن موضعهم فقالوا له: بالسوس الأدنى، فأمر عُقبة الجيش بالرحيل على بركة الله تعالى وعونه، فرحل يريد السوس الأدنى فلقى البربر فى عدد لا يعلمه إلا الله تعالى، فانهزموا وقتلهم قتلاً ذريعًا وامعنت خيل المسلمين فى البلاد ثم رحل إلى السوس الأقصى، فاجتمع عليه البربر فى عدد لا يحصى فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر القتلى من الفريقين، ثم إن الله عز وجل بمنه وكرمه وفضله ضرب فى وجوههم فهزمهم المسلمون وقتلوا وغنموا أموالهم وسبوا نساءهم فبلغنا أن الجارية منهم بلغ ثمنها بالمشرق ألف دينار، ثم هربوا بين يديه ثم رحل يريد البحر المحيط فانتهى إليه وأقحم فيه فرسه لا يقف بين يديه أحد ولا يرومه بشىء ثم نادى بأعلى صوته وهو يشير بسوطه السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال بعض أصحابه على من تسلم يا ولى الله؟ فقال: على قوم يونس من وراء هذا البحر ولولا هذا لوقفت بكم عليهم، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم اشهد أنى قد بلغت المجهد، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك ثم انصرف راجعًا يريد إفريقية وداخل البربر منه رعب عظيم وتفرقوا فى الجبال، فلما دنا منهم أمر أصحابه أن يتفرقوا فوجًا فوجًا



إلى إفريقية فلما انتهى إلى ثغر إفريقية وهى طنجة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أذن لمن بقى معه بالانصراف إلى القيروان وقال وهو متياسر عن طنجة فلما انتهى إليها نظره الروم فى خيل يسيره فقرب إليها لينظر إليها ويعرف قدر ما يكفيها من الخيل فيقطع ذلك إليها وخيوله متياسره عن طنجة فلما انتهى إليها نظر الروم إلى قلة من معه من الخيل، فقالوا: فى قلة هذه الخيل قتل أهل الأرض كلهم وظنوا أن ذلك كان هو عسكره، فاغلقوا باب حصنهم دونه وأقبلوا يرمونه بالحجارة وهم مع ذلك يشتمونه وكل ذلك وهو يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى رسوله فلما توسط البلاد نزل وبعث الروم إلى كُسيلة الأوربى فأعلموه بقلة من معه فخرج له جمع من الروم والبربر وتسارعوا إليه، ثم زحف إليه ليلاً حتى نزل بالقرب منه واختلط بعسكر عُقبة وأقام كذلك حتى أصبح فلما راى ذلك عُقبة استعد له وأمر أصحابه أن لا يركب منهم أحد ويئس المسلمون من أنفسهم وقاتلوا المشركين قتالاً شديداً حتى بلغ البلاء وتكاثر فيهم الجراح وتكاثر عليهم العدو فاستشهد عقبة رضى الله عنه وجميع من معه رضى الله عنهم واستشهد معه أبو المهاجر وكان موثوقًا فى الحديد وقيل أن كسيلة الأوروبى إنما أتى قاصداً إلى أبى المهاجر لأنه كان صديقًا له فلما التحم القتال بين الفئتين قتل أبو المهاجر معهم ولم يعلم به. وقيل إن أبا المهاجر حارب كسيلة مع البربر حتى ظفر به فعرض عليه الإسلام فأسلم فأحسن إليه أبو المهاجر وكان فى عسكر المسلمين حتى عزل أبو المهاجر وقدم عُقبة فلما أراد أن ينهض إلى طنجة قال أبو المهاجر: ليس بطنجة عدو لك لأن الناس قد أسلموا وهذا رئيس البلاد يريد كسيله فابعث معه واليا فأبى عُقبة إلا أن يخرج بنفسه فخرج فنزل ماسة بمكان من السوس الأقصى فبنى بها مسجداً ثم أتى بذود وغنم للعسكر فذبح الذود فأمر عقبة كسيلة أن يسلخ مع السلاخين فقال له كسيلة: أصلح الله حال الأمير هؤلاء فتيانى وغلمانى فقهره عقبة فقام كسيلة مغضبًا فكان كلما دحس فى الشاه مسح لحيته بما علق بيده من بلل ذلك، وجعل العرب يمرون به وهو يمسح ويقولون له: يا بربرى ما هذا الذى صنعت؟ كان رسول الله ﷺ يتالف جبابرة العرب مثل الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى وأنت تجئ إلى رجل من خيار قومه فى دار عزه قريب عهد بالكفر فتقسى قلبه توثق من الرجل، وإلا أخيف فتكه، فتهاون عُقبة فلما انصرف انكث البربرى ما كان عليه وأقبلت النفرة إلى عُقبة فقال أبو المهاجر: عاجله قبل أن يخرج يجمع أمره فزحف

إلى عُقبة فتنحى بين يديه وهو فى خمسين ألفًا ونحن فى خمسة آلاف لأن العسكر افترق فغشى كسيلة عُقبة بقرب ثمودة فى كثرة لا يعلمها إلا الله تعالى عز وجل فنزل عقبة عن فرسه فركع ركعتين وقال اطلقوا أبا المهاجر ثم قال له عقبة: قم بأمر المسلمين وأنا اغتنم الشهادة فقال له أبو المهاجر: أنا أغتنم ذلك فكسر كل واحد منهما غمد سيفه وكسر المسلمون أغماد سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا رضى الله عنهم أجمعين وقيل إن عُقبة أمر بتخلية أبى المهاجر فأعجله القتال فقاتل وهو موثوق بالحديد وذكر ان أبا المهاجر تمثل بقول أبى محجن(*) حيث يقول:

كفى حزنا ان تقنع الخيل بالقنا *** وأترك مشدودًا وثاقيا

إذ قمت عنانى الحديد وأغلقت *** مصارع أبواب تصم المناديا

وروى عن وهب بن منبه وشهر بن حوشب أن هذه البقعة التى يقال لها ثمودة كان النبى ﷺ ينهى عن سكناها وقال: سوف يقتل بها رجال من أمتى على الجهاد فى سبيل الله تعالى ثوابهم وثواب أهل بدر واحد وا شوقاه إليهم منها يحشرون يوم القيامة برحالهم، وروى أن عُقبة مر بعبد الله بن عمرو بن العاص وهو بمصر فى وقت عودته إلى إفريقية فقال له عبد الله: لعلك من الجيش الذى يدخلون الجنة برحالهم قال: فمضى بجيشه حتى قاتل البربر وهم كفار فقتلوا جميعًا قال المالكى: فلما استشهد عُقبة وأصحابه جمع كسيلة أهل المغرب وزحف بهم يريد القيروان فانقلبت إفريقية نارًا وعظم البلاء على المسلمين ومضى كسيلة بالعساكر حتى جاوز القيروان فخرجت العرب منها هاربة ولم يكن لهم فى حربه طاقة لعظم ما اجتمع عليه من الروم والبربر وأسلموا القيروان وبقى بها أصحاب العيال ومن ثقل من التجار وأهل الذمة فحار الناس ولم يدروا كيف يصنعون فأرسلوا إلى كسيلة يسألونه الأمان ووثقوا بدعوة عُقبة رضى الله عنه، فأجابهم إلى ذلك ودخل القيروان إلى الموضع الذى كان فيه عُقبة فنزله وأقام بها أميرًا وبقى المسلمون تحت يده ومضى الذين هربوا حتى قدموا على يزيد فوجدوه قد مات. وذكر أبو العرب أن زُهير بن قيس البلوى خليفة عُقبة لما بلغه ما جرى على عُقبة

(*) أبومحجن، كان فارسًا يشرب الخمر زمن سعد بن أبى وقاص فى معارك القادسية مع الفُرس فلما حبسه سعد فى الحديد، قال شعرًا وهو فى السجن وعزم على التوبة والجهاد فسمعته زوجة سعد وفكت أسره ليقاتل الأعداء ثم يعود فى المساء إلى قيوده ولما علم سعد بصدقه وبلائه فى القتال أطلق سراحه فزادت همته وانطلق مع المجاهدين في سبيل الله.

رعب رعبًا شديدًا عظيمًا وأراد الإنصراف إلى مصر فأتاه.ابن حيان الحضرمى فقال له: لا تفعل فإنها هزيمة إلى مصر، فكان أول من برز وضرب خباءه مبارزاً للعدو فلما رأى زهير عزمه عزم معه وكان مع المسلمين فى عسكرهم تبيع بن مرة كعب الأحبار، فقال له زُهير: لمن تراها قال أراها لرجل من العزب من غسان وأنت رجل من بلي ا، فقال: أنا والله من العرب وأنا والله من غسان جنى جدى جناية فى زمنه فلجأ على بلي فغلب عليه الاسم، فقال: عند ذلك لتبيع علامة الفتح لنا فقال: يطيش من أصحابك فيستشهد فلما تنادت الخيل طاش رجل من موادى اليمن فقتل وكان اللقاء بنصر أبى عبيد ويقال أن تبيعًا قال لزهير: علامة صاحب الفتح أن يفتض ذلك اليوم بكراً، قال: فأدنى زُهير رأسه وقال: إنه لم يخف بعد وأنا طهرت من افتضاض بكر الساعة، فقال له تبيع. اخرج على بركة الله وعونه فثبت زهير بالقيروان حتى زحف عليه كسيلة وخرج الروم من حصونهم ونقضوا العهد ووافق جمعهم عيد الأضحى فاعتد زهير هو ومن معه وكانوا ستة آلاف من البربر بعث إليهم وقال إنا وإياكم أهل كتاب ولد حضرنا عيد نعظمه فأخروا حربنا حتى نقضى العيد فأجابوه إلى ذلك فلما انقضى العيد زحف كسيلة وقاتله قتالاً شديداً فانهزم كسيلة وقتل من أصحابه ما لا يحصى ومضى إليه تلك الجموع وهرب الروم وتفرقت جموعهم، فأقام زهير يسيراً بالقيروان ثم خرج إلى مصر فوصل إلى لوبية ومراقية وذلك؛ فى سنة خمس وستين، فوجد يزيد قد مات وعبد الله بن الزبير خليفة بمكة ومروان بن الحكم أمير بالشام فاجتمع المسلمون إلى مروان بن الحكم فسألوه أن يبعث الجيوش إلى إفريقية لخلاص من فيها من المسلمين من يد كسيلة وأن يقرها للإسلام كما كانت فى أيام عُقبة فقال لهم: ومن يوجد مثل عُقبة فاتفق رأيه ورأى المسلمين على زهير بن قيس البلوي رضى الله عنه وكان من رؤساء العابدين وأشراف المهاجرين، فوجه إليه عبد الملك بن مروان يأمره بالخروج على أعنة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية حتى يعود الإسلام كما كان فلما اتصل ذلك بزُهير سره ذلك وسارع إلى الجهاد وكتب إلى عبد الملك يخبره بقلة من معه من الرجال وقلة الأموال فأرسل عبد الملك رجالاً من العرب وأشرافهم يحشرون عليه الناس من مدائن الشام وأفرغ عليهم الأموال فتسارع الناس إلى الجهاد واجتمع منهم خلق كثير فأمرهم أن يلحقوا بزهير فلما وصلوا إليه خرج بهم إلى إفريقية، فلما دنا من القيروان نزل بقرية يقال لها قلشانة

وكان ذلك فى سنة تسع وستين، فبلغ ذلك كسيلة وكان فى خلق عظيم من الروم والبربر فدعا كبارهم وأشرافهم وشاورهم فى أمره وقال لهم: إنى رأيت أن أرحل إلى ممس فأنزل عليها لأنى أخاف إذا إلتقينا مع القوم والتحم القتال أن يركبنا من فى القيروان من المسلمين فنهلك ولكن ننزل بعسكرنا على ممس لأن ماءها كثير وهو يحمل عسكرنا فإن هزمناهم دخلنا معهم طرابلس وإن هزمونا كان الجبل منا قريبًا فتحصنا به، فأجابه الناس إلى ذلك فرحل إلى ممس فنزل بها فبلغ ذلك زهيرًا وكان ينتظره أن يخرج إليه من القيروان فلما نزل كسيلة ممس رحل زهير بعسكره فنزل القيروان وأقام بها ثلاثة أيام حتى استراح وأراح أصحابه خيلهم ونظروا إلى عمل كسيلة فإذا به يريد قتالهم فزحف إليه زهير يوم الأربعاء صباحا، فسار نهاره أجمع حتى أشرف على عسكر كسيلة فى آخر النهار فأمر الناس بالنزول فنزلوا وبات الناس على مصافهم فلما أصبح زهير صلى الصبح غلسا ثم زحف إليه بمن معه فالتقى الفريقان فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى كثر البلاء فى الفريقين جميعًا فضرب فى وجه كسيلة فانهزم هو وأصحابه وقتلوا قتلاً ذريعًا وأثخن العرب فيهم القتل وقُتل كسيلة بممس ولم يجاوزها وتمادت العرب فى طلب أصحابه حتى سقوا خيلهم من ملوية (واد بطنجة) وأفنوا رجال الروم وفتح سقنبارية وقلاعها ثم رحل إلى القيروان وقد فزع منه جميع الروم والبربر، ثم إن زهيرًا رأى فى إفريقية رفاهية العيش ومُلكًا عظيمًا فأبى المقام، وقال: إنما قدمت للجهاد ولم أقدم لحب الدنيا وكان رضى الله عنه من رؤساء العابدين فراوده أصحابه على المقام بإفريقية فأبى ورجع إلى المشرق ونزل ببرقة وكانت له بها وقائع كثيرة مع المشركين وكان لما بلغهم أن زهيرًا خرج غازيًا إلى افريقية لقتال الروم والبربر وأيقنوا أنه خرج من برقة أمكنهم ما يريدون فخرجوا إليها فى مراكب كثيرة وقوة عظيمة فأغاروا على برقة فأصابوا منها سبيًا كثيرًا وقتلوا وأفسدوا وذهبوا، فوافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة، فأخبروه بالذى حل بهم من الروم فأمر عسكره أن يمضى على الطريق وعدل هو إلى الساحل فى خيل يسيره من فرسان أصحابه وأنجادهم وطمع أن يدرك شيئًا من سبى المسلمين فلما انتهى إلى الساحل أشرف على الروم فإذا هم فى خلق كثير فلم يقدر أن يرجع واستغاثه ذرارى المسلمين وصاحوا والروم يدخلونهم فى المراكب وعسكر الروم فى البر فنادى زهير فى أصحابه أنزلوا رحمكم الله فنزل المسلمون وبرز الروم لقتالهم فالتقى الفريقان واقتتلوا قتالاً شديداً

حتى عانق بعضهم بعضًا وتكاثر عليهم الروم فاستشهد زهير وكل من معه من المسلمين رضى الله عنهم ولم يفلت منهم إلا رجل واحد، فأدخل الروم خيلهم وسلاحهم وسبيهم الذى كان معهم فى المراكب.

فلما وصل الخبر إلى عبد الملك بن مروان الأموى فى دمشق اشتد عليه وعلى المسلمين ذلك، وكانت المصيبة بزهير مثل المصيبة بعُقبة بن نافع وأصحابه رضى الله عنهم، فسأل عبد الملك بن مروان أشراف المسلمين أن ينظروا إلى إفريقية من يؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش إليهم فقال عبد الملك ما أعلم أحدًا أكفى بإفريقية من حسان بن النعمان الغسانى فبعثه عبد الملك أميرًا على إفريقية سنة تسع وستين فى جيش فيه ستة آلاف وهو أول من دخل إفريقية من أهل الشام فى زمن بنى أمية فخرج حسان بجيوشه حتى وصل إفريقية فسأل أهل إفريقية عن أعظم ملوك إفريقية فقالوا: صاحب قرطاجنة فرحل إليه حسان وفى قرطاجنة من الروم ما لا يعلمه إلا الله وهى على شاطئ البحر وتسمى ترشيش وهى من مدينة القيروان على مئة ميل فسار حسان حتى نزل على مدينة ترشيش ووجه خيله إلى قرطاجنة فلم يكن فيها بحر فضيّق عليهم حسان وتواقف القوم فاقتتلوا قتالاً شديدًا فقتل رجالهم وفرسانهم واجتمع رأى الروم أن يهربوا فى البحر وكانت لهم سفن كثيرة فتحملوا فيها فمنهم من هرب إلى صقلية ومنهم من هرب إلى الأندلس فدخلها حسان بالسيف فسباها وغنم ما فيها وقتل الرجال وأرسل إلى ما حولها من العمران فاجتمعوا إليه مسرعين خوفًا منه فأمرهم بهدم قرطاجنة وقطع القناة عنها ثم اجتمع عليه الروم وعقدوا عليه عسكرًا عظيمًا لا يعلمه إلا الله تعالى وأمراؤهم البربر وذلك بموضع يسمى صقفورة فرحف إليهم حسان فقاتلهم قتالاً شديدًا وأصيب من أصحابه رجال كثيرون رضى الله عنهم، ثم إن الله تعالى بمنه وفضله وإحسانه ضرب فى وجوه الروم والبربر فانهزموا بعد بلاء عظيم فقتلهم حسان قتلاً عظيمًا واستأصلهم وحمل بأعنة الخيل عليهم فما ترك فى بلادهم موضعًا إلا وطئه بخيله ولجأ بقية الروم خائفين هاربين إلى مدينة باجة(*) فتحصنوا فيها وهرب البربر إلى إقليم بونة[1] وأتى حسان البحر فاحتفره، وجعل دار الصناعة وأخرج إليها، ثم انصرف إلى مدينة القيروان فأقام بها حتى برئت جراح أصحابه.

(*) باجة: مدينة شمال القطر التونسى.

(١) بونة: تسمى عنابة بشمال الجزائر.

ثم سأل حسان عن أعظم ملك بإفريقية وعمن إذا قتل خافت إفريقية لقتله فقيل له ليس بإفريقية أعظم قدراً ولا أبعد صيتًا ولا أشد ضربًا من إمرأة يقال لها الكاهنة وهى فى جبل أوراس وجميع من بإفريقية يهابها الروم لها سامعون مطيعون فإن قتلها يئس الروم والبربر بإفريقية فإنها لهم ملجأ، فلما سمع ذلك حسان عزم على غزوها فخرج إليها بجيوشه فلما بلغ موضعًا يقال مجانة نزل به وكانت قلعة مجانة لم تُفتح فتحصن بها الروم، فمضى وتركهم، وبلغ الكاهنة أمره، فزحفت من جبل أوراس فى عدة لا يعلمها إلا الله تعالى، فنزلت بمدينة باغياى، فأخرجت من بها وهدمتها، وظنت أن حسانًا يريدها حصنًا يتحصن به، ثم أقبل حسان حين بلغه الخبر إلى واد يقال له مكناسه، فقيل له: إنها قد أقبلت فى عدد لا يحصى، فقال لهم: دلونى على ما يسع العسكر الذى أنا فيه، فمالوا به إلى نهر فنزل عليه، ورجعت إليه الكاهنة حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه، فكان يشرب هو وأصحابه من أعلى النهر وتشرب هى من أسفله فلما دنا بعضهم من بعض وتوافقت الخيل أبى حسان أن يقاتلها بالليل، فوقف كل فريق على مصافهم فلما أصبحوا زحف بعضهم إلى بعض واقتتلوا قتالاً شديداً فعظم البلاء وظن المسلمون الفناء وانهزم حسان بعد بلاء عظيم وقتل من العرب خلق كثير فسمى ذلك النهر بنهر البلاء، فاتبعته الكاهنة بمن معها حتى خرج من حد قابس فأسلم إفريقية ومضى على وجهه وأسرت من أصحابه ثمانية رجال وقيل إنها أسرت ثمانين رجلاً منهم يزيد بن خالد العبسى وكان رجلا مذكوراً، فلما فصل حسان من قابس كتب إلى أمير المؤمين بخبر ما نزل بالمسلمين وبخبر الكاهنة وطفق يرفق فى سيره طمعًا فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا به ثم إن أمير المؤمنين عبد الملك كتب إليه: بلغنى أمرك وما لقيت ولقى المسلمون فحيث ما لقيك كتابى هذا فأقم ولا تبرح حتى يأتيك أمرى؛ فلقيه كتابه وهو نازل بالموضع الذى يقال له اليوم قصور حسان، فابتنى هناك قصراً لنفسه وأقام بذلك الموضع هو ومن معه ثلاث سنين، وملكت الكاهنة إفريقية كلها. وكانت الكاهنة حين أسرت أصحاب حسان أساءت إليهم إلا يزيد بن خالد العبسى حيث تبنته الكاهنة ثم عمدت إلى دقيق شعير مفلق فأمرت به فلُتّ بزيت، والبربر تسمى ذلك بسيسة، ثم دعت يزيد بن خالد وابنين لها فأمرتهم فأكل ثلاثتهم قالت لهم: أنتم الآن قد صرتم إخوة وذلك عند العرب من أعظم

العهود فى جاهليتهم إذا فعلوه، ثم إن حسانًا بعث رسولاً إلى يزيد وهو عند الكاهنة فأتاه فقال إن حسانًا أرسلنى إليك وهو يقول لك: ما منعك من أن تكتب إلينا بخبر الكاهنة؟ فكتب يزيد كتابًا إلى حسان مع رسوله فى خبره ملة(*) قد أنضجها ثم رفعها إلى الرسول ليخفى الكتاب وليظن ناظره أنه زاد للرجل فلم يغب شخص الرسول عنهم حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها وهى تقول: يا معشر بنى ذهب ملككم ودنا هلاككم فيم يأكل الناس وكررت ذلك ثلاثا ومضى الرسول حتى قدم على حسان بالكتاب وفيه كل ما يحتاج إليه من خبر الكاهنة يقول فيه: إن البربر يعقدون عساكرهم بالنهار ويفترقون بالليل وليس لهم حزم فى الرأى وإنما ابتلينا بأمر أراده الله وأكرم به من أراد منا بدرجة الشهادة فإذا نظرت فى كتابى هذا فاطو المراحل وجدّ فى السير فإن الأمر إليك ولست أسلمك إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ثم إن يزيداً كتب بعد ذلك إلى حسان بخبر الكاهنة وعمد إلى قربوص فنقره ووضع فيه الكتاب وطبق عليه القربوص وأخفى مكان النقر منه ثم حمل رسولاً على دابة بالكتاب فلما فصل الرسول خرجت الكاهنة ناشرة شعرها وهى تقول: قد دنا هلاككم فى شئ من نبات الأرض وهو بين خشبتين، وكانت من أعلم أهل زمانها بالكهانة، ومضى الرسول حتى قدم على حسان فلما بلغ الكاهنة أن حسانًا مقيم بقصوره لا يبرحها قالت للبربر والروم: إنما طلب حسان من إفريقية المدائن والذهب والفضة والشجر ونحن إنما نريد المراعى والمزارع، فما نرى لكم إلا خراب إفريقية ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة وقرى متصلة، وأخربت ذلك كله الكاهنة فخرج من النصارى ثلاثمائة رجل يستغيثون بحسان فيما نزل بهم من خراب الحصون وقطع الشجر وكان قد وجه إليه عبد الملك بن مروان رسولاً يأمره بالنهوض إلى إفريقية قبل أن تخربها الكاهنة فوافق ذلك وصول الروم إليه وقدوم رسول يزيد بن خالد إليه فخرج بجميع عسكره إلى إفريقية فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقالت: يا بنى انظروا ماذا ترون فى السماء؟ فقالوا: نرى شيئا من سحاب أحمر فقالت لهم: لا والله ما هى إلا رهج خيل العرب أقبلت إليكم، ثم قالت

(*) ملة: هو قرص من العجين بالسمن يوضع فى الجمر ويغطى بالرمال حتى ينضج.

ليزيد بن خالد الذى كانت أسرته من المسلمين: إنما كنت تبنيتك لمثل هذا اليوم!! أما أنا فمقتولة! ولكن أوصيك بأخويك هذين خيراً - تريد ولديها- فانطلق بهما إلى العرب وخذ لهما أمانًا، فانطلق بهما يزيد إلى العرب ولقى حسانًا وهو مقبل يريد الكاهنة فأخبره خبرهما وأخذ لهما أمانا وكانت مع حسان جماعة من البربر فولى عليهم الأكبر من ولدى الكاهنة وأكرمه وقربه.

ثم مضى حسان ومن معه يريد الكاهنة فوصل إلى قابس فلقيته الكاهنة فى جيوش عظيمة فقاتلهم حسان وهزمهم الله وهربت الكاهنة منهزمة تريد قلعة بشر تتحصن بها فأصبحت القلعة لاصقة بالأرض فذهبت تريد جبل أوراس(١) ومعها صنم عظيم من خشب كانت تعبده فجُعل بين يديها على جمل فتبعها حسان حتى قرب من موضعها فلما كان الليل قالت الكاهنة لابنيها: إنى مقتولة وارى رأسى تركض به الدواب يمضى به إلى المشرق من حيث تطلع الشمس واراه موضوعًا بين يدى ملك العرب الذى بعث إلينا بهذا الرجل، فقال لها يزيد بن خالد وولداها: فإذا كان الأمر هكذا فارحلى وخلى له البلاد، فقالت: وكيف أفر وأنا ملكة والملوك لا تفر من الموت فأقلد قومى عاراً إلى آخر الدهر!، فقالوا لها: ألا تخافين على قومك الموت؟ فقالت: إذا أنا مت فلا أبقى الله أحدا منهم فى الدنيا. فقال لها يزيد بن خالد ووالداها: فما نحن صانعون؟فقالت:أما أنت يا يزيد فتنال ملكًا عظيمًا مع الملك الذى يقتلنى ثم قالت: لهم أركبوا واستأمنوا فركب يزيد بن خالد وولدها بالليل متوجهين إلى حسان فلما أصبح حسان زحف إلى الكاهنة وأقبلت الكاهنة زاحفة إليه فلقيت أعنة الخيل يزيد وولديها فسلموا عليهم ومضوا بهم إلى حسان فدخل يزيد بن خالد على حسان واخبره بما قالت الكاهنة وإنها وجهت ولديها فأمر بهما حسان فأدخلهما عسكره ووكل بهما أقوامًا وقدم يزيد بن خالد على أعنة الخيل فالتقى القوم ووضعوا السلاح ووقع الصبر حتى ظن المسلمون أنه الفناء فانهزمت الكاهنة وقتلت عند بئر سماها الناس بئر الكاهنة.

فنزل حسان على المكان الذى قتلت فيه ويقال أنها قتلت عند طبرقة فعجب الناس من خلقتها وكانت الأترجة تجرى فيما بين عجزتها وأكتافها!.

ثم إن الروم تحزبوا على قتال حسان واجتمعوا إليه وقاتلوه فهزمهم الله تعالى فخافه البربر فأمنوه فلم يقبل أمانتهم حتى يعطوه من جميع قبائلهم اثنى عشر

(١) جبل الأوراس : من أعظم جبال القطر الجزائرى ويقع فى شمال شرق الجزائر وكان هذا الجبل قلعة الصمود ضد الغزاة والمستعمرين.

فارسا تكون مع العرب برسم الجهاد فأجابوه إلى ذلك واسلموا على يديه فعقد لولدى الكاهنة بعد إسلامهما لكل واحد منهما ستة آلاف فارس من البربر واليا عليهم وأخرجهم مع العرب يفتتحون إفريقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر فمن ذلك صارت الخطط بإفريقية للبربر فكان يقسم الفئ بينهم والأراضى فحسنت طاعتهم له ودانت له إفريقية ودون الدواوين ثم قدم القيروان فأمر بتجديد بناء مسجد الجامع فبناه بناءً حسنا وجدده وذلك فى شهر رمضان المعظم من سنة أربع وثمانين من الهجرة ثم رحل يريد قرطاجنة، فانتهى إلى طنجة فوجه أبا صالح مولاه إلى قلعة زغوان فنزل بموضع يقال له: فخص أبى صالح وبه سمى فقاتل أهلها ثلاثة أيام فخلى حسان عسكره بطنفزه ثم رحل إلى زغوان في خيل مجردة فافتتحها صلحا وانصرف إلى طنفزة ثم سار إلى قرطاجنة فنزل بموضع دار الصناعة وحسان هذا هو الذى خرق البحر إليها وجعلها دار صناعة فأخرج إليها الماء وأجراه من البحر إليها فخرج إلى حسان أهل قرطاجنة بأجمعهم فحاربوه حربًا شديدة فهزمهم الله عز وجل بين يديه وملك حسان رضى الله عنه حصن تونس وقرطاجنة فلما رأت الروم شدته وقهره لهم وعلموا أنهم لا قدرة ولا طاقة لهم به سألوه الصلح وأن يضع عليهم الخراج فأجابهم حسان إلى ذلك ووافقهم عليه فأدخلوا عند ذلك ثقلهم في مراكب كانت معدة عندهم فى البحر وهربوا ليلاً بأجمعهم من باب يقال له باب النساء وحسان رضى الله عنه لا علم عنده بما فعلوه من هروبهم وتركوا مدينتهم خالية لا أحد بها ونزلوا بجزيرة صقلية ومضى بعضهم إلى بلاد الأندلس؛ فدخل عند ذلك حسان إلى المدينة وبنى مسجداً وخرب بناءهم ورحل عنهم راجعًا إلي مدينة القيروان وأقام بها وعمرها المسلمون وبنوا بها المساكن وانتشروا فيها وكثروا وأمنوا من أعدائهم وقطع الله شوكتهم وأقر الله تعالى بها أعينهم وعلموا أن الله عز وجل قبل دعوة عُقبة بن نافع فيما دعا لهم حسان بن النعمان الغسانى على صدقات الناس والسعى عليهم حنش بن عبد الله الصناعنى التابعى رضى الله عنه. ثم إن حسان بن النعمان لما تمهدت بلاد إفريقية وأمن على أهلها رحل بمن معه من المسلمين والغنائم والأموال قاصدًا عبد الملك بن مروان ومعه خمسة وثلاثون ألف فارس وكان معهم من الذهب ثمانون ألف دينار وقد

جعلها حياطة عليها من قرب الماء واستقامت إفريقية كلها وأمن أهلها وقطع الله عز وجل ملكة الكافرين فصارت القيروان دار إسلام وجميع من بإفريقية إلى وقتنا هذا وإلى آخر الدهر إن شاء الله تعالى وذلك ببركة من اختطها ودخلها من أصحاب رسول الله ﷺ رضى الله عنهم أجمعين.

ذكر فتح موسى بن نصير

وهو آخرها وأثبتها الموالى لفتح الإمام إدريس الأكبر رضى الله عنه وإليه الإشارة بقول الإمام ابن غازى:

وفتح المغرب لسوس الأقصى　　　موسى وطارق بما لا يحصى

وجاءنا إدريس عام قعب　　　وبنيت فاس فى عام قضب

والفاتح المذكور هو أبو عبد الرحمن موسى بن نصير اللخمى بالولاء صاحب فتح الأندلس كان من التابعين رضى الله عنهم وروى عن تميم الدارى رضى الله عنه وكان عاقلاً كيسًا شجاعًا ورعًا تقيًا لله تعالى لم يُهزم له جيش قط، وكان والده نصير على حرس معاوية بن أبى سفيان وكانت منزلته عنده مكينه ولما خرج معاوية لقتال علي بن أبى طالب رضى الله عنه لم يخرج معه فقال له معاوية: ما منعك من الخروج معى ولى عندك يد لم تكافئنى عليها، فقال لم تمكننى أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكرى فقال: ومن هو؟ فقال: الله عز وجل، فقال: وكيف لا أم لك؟ فقال: وكيف لا أعلمك هذا فأغضض وامض؟ قال: فاطرق معاوية مليا ثم قال: استغفر الله، ورضى عنه.

وكان عبد الله بن مروان أخو عبد الملك بن مروان واليًا على مصر وإفريقية، فبعث إليه ابن أخيه الوليد بن عبد الملك أيام خلافته يقول له أرسل موسى بن نصير إلى إفريقية وذلك سنة تسع وثمانين من الهجرة.

وقال أبو عبد الله الحافظ عبد الحميد فى كتاب جذوة المقتبس: أن موسى بن نصير تولى إفريقية سنة سبع وتسعين فأرسله إليها فلما قدمها ومعه جماعة من الجند بلغه أن بخارج البلاد جماعة خارجة فوجه إليهم ولده عبد الله فأتاه بمائة ألف

رأس من السبايا ثم وجه ولده مروان إلى جهة أخرى فأتاه بمائة الف رأس، قال الليث بن سعد: فبلغ الخمس والستين ألف رأس، وقال أبو شعيب الصدفى: لم يُسمع فى الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير ووجد أكثر مدن إفريقية خالية لاختلاف الأيدى وكانت البلاد قحطا شديدًا، فأمر الناس بالصلاة وإصلاح ذات البين وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات وفرق بينها وبين أولادها ووقع البكاء والضجيج فأقام على ذلك إلى منتصف النهار ثم صلى وخطب بالناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين فقال: هذا مقام لا يدعى فيه إلا لله عز وجل فسقوا حتى رووا.

ثم خرج موسى غازيًا وتبع البربر وقتل منهم قتلاً ذريعاً وسبا سبياً عظيمًا وسار حتى انتهى إلى السوس الأدنى لا يدافعه أحد فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا إليه وبذلوا له الطاعة فقبل منهم وولى عليهم واليًا واستعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد البربرى، ويقال أنه من قبيلة الصدف، وقد ترك عنده تسعة عشر ألف فارس من البربر بالأسلحة والعدد الكاملة، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم، وترك موسى خلقًا يسيرًا من العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الإسلام ورجع إلى إفريقية ولم يبق فى البلاد من ينازعه من البربر ولا من الروم، فلما استقرت له القواعد كتب إلى طارق وهو بطنجة يأمره بغزو بلاد الأندلس فى جيش من البربر ليس فيه من العرب إلا نذر يسير فامتثل طارق أمره وركب البحر من سبتة إلى جزيرة الخضراء من بلاد الأندلس وصعد إلى جبل يعرف اليوم بجبل طارق نسب إليه لما حصل عليه، وكان صعوده إليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنين وتسعين من الهجرة فى إثنى عشر ألف فارس من البربر خلا اثنى عشر رجلاً، وذكر عن طارق أنه كان نائمًا فى المراكب وقت التغذية وأنه رأى رسول الله ﷺ والخلفاء الأربعة رضى الله عنهم جميعًا يمشون على الماء حتى مروا به فبشره رسول الله ﷺ بالفتح وامره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد، ذكر ذلك ابن بشكوال. وكان صاحب طليطلة ومعظم بلاد الأندلس ملك يقال له لُذريق.

ولما احتل طارق الجبل المذكور كتب إلى موسى بن نصير أنى فعلت ما أمرتنى به وسهل الله سبحانه فى الدخول، فلما وصل الكتاب إلى موسى ندم على تأخره وعلم أنه إن فتح نسب الفتح إليه دونه فأخذ فى جمع العساكر وولى على القيروان ولده عبد الله وتبعه فلم يدركه إلا بعد الفتح، وكأن لدريق المذكور قد قصد عدواً له واستخلف فى المملكة شخصا يقال له تدمير وإلى هذا الشخص تنسب بلاد تدمير بالأندلس فلما نزل طارق بالجبل الذى فتحه كتب تدمير إلى لدريق الملك أنه وقع بأرضنا قوم لا ندرى من السماء هم أم من الأرض، فلما بلغ ذلك لدريق رجع عن مقصوده فى سبعين ألف فارس ومعه العجل تحمل الأموال والمتاع وهو على سريره بين دابتين عليه قبة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد، فلما بلغ طارق دنوه قام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم فى الشهادة ثم قال: « أيها الناس أين المفر والبحر من ورائكم والعدو أمامكم،فليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مآدب اللئام،وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لاوز لكم غير سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى أعدائكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية،فقد ألقت به إليكم مدينته المحصنة وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم إن سمحتم بأنفسكم للموت، وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولا أحملنكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس، إلا أبدأ فيها بنفسى واعلموا أنكم إذا صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه أوفر من حظى،وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان والرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان،وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانًا ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة،وليكون مغنمها خالصًا لكم من دون المسلمين سواكم والله تعالى ولى انجادكم على ما

يكون لكم ذكراً فى الدارين،واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لُدريق فقاتله إن شاء الله،فاحملوا معى فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره،ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فإنهم بعده يُخذلون.».

فلما فرغ طارق من تحريض أصحابه على الصبر فى قتال لُدريق وأصحابه وما وعدهم من النيل الجزيل انبسطت قواهم وتحققت آمالهم وهبت ريح النصر عليهم وقالوا: لقد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه فاحضر إليه فإننا معك وبين يديك فركب طارق وركبوا وقصدوا مناخ لدريق وكان قد برز بمتسع من الأرض فلما تراءى الجمعان نزل طارق وأصحابه فباتوا ليلتهم فى خرس إلى الصبح فلما أصبح الفريقان ركبوا وعبوا كتائبهم وحُمل لدريق على سريره وقد رفع على رأسه رواق ديباج يظله وهو مقبل في غابة من البنود والأعلام وبين يديه المقاتلة والسلاح وأقبل طارق وأصحابه عليهم الزرد ومن فوق رؤوسهم العمائم وبأيديهم القسي العربية وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح، فلما نظر إليهم لُدريق قال: أما والله إن هذه الصور التى رأيناها فى بيت الحكمة ببلدنا، فداخله منهم رعب - ونحن نتكلم عن بيت الحكمة فى موضعه - فلما رأى طارق لُدريقًا قال لأصحابه هذا طاغية القوم وحمل أصحابه معه فتفرقت المقاتلة بين يدى لدريق فخلص إليه طارق وضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريره، فلما رأى أصحابه مصرع ملكهم اقتحم الجيشان وكان النصر للمسلمين، ولم تقف هزيمة اليونان على موضع بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومعقلاً معقلاً فلما سمع بذلك موسى بن نصير المذكور أولاً عبر الجزيرة بمن معه ولحق بمولاه طارق فقال له: يا طارق إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك بالأندلس فاستبحها هنيئاً مريئاً، فقال له طارق: أيها الأمير والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط وأخض فيه بفرسى فلم يزل طارق يفتح وموسى معه إلى أن بلغ جليقية وهى على ساحل البحر المحيط.

وقال الحميدى فى جذوة المقتبس:أن موسى نقم على طارق إذ غزا بغير إذنه وسجنه وهمّ بقتله ثم ورد عليه كتاب الوليد بإطلاقه فأطلقه وخرج معه إلى الشام،

وكان خروج موسى من الاندلس وافداً على الوليد يخبره بما فتح الله سبحانه وتعالى على يديه وما معه من الأموال فى سنة أربع وتسعين للهجرة وكانت معه مائدة سليمان بن داود التى وجدت فى طليطلة على ما قاله بعض المؤرخين، فقال: كانت مصنوعة من الذهب والفضة وكان عليها لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد وكانت عظيمة بحيث أنها حُملت على بعير قوى فما سار إلا قليلاً حتى تفسخت قوائمه، وكان معه تيجان الملوك الذين تقدموا من اليونان وكلها مكللة بالجواهر واستصحب ثلاثين الف فارس ويقال إن الوليد نقم عليه أمراً، فلما وصل إليه بدمشق أقامه فى الشمس يوماً كاملاً فى يوم صائف حتى خر مغشيًا عليه، فلما وصل إلى الشام ومات الوليد بن عبد الملك وقام من بعده سليمان اخوه وحج فى سنة سبع وتسعين للهجرة وقيل سنة تسع وتسعين فحج معه موسى بن نصير ومات فى الطريق بوادى القرى وقيل بمر الظهران قرب مكة المكرمة على اختلاف فيه وكانت ولادته فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

قال ابن خلكان : واصل بيت الحكمة إن اليونان وهم الطائفة المشهورة بالحكمة كانوا يسكنون ببلاد الشرق قبل عهد الإسكندر فلما ظهرت الفُرس واستولت على البلاد وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك انتقل اليونان إلى جزيرة الأندلس لكونها طرفا فى آخر العمارة ولم يكن لها ذكر يوم زال ولا ملكها أحد من الملوك ولا كانت عامرة وكان أول من عمّر فيها واختطها أندلس ابن يافث بن نوح عليه السلام فسميت باسمه ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كانت صور المعمور عندهم على شكل طائر رأسه المشرق والجنوب والشمال رجله وما بينهما بطنه والمغرب ذنبه فكانوا يزدرون المغرب لنسبته إلى أخس أجزاء الطائر وكانت اليونان لا ترى اشتغال الأمم بالحروب لما فيها من الأضرار والاشتغال عن العلوم التى كان أمرها عندهم أهم الأمور، فلذلك انحازوا من بين يدى الفُرس إلى الأندلس فلما سَار إليها اقبلوا على عمارتها بشق الأنهار وبنوا المعاقل وغرسوا الحباب والكروم وشيدوا الأمصار وملأوها حرثا ونسلا وبنيانا فعظمت وطابت حتى قال قائلهم لما رأوا بهجتها أن الطائر الذى صورة العمارة على شكله وكان المغرب

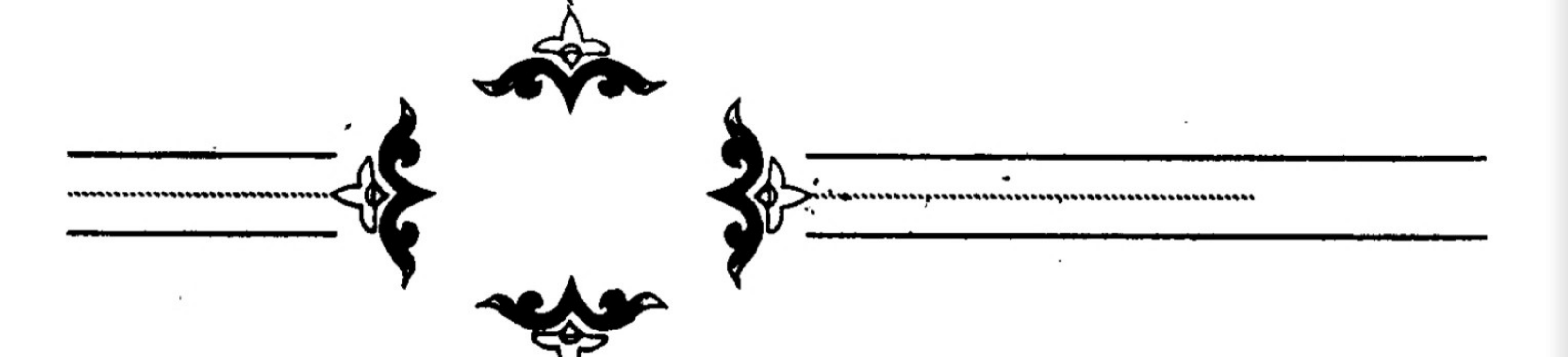
ذنبه. كان طاووسًا معظم جماله في ذنبه فاغتبطوا بها أيما اغتباط واتخذوا دار الملك والحكمة بها مدينة طليطلة لأنها وسط البلاد، وكان أهم الأمور عندهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الأمم فنظروا فإذا ليس ثم من يحسده على رغد العيش إلا أرباب الشظف والشقاء وهم طائفتان العرب والبربر فخافوهم على جزيرتهم المعمورة فعزموا أن يتخذوا لدفع هذين الجنسين من الناس طلسمًا فرصدوا لذلك إرصادًا، ولما كان البربر بالقرب منهم وليس بينهم إلا تعدية البحر ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع ازدادوا نفورًا وكثر تحذرهم من مخالطتهم في نسل أو في مجاورة حتى أثبت ذلك في طبائعهم وصار بعضهم مركبًا في غرائزهم فلما علم البربر عداوة الأندلس لهم أبغضوهم وحسدوهم فلا تجد أندلسيًا إلا مبغضًا بربريًا ولا بربريًا إلا مبغضًا أندلسيًا إلا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس من أهل الأندلس إلى البربر لكثرة وجود الأشياء بالأندلس وعدمها ببلاد البربر. وكان بنواحي غرب جزيرة الأندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها قادوس وكانت له ابنة في غاية الجمال فتسامع بها ملوك الأندلس وكانت جزيرة الأندلس كثيرة الملوك لكل بلدة أو بلدتين ملك فخطبها كل منهم ولكن خاف أبوها من تزويجها لواحد من إسخاط الباقين فتحير في أمره واحضر ابنته المذكورة وكانت الحكمة مركبة في طباع القوم ذكرهم وانثاهم وكذلك قيل إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة اعضاء من أهل الأرض: على أدمغة اليونان وأيدى أهل الصين وألسنة العرب، فلما حضرت بين يديه قال يا بنية: أنى قد أصبحت في حيرة من أمرى، قالت: ومن حيرك؟ قال خطبك جميع ملوك الأندلس ومتى رضيت واحدًا أسخطت الباقين فقالت: اجعل الأمر إليّ تخلص من اللوم فقال: وما تصنعين؟ قالت: أقترح لنفسى أمرًا فمن فعله كنت زوجته ومن عجز عنه فليس يحسن به السخط قال: وما الذى تقترحين؟ قالت: أقترح أن يكون ملكًا حكيمًا، قال: نعم الذى اخترته لنفسك وكتب في أجوبة الملوك الخطاب: «إنى قد جعلت الأمر إليها فاختارت من الأزواج الملك الحكيم» فلما وقفوا على الأجوبة سكت عنها كل من لم يكن حكيمًا، وكان في ملوك الأندلس رجلان حكيمان فكتب كل منهما إليه: أنا الملك الحكيم، فلما وقف على كتابيهما قال: يا بنية بقى الأمر على إشكاله

وهذان ملكان حكيمان أيهما أرضيته أسخطت الآخر، قالت: سأقترح على كل واحد منهما أمراً يأتى به فأيهما سبق إلى الفراغ مما التمسته تزوجت به قال: وما الذى تقترحين عليهما، قالت: إنا ساكنون هذه الجزيرة وإننا محتاجون إلى رحى تدور بها وإني مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجارى إليها من ذلك البر ومقترحة على الآخر أن يتخذ طلسماً يحصن به جزيرة الأندلس من البربر فاستطرف أبوها اقتراحها وكتب إلى الملكين بما قالته ابنته فأجابا إلى ذلك وتقاسماه على ما اختارا وشرع كل واحد فى عمل ما إليه من ذلك. فأما صاحب الرحى فإنه عمد إلى خرز عظام اتخذها من الحجارة ونضد بعضها إلى بعض فى البحر المالح الذى بين جزيرة الأندلس والبر الكبير فى الموضع المعروف بزقاق سبتة وسدد الفروج التى بين الحجارة مما اقتضته حكمته وأكمل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة وآثاره باقية إلى اليوم فى الزقاق الذى بين سبتة والجزيرة الخضراء وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة الإسكندر قد عملها يعبر الناس عليها من سبتة إلى الجزيرة والله أعلم - أى القولين أصح - فلما صح تنضيد الحجرة للملك الحكيم جلب عليها الماء العذب من موضع عال فى الجبل بالبر الكبير وسلطه على ساقية محكمة البناء وبنى بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية.

وأما صاحب الطلسم فإنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعلمه غير أنه عمل أمراً وأحكمه وابتنى بنياناً من حجر أبيض على ساحل البحر فى رمل حفر أساسه إلى أن يجعله تحت الأرض بمقدار وارتفاعه فوق الأرض ليثبت، فلما انتهى البناء المربع إلى حيث اختار صور من النحاس الأحمر والحديد المصفى المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجل بربرى له لحية وفي رأسه ذؤابة من شعر قائم فى رأسه جعودة متأبط صورة كساء جمع طرفيه على يده اليسرى بأرطب تصوير وأحكمه وفى رجليه نعل وهو قائم من رأس البناء بمقدار رجليه فقط وهو شاهق فى الهواء طوله ينيف عن ستين وهو مجرد الأعلى إلى أن ينتهى إلى ما سعته قدر ذراع وقد مد يده اليمنى بمفتاح قفل قابضاً عليه كأنه يقول: لاعبور. وكان من تأثير هذا الطلسم فى البحر الذى تجاهه أنه لم ير قط ساكنا ولا كانت تجرى فيه قط

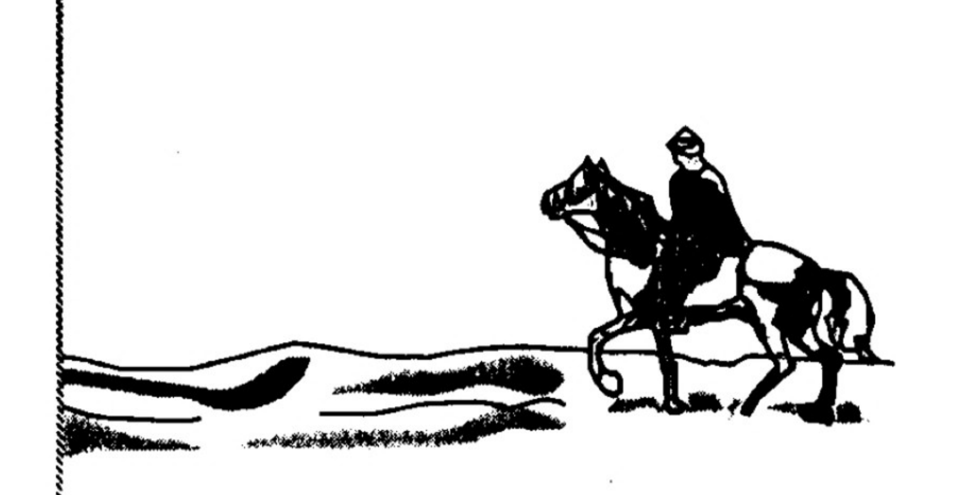
سفينة بربرى حتى سقط المفتاح من يده وكان الملكان العاملان للرحى والطلسم يتسابقان إلى التمام من عملهما إذ كان بالسبق يستحق التزويج، كان صاحب الرحى قد فرغ لكنه يخفى أمره عن صاحب الطلسم حتى لا يعلم به فيبطل الطلسم وكان يود عمل الطلسم حتى يحظى بالمرأة والرحى والطلسم، فلما علم باليوم الذى يفرغ فيه صاحب الطلسم فى آخره أجرى الماء بالجزيرة من أوله وادار الرحى واشهر ذلك فاتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو فى أعلاه يصقل وجهه وكان الطلسم مذهبا فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتاً وحصل صاحب الرحى على المرأة والرحى والطلسم، وكان من تقدم من ملوك اليونان يخشى على جزيرة الأندلس من البربر للسبب الذى قدمنا ذكره فاتفقوا وعملوا طلسمات فى أوراق اختاروا أرصادها وأودعوا تلك الطلسمات تابوتًا من الرخام وتركوه فى بيت بمدينة طليطلة وركبوا على ذلك البيت بابا وأقفلوه وتقدموا إلى كل ملك منهم أن يعد صاحبه أن يلقى على ذلك الباب قفلاً تأكيداً لحفظ ذلك البيت فاستمر أمرهم على ذلك. ولما حان وقت انقراض دولة اليونان ودخول العرب والبربر إلى جزيرة الأندلس وذلك بعد مضى ستة وعشرين ملكًا من ملوك اليونان من يوم عملهم الطلسمات بمدينة طليطلة وكان الملك لُدريق المذكور السابع والعشرين من ملوكهم، فلما جلس فى ملكه قال لوزرائه وأهل الرأى من دولته قد وقع فى نفسى من أهل هذا البيت الذى عليه ستة وعشرون قفلاً وأريد أن افتحه لأنظر ما فيه فإنه لم يعمل عبثاً، قالوا: أيها الملك صدقت إنه لم يُعمل عبثا ولا أقفل سُدى بل المصلحة أن تلقى أنت عليه قفلاً أسوة بمن تقدمك من الملوك وكانوا آباءك وأجدادك فلم يهملوه فلا تهمله وسر سيرهم، فقال:إن نفسى تنازعنى إلى فتحه ولابد لى منه، فقالوا: إن كنت تظن فيه مالاً فقدره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره ولا تحدث علينا بفتحه حادثًا لا نعرف عاقبته، فأصرّ على ذلك وكان رجلاً مُهابًا فلم يقدروا على مراجعته وأمر بفتح الأقفال وكان على كل قفل مفتاحه معلقًا فلم فتح الباب لم ير فى البيت شيئا سوى مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر وعليها مكتوب هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، ورأى فى ذلك البيت تابوتًا وعليه قفل ومفتاحه مُعلق ففتحه فلم يجد

فيـه سوى رق وفى جانب التـابوت صور فرسـان مصّورة باسـماع (كذا) مـحكمة التصوير على أشكال العرب ومن تحتهم الخـيل العربية وبأيديهم القسي العربية وهم متقلدو السيوف المحـلاة معتقلو الرماح فأمر بنشر ذلك الرق فـإذا فيه متى فُتح هذا البيت وهذا التابـوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صـورهم فى التابوت إلى جزيرة الأندلس، وذهـب مُلك اليونان من أيديهم ودرست حكمـتهم، فـهذا بيت الحكمـة المقدم ذكـره،، فلمـا سمع لذريق مـا فى الرق ندم على مـا فعل، وتحـقق انقراض دولتهم فلم يلبث إلا قليـلاً حتى سمع أن جيشًا وصل مـن المشرق جهزه ملك العرب ليفتح بلاد الأندلس. انتهى.



الدولة الإدريسية الأولى

- الزرهونية والعباسية-



الدولة الإدريسية الأولى

- الدولة الزرهونية والعباسية -

علمت مما تقدم أن أول هذه الدول الشريفة كان مقدم الإمام إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وهو أول ملوكها وقام من بعده خلفاؤه الثلاثة مولاه راشد بن مرشد الزبيدى وأخوه من الرضاعة وصهره عبد المجيد الأوربى وأخوه عمر إلى أن استحق القيام بها ولده إدريس الأصغر فوليها وهو ثانى الخلفاء من بعده ولده الإمام محمد بن إدريس وهو ثالث الخلفاء، وتولى الخلافة من بعده ولده علي وهو رابع الخلفاء. قال العلامة العراقى فى سياق كلام له ما نصه: وذلك أن سيدى محمد بن مولانا إدريس بانى فاس هو أكبر أولاده الاثنى عشر هو الخليفة من بعده وكان استيطانه بفاس إلى أن توفى بها ودفن مع أبيه وأخيه بشرق جامع الشرفاء من حضرة فاس فى شهر ربيع الثانى سنة إحدى وعشرين ومائتين، واستخلف ولده عليا فى مرضه الذى توفى فيه هو الملقب بحيدرة وأمه حمدة واسمها رقية بنت إسماعيل بن منصور بن مصعب. وسنه يوم واحد بويع تسعة أعوام وأربعة أشهر، فسار فى الناس بسيرة آبائه الكرام فى تلك الأيام إلى أن توفى بها فى شهر رجب من سنة أربع وثلاثين ومائتين ودفن مع أبيه محمد وجده إدريس وعمه عمر فى الموضع المذكور واستخلف أخاه يحيى وأعقبهم أولاد عمه بفاس وأولاد القاسم وما زالوا يتداولون الخلافة إلى أن جاء من أخرجهم منها أوائل المائة الرابعة زمن ابن أبى العافية. وقال فى المغرب ما نصه: ولما دخل مولانا إدريس الأكبر المغرب الأقصى وجد أهله على ثلاث فرق: يهود ونصارى ومجوس دعاهم إلى الله ودينه القويم واتباع سنة خاتم النبيين ﷺ فأجابوه لذلك واتبعوه خفافاً وثقالاً إلى أن بويع له بالسمع والطاعة وإتباع الكتاب والسنة وذلك يوم الجمعة الرابع من شهر رمضان سنة اثنين وسبعين ومائة فكثرت أتباعه وظهر دين الله وأغزى من القبائل من لم يجبه إلى الإسلام فعظم أمره وبلغ خبره إلى هارون الرشيد فبعث إليه من بغداد سليمان بن جرير ليخدمه وينسب إليه لكونه وطنه وأهل بلده فحنّ إليه إدريس

وأقبل عليه وقربه لأجل ذلك وصار ابن جرير المذكور يعرف الأوطان وصار يُعرّف الناس من أنه فى العراق سيد وفاضل وماجد وأنه كان عند أهل العراق فى شان عظيم ودرجة رفيعة ومقام كريم فاستحسن منه السيد إدريس فعله وأدبه فادناه وقربه فكان يخلو معه إلى أن وجد فيه الفرصة فوضع له السم فى قارورة مسك كان قد استعدّ له بها من عند هارون الرشيد مُدبرة فمات السيد إدريس حين شمها، وخرج سليمان هاربًا بعد فعلته الإجرامية الخسيسة فتبعه راشد فلحق به فضربه ومُنع منه ولحا إلى أن وصل بغداد عاصمة الخلافة العباسية وقد رآه رجل من فاس فى حمام بغداد وهو مقطوع اليد وفى رأسه شجة. قال والسيد إدريس توفى فى أوائل شهر ربيع الأول سنة سبعة وسبعين ومائة فكانت إمارته خمس سنين وستة أشهر بعد سبعين ومائة وترك زوجته حاملا، فاجتمعت القبائل المغربية وجلها من البربر وتمسك أعيان القوم على مولاه راشد وأمره أن يتصرف على حاله كيف كان فى حياة سيده إلى أن تضع الزوجة حملها فأجابهم لذلك إلى أن وضعت الزوجة حملها فولد لها ولد فتسمى على اسم والده مولانا إدريس وبقى راشد يدبر أمره مع أشياخ القبائل إلى أن وصل من السنين إحدى عشرة سنة وحفظ كتاب الله العزيز فأمر راشد بإحضار أهل المغرب وأعيان القبائل فحضر الناس بكثرة فاتفقوا على بيعة مولانا إدريس بن إدريس وكان ذلك فى عام ثمانية وثمانين ومائة؛ وفى تلك السنة أسس السيد إدريس مدينة فاس وانجلبت إليها الناس من كل مكان فأول من عمر فيها من أحوازها أهل زرهون ومضيلة وأهل سائس وأهل المطا وسدنة ولواقت وسفرو وابن يارغة وهوارة وغيرهم من القبائل فى الجبال فأتت الناس إليها من كل ناحية ومكان وكانت أيامه نفعنا الله به أيام هدنة ورخاء وخصب وفرح وسرور وكان مسددًا فى أموره وأحواله وكان حارا لا يغفل عن مصالح الدين والدنيا وكان يأمر الناس بهما ويحضهم على العمارة وانجلبت إليه الناس من مشرق ومغرب وانزرعت فى قلوب الناس محبته من نسبه وسيرته إلى أن توفى رحمه الله ودفن فى زرهون بإزاء أبيه فى وليلى وهى اسم البقعة التى فيها وذلك فى سنة ثلاث عشرة ومائتين فكانت أيامه وعدة سنينه ستا وثلاثين سنة وكان سبب موته عنبة شرقت له فى حلقه فمات من حينه فكُفن وحملوه إلى زرهون فدفن بوليلى



بإزاء أبيه وأما القبر الذى هنا فى فاس فى مسجد الشرفاء فهو قبر السيد محمد بن إدريس الأصغر رحمه الله، وخلف رحمه الله اثنى عشر من الاولاد وتولى بعده ولده محمد وقسم لإخوانه البلاد وكانوا تحت طوعه وكان هو أكبرهم ومن بعده تفرقوا واختل أمرهم وقاموا على بعضهم بعضًا وكثر الهرج وقتل بعضهم بعضا وتفصيل ذلك فى كتاب القرطاس، ثم توفى الإمام محمد فى ربيع الثانى سنة إحدى وعشرين ومائتين فكانت أيامه بعد أبيه ثمانية أعوام، ثم تولى بعده ولده علي من تسع سنين فكانت أيامه قليلة وتوفى عام أربع وثلاثين فكانت أيامه ثلاث عشرة سنة وولى أخوه يحيى وهو الذى أمر ببناء جامع القرويين[1] وأمر ببناء الحمامات ثم ولى المُلك علي بعد وفاة يحيى ثم قام عليه عبد الرزاق الخارجى الأندلسى من ناحية غياثة وتبعه أناس من البربر كثيرة وأخذ مواطن وقرى فخرج إليه على الإدريسى فقاتله فانهزم علي ودخل عبد الرزاق إلى فاس فملك عدوتها وكان أكثر أهل الأندلس الذين خرجوا من أرضهم ونفاهم بنو أمية، وكانوا فى العدوة منهم ثمانية آلاف رجل فاستصحب بها عبد الرزاق فرجع إليه يحيى الأندلسى بعد ما انهزم علي وقاتل معه وحدثت بعد قتله حروب كثيرة اختصرنا على ذكرها وتولى مُلك فاس يحيى وقتل من الأندلس أقواما كانوا فى عصبة عبد الرزاق الخارجى وكان السيد يحيى المذكور ملك فاسا وأحوارها وكان حاذقًا شجاعًا كريمًا غالبًا عادلا وكان أفضل الأدارسة إلى أن قام عليه أبو مصلة المكناسى وهو قائد عبد الله الشيعى القائم بأمر إفريقية وذلك فى سنة خمس وثلاثمائة، فخرج يحيى لقتاله فالتقى الجمعان فهزم يحيى ودخل لفاس مهزوما وانحصر فيها وطال حصاره إلى أن صالحه يحيى وبايع لعبدالله الشيعى صاحب إفريقية فارتحل عن فاس أبو مصلة قائد الشيعى ورجع إلى القيروان فلما عزم على الرجوع أرسل إلى موسى بن أبى العافية وكان ذا مال وجاه وماشية، وكان نازلاً على حورة تازة وصنع مع قائد الشيعى ابن مصلة خيرًا كثيرًا وقاتل معه يحيى فلما ارتحل أبو مصلة عن فاس أرسل إلى موسى بن أبى العافية وقدمه على أمور المغرب كلها ،عمالة

(١) القرويين : هو جامع القرويين بفاس وبه جامعة إسلامية من أعرق الجامعات العربية فى المغرب.

الغرب كلها تحت يديه وأما السيد يحيى فلما بايع الشيعى صاحب إفريقية اشترط عليه قعوده فى فاس فقط ولا له أمر ولا نهى على غيرها فى عمالة أهل المغرب لأجل خدمته وقتاله مع صاحب إفريقية فصار يتصرف فى المغرب ويجمع خراجه وصار السيد يحيى يحضر أحواله ويضرب على يده فكتب به إلى أبى مصلة وأعلمه بفعل يحيى فتحرك إليه ثانية أخرى من إفريقية وذلك فى سنة تسع وثلاثمائة فخرج إليه يحيى ليتلقاه مع جموعه فقبضه أبو مصلة وأوثقه فى الحديد ودخل به مقيداً لفاس وأخذ ما عنده من الذخائر والأموال ولما أخذ ما عنده سرحه وأنبذه إلى أريلا وكان فيها ابن عم له يعيش فيها فأرسله إليه واقتطعه عن جموعه واقتصرنا عن حديث طويل ثم أراد الرجوع إلى إفريقية ليشتكى ما أصابه من أبى مصلة وما فعل به موسى بن أبى العافية وسجنه ثم هرب إلى إفريقية ومات فيها جوعا بعد حديث طويل فعند ذلك قدم أبو مصلة على موسى بن أبى العافية وصار يتصرف فى أحوال المغرب ،ثم إن السيد الحسن دخل لفاس مع بعض رجاله مستخفيًا وهو من الأدارسة وقام فيها وذلك فى سنة عشر وثلاثمائة فبايعه فيها نفر من أصحاب موسى بن أبى العافية فكانت بينهم حروب فمات بين الفريقين نحو أربعة آلاف وانهزم ابن أبى العافية ورجع السيد الحسن لفاس دون عسكره فقضبه عامل إفريقية كان مضروبًا على يده حين دخل الحسن دون عسكره لأنه مبنى فى القتال مع ابن أبى العافية وقبضه العامل وأوثقه فى الحديد وأرسل موسى ابن أبى العافية فأصبح بفاس وأرسل إلى العامل ليمكنه من الحسن ليقتله فأبى العامل فأطلقه بالليل ليهرب إلى الغد ويختفى فطاح من السور وانكسر ومات بعد ثلاثة. وبعد أن مات الحسن تولى ابن أبى العافية فاسًا وذلك سنة ثلاثة عشر وثلاثمائة فصار يبحث عن الأدارسة ليقلتهم فهربوا منه والجلوا إلى كل جبل وصار يتصرف فى أوامر المغرب باديه وحاضره وبايع صاحب إفريقية وأرسل إليه قائده حمدان ثم مات ثم أرسل موسى إلى صاحب قرطبة أمير المؤمنين الناصر لدين الله وبقى على أمره عاملاً على فاس، واختصرنا هنا على كلام طويل إلى أن مات ابن أبى العافية وتولى أولاده بعده شيئا بعد شيء على إذن الشيعى لأنهم نقضوا بعد أبيهم بيعة الناصر لدين الله صاحب قرطبة (الأندلس) وصار الأدارسة الذين تبقوا بعد وفاة الحسن

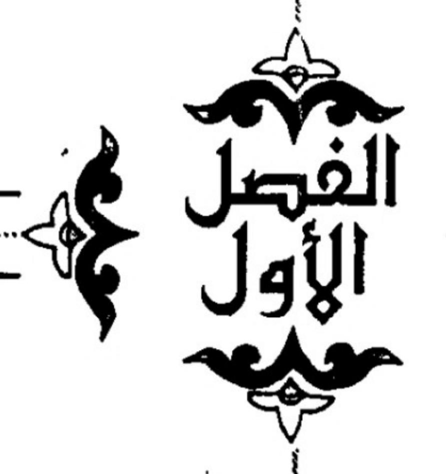


إلى مبايعة الشيعى صاحب إفريقية وانحزموا إلى قتال ابن أبى العافية وكانت بينهم حروب كثيرة ووقائع يطول ذكرها إلى أن تولى فاس من تحت الشيعى صاحب إفريقية وهو من الأدارسة السيد القاسم وتولى أيضا بعده من الأدارسة أبو العيش وبعده الحسن وهو آخرهم واقتصرنا فى حديثهم والبقاء لله الواحد القهار انتهى.

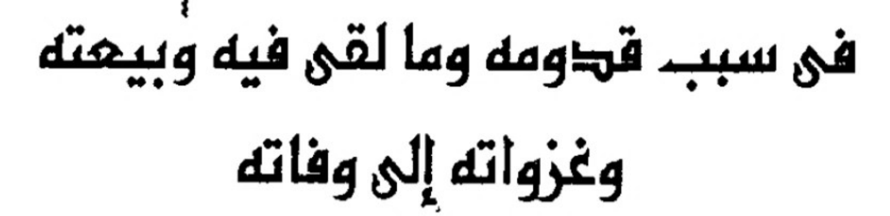
وقد أشار إلى مضمون هذا فى الأقنوم بقوله «ذكر دولة الأدارسة»:

قد جاء راشد بإدريس الإمام	وفى وليلى عام قعب قد أقام
وامتد ملكه إلى أن وصلا	إلى الرشيد فلذاك أرسلا
من سمه فمات عام زعق	وقام راشد بأمر الخلق
وكان قد ترك حملا وضعا	ولده إدريس منه بويعا
وهو ابن إحدى عشرة من السنين	واختط عام قطب فاس المعين
ومات فى ريب وبعد وليا	ولده محمد توفيا
سنة ركا ثم بعده علي	ومات فى ولد وبعده ولي
يحيى الجعيد بعده أو الحسن	وقام موسى عام سبح فامتسن
محمد أحسنهم من بعده	وعام جص اختبى فى لحده
وعادت الدولة للأدارسة	من بعد أن قد صيروها دارسة
بعد محمد تولى القاسم	ثم أبو العيش الأخير منهم
وهو ابنه فانقرضت فى الدولة	فى عسه فمن بهم للملة

هذا إجماله وأما تفصيله فينبغى أن يذكر ذلك على وجه يستدعى بيان سبب قدومه وبيعته وغزواته وفتوحاته إلى وفاته، وسبب موته وقيام خلفائه من بعده وبيان سيرته الحميدة وأوصافه الجزيلة المجيدة وقيام جعيدة من بعده على سنن أبيه وجده رضى الله عنهم أجمعين ونفعنا بهم آمين على فصول مرتبة بنقول مهذبة.



الفصل الأول



فى سبب قدومه وما لقى فيه وبيعته وغزواته إلى وفاته





الفصل الأول

في سبب قدومه ومالقى فيه وبيعته وغزواته إلى وفاته

فاعلم أنه قد قال أبو الحسن ابن أبى زرع فى كتابه الأنيس المطرب روض القرطاس فى سبب إتيان مولانا إدريس للمغرب: أن أخاه النفس الزكية محمد بن عبد الله الكامل قام بالحجاز على أبى جعفر المنصور عام خمس وأربعين ومائة منكراً عليه فأرسل إليه أبو جعفر جيشاً عظيمًا فهزم النفس الزكية وقبض على جماعة من أصحابه وفروا إلى بلاد النوبة جنوب مصر إلى أن قام المهدى بعد موت المنصور فأرسل إليه فظهر النفس الزكية بمكة المكرمة فبويع بالموسم وتبعه أهل مكة والمدينة المنورة وأهل الحجاز وكان له ستة أخوة وهم يحيى وسليمان وإبراهيم وعيسى وعلي وإدريس، فبعث عليًا إلى إفريقية فأجابه بها خلق كثير من البربر وبقى هناك إلى أن توفى، وبعث يحيى إلى خراسان فأقام بها إلى أن قتل أخوه محمد ففر إلى الديلم فأسلم على يديه خلق كثير ودعا لنفسه فبايعه خلق كثير وقوى أمره وذلك فى خلافة الرشيد فلم يزل يبعث إليه الرشيد بالجيوش ويحتال حتى أتاه بالأمان فأقام عنده إلى أن مات مسمومًا فى زمن الرشيد، وبعث سليمان إلى مصر داعيًا فلما اتصل به قتل أخيه محمد سار إلى بلاد النوبة ثم إلى السودان ثم وصل بعد ذلك إلى تلمسان من بلاد المغرب فنزلها واستوطنها فى أيام أخيه إدريس فكان له بها أولاد فكل حسني هناك من نسل سليمان بن عبد الله، وقد دخل أكثر أولاده إلى المغرب والسوس الأقصى، أما النفس الزكية لما قويت شوكته بمكة قاتل المهدى العباسى فى عسكر عظيم من الحجاز واليمن وغيرهما على ستة أميال من مكة فقُتل النفس الزكية بعد قتال شديد وانهزم جيشه وقُتل منهم كثير فى يوم السبت فى ذى الحجة سنة تسع وستين ومائة بعد الهجرة وفر أخوه إبراهيم إلى البصرة فأقام بها ولم يزل يحارب أعداءه حتى قتل وفر أخوه إدريس مستتراً من مكة المكرمة حتى وصل إلى مصر مع مولاه راشد فلقيهما رجل من أهل الخير والدين والمحبة لأهل البيت النبوى فاستأمناه على سرهما فأعطاهما الأمان فاخبراه فأكرمهما

وأقاما عنده مدة وأخبره راشد بأنه يريد أن يذهب إلى بلاد المغرب وهى بلاد قبائل البربر قائلاً إنه بلدنا لعله يأمن فيه وهذا يدل على أن أصل راشد من المغرب الأقصى، وقد قال صاحب الاستبصار: أن راشد مولى الشريف إدريس أصله من البربر وبالتحديد من قبيلة أوريد، قيل إنه سبُى مع أبيه فى غزوة موسى بن نصير ثم قفل مع أبيه إلى المشرق وهو صغير ثم أتى مع إدريس ودله أو رغبه فى المغرب الأقصى ثم اتصل خبرهما بعامل مصر من قبل الخليفة العباسى وكان يسمى علي بن سليمان الهاشمى فبعث إلى الرجل فقال: إنه قد رفع إليّ خبر الرجلين اللذين عندك وإن أمير المؤمنين قد كتب إليّ فى طلب الحسنيين والبحث عمن وجد منهم، وقد بعث عيونه علي الطرقات وجعل الرصاد فى أطراف البلاد فلا يمر أحد منهم حتى يعرف صحة نسبه وحاله ومَن أين قدم وإلى أين يسير؟ وإنى أكره أن أتعرض لدماء أهل البيت أو أن ينالهما أذى بسببى فلك ولهما الأمان سر إليهما وأعلمهما بمقالى وقل لهما يخرجان من عمالتى بمصر لئلا يصل خبرهما إلى المهدى فيخرجكم من يدى وقد أجلت لكم فى الخروج ثلاثة أيام، فسار الرجل وأعلمهما فعزما على الخروج إلى المغرب فاشترى الرجل لهما راحلتين ولنفسه أخرى وصنع لهما زاداً يبلغهما إلى إفريقية وقال لراشد: اخرج مع الرفقة على الجادة وأخرج أنا مع مولانا إدريس على طريق غائض أعرفه لا تسلكه العامة أو الرفاق وموعدنا مدينة برقة انتظرك حيث آمن عليك من الطلب فقال: الرأى ما رأيت، فخرج راشد مع الرفقة على الجادة فى زي التجار وخرج مولانا إدريس مع الرجل فى البرية حتى وصل مدينة برقة فقعدا فيها حتى وصل راشد ثم جدد الرجل لهما هنالك زاداً يبلغهما وودعهما وانصرف راجعًا إلى مصر.

وقال التنسى: إنه أتى مصر مع مولاه راشد فأقام مستخفيًا بها فانتهى خبره إلى صاحب البربر وهو واضح مولى صالح بن منصور الحميرى وكان متشيعًا لآل البيت فأتى الموضع الذى كان فيه مختفيًا فلم ير أصلح له من ان يحمله إلى البربر فى المغرب الأقصى ففعل فبلغ ذلك هارون الرشيد فى بغداد فأخبر ان الذى أجازه إلى المغرب هو واضح المذكور فأمر به فضرب عنقه وصلب.



وقال فى الأنيس : وسار إدريس مع مولاه راشد إلى إفريقية يجد السير حتى وصلا إلى القيروان فأقاما بها مدة وكان راشد من أهل النجدة والشجاعة والحزم والقوة والعقل والدين والنصيحة لأهل البيت رضى الله عنهم فعمد إلى إدريس حين خرج من القيروان من أرض تونس وألبسه مدرعة صوف خشينة وعمامة غليظة وصيره كالخادم له يأمره وينهاه كل ذلك خوفا عليه وحياطة وتحرزاً، فلم يزل على ذلك حتى وصل مدينة تلمسان فاستراحا بها أيامًا ثم ارتحل منها نحو بلاد طنجة قرب ساحل المغرب الأقصى فسارا حتى عبرا وادى ملوية ودخلا السوس الأدنى حده من وادى ملوية إلى وادى أم الربيع وهو أخصب بلاد المغرب وأعظمها بركة فدخلا طنجة وأقاما مدة فلم يجد مولانا إدريس بها مراده فخرج مع مولاه راشد حتى نزلا بمدينة وليلى قاعدة جبل زرهون وكانت وليلى متوسطة خصيبة كثيرة المياه والغراس والزيتون وكان لها سور عظيم وهى بلدة قديمة البناء ويذكر أنها من بنيان القبط وهى معروفة بقصر فرعون، ولما وصل مولانا إدريس إليها على صاحبها الأمير إسحاق بن محمد بن عبد المجيد الأوربى المعتزل فأقبل على مولانا إدريس وأكرمه وبالغ فى بره فأظهر له إدريس أمره وعرفه نسبه فوافقه على حاله وأنزله معه بداره فتولى خدمته والقيام بشئونه وكان دخول مولانا إدريس المغرب ونزوله على عبد المجيد فى غرة ربيع أول سنة اثنين وسبعين ومائة فأقام عنده ستة أشهر.

وأما بيعته وغزواته فإنه لما دخل شهر رمضان من السنة المذكورة جمع عبد المجيد إخوته قبائل أوربة(*) فعرفهم بنسب إدريس وفضله وقرابته من مولانا رسول الله وشرفه وعلمه ودينه والفضائل المجتمعة فيه فقالوا: الحمد لله الذى أتانا به وشرّفنا بجواره ورؤيته فهو سيدنا ونحن عبيده نموت بين يديه فما تريد منا؟ قال تبايعونه فقالوا: سمعًا وطاعة ما منا من يتوقف عن بيعته وما يريد. فبايعته قبائل أوربة وكانوا فى ذلك الوقت أعظم قبائل المغرب وأكثرها عدداً وأشدها قوة وبأسا وأحدها شوكة فكانوا هم أنصاره الأولين ثم بعد ذلك قبائل زناتة وأصناف قبائل

(*) أوربة : أشهر قبائل البربر فى المغرب الأقصى حتى الآن.

البرابرة من أهل المغرب منهم زواغة وزوارة ولماية وسدراتة وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة فبايعوه ودخلوا فى طاعته ولما استقام أمره أخذ جيشًا عظيمًا من وجوه قبائل زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم فخرج غازيًا إلى بلاد تامسنا كما يأتى بيان ذلك وذكر بعض أهل العلم أن عبد المجيد تاب من اعتزاله على يده وحسنت توبته وفى تاريخ دخوله المغرب يقول الإمام ابن غازى رحمه الله تعالى:

وجاءنا إدريس عام تعب ∴ إلى وليلى بأقصى المغرب

إذ قام مدة على المدهى . . . إلخ.

ومازال رضى الله عنه يدعو إلى الله عز وجل ويقاتل على إعلاء كلمة الله إلى أن طهر الله المغرب من أنواع الكفر والضلال كما يتبين بعد ثم إنه لما استتم أمر مولانا إدريس رضى الله عنه تجهز غازيًا إلى بلاد تامسنا فنزل أولاً مدينة شالة ففتحها ثم فتح بعدها مدائن سائر بلاد تامسنا ثم سار إلى بلاد تادله ففتح معاقلها وحصونها وكان أكثر هذه البلاد على دين النصرانية ودين اليهودية والمجوسية والإسلام بها قليل فأسلم جميعهم على يديه ثم رجع إلى مدينة وليلى فدخلها فى آخر شهر ذى الحجة من سنة اثنين وسبعين ومائة فأقام شهر المحرم مفتتح سنة ثلاث وسبعين ومائة واستراح الناس ثم خرج برسم غزو من بقى بالمغرب من البربر على دين النصرانية واليهودية والمجوسية وكان قد بقى منهم بقية متحصنون فى المعاقل والجبال والحصون المنيعة فلم يجاهدهم ويستنزلهم حتى دخلوا فى الإسلام طوعًا وكرها وفتح بلادهم ومعاقلهم وأباد من أبى الإسلام منهم بالقتل والسبى ودمر بلادهم ومعاقلهم منها حصون مندلاوة وحصون مديونة وبطلوله وقلاع غياثة وبلاد بارز ثم رجع من هذه الغزوات إلى مدينة وليلى فدخلها فى النصف من جمادى الأخيرة سنة ثلاث وسبعين المذكورة فأقام النصف من رجب حتى استراح الناس ثم خرج فى النصف الأخير من رجب المذكور برسم غزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوه وبنى يفرن فوصل مدينة تلمسان ونزل بخارجها فأتاه أميرها محمد بن حرز المغراوى فطلب أمانه فأمنه وبايعه محمد بن حرز وجميع من معه بمدينة تلمسان فدخلها إدريس صلحًا فأمن أهلها وبنى مسجدها واتقنها وصنع بها

منبراً وكتب عليه «بسم الله الرحمن الرحيم» هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب رضى الله عنهم وذلك فى شهر صفر سنة اربع وسبعين ومائة ثم رجع إلى وليلى وتوفى بها كما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى فاستبان من هذا انه على يديه أسلم أهل المغرب وأنه هو الذى أتاهم بالإيمان وقد علم أنه رضى الله عنه توفرت فيه شروط الخلافة علمًا ونسبًا.

أما الشرط الأول الذى هو العلم فقال الإمام زكريا فى همزيته:

كان بحراً من العلوم فحققت ∴ منه فينا خلافة ودعاء

قال فى شرحها: يأتى بعد هذا البيت دليل على علمه تفصيلا وأما الدليل الجملى فهو رضى الله عنه من تابع التابعين مع شدة قربه من مولانا رسول الله ﷺ وقد علم أن إماء الصحابة والتابعين أعلم من أكابر علماء من تأخر عنهم من العصور كما قال الشيخ السنوسى وغيره فما بالك بمن كان منهم من أبناء مولانا رسول الله ﷺ وبذلك تعلم أنه قد توفرت فيه شروط الخلافة ولا يرد عليه أصلاً خلع بنى العباس والخروج عليهم فإنه عهد إليه اخوه محمد النفس الزكية الإمامة قبل بنى العباس فقد ذكر غير واحد أنه لما تزلزلت قواعد مُلك بنى أمية وضعف امرهم اجتمع أهل البيت بالمدينة وبايعوا بالخلافة للنفس الزكية وحضر هذا العقد أبو جعفر المنصور العباسى، قال فى كتاب ترجمان العبر:فبايع المنصور فيمن بايع من أهل البيت واجمعوا على ذلك لتقدمه فيهم بما علموا له من الفضل عليهم ولهذا كان مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى ورضى عنهما يحتجان إليه ويرجحان إمامته على بنى العباس لأن بيعة النفس الزكية كانت فى عنق أبى جعفر بالحجاز ويريان إمامته أصح من إمامة أبى جعفر لانعقاد هذه البيعة من قبل. وقد قيل إن سبب ضرب أبى جعفر للإمام مالك انه أفتى بأن بيعة أبى جعفر لا تلزم لأنها على الإكراه وهذه رواية الأكثر وانظر الخطاب فى شرح ديباجة المختصر،وقال حذاق المالكية الإمامة: تنعقد بعد الإمام الأول وإن لم يشاور أهل الحل والعقد وإن ذلك حكم ماض حكم به على المسلمين على أن الإمام مولانا إدريس رضى الله عنه من أئمة الاجتهاد فقد فعل ما أداه إليه اجتهاده فهو ماجور على كل حال

وقد تقدم عن سيدى موسى الزياتى أنه من التابعين وليس ببعيد وعليه جزاء بعض القدماء من أهل العلم الذين مدحوه حيث قال:

زرهون أشرف ما فى الأرض من بقع ∴ إذ فيه قبر عظيم من ذوى كرم
وذاك قبر الإمام التابعى الذى ∴ من آل بيت الرسول سيد الأمم
إدريس أجمل خلق الله فيه إذن ∴ وهو الإمام لهم فى الحشر بالعلم

وممن قال بتفضيل زرهون لدفن مولانا إدريس وثوى فيه حيًا وميتا فجاوز زرهون التفضيل من أجله فكما طابت طيبة[1] بحلول رسول الله ﷺ حيًا وميتًا كذلك طاب زرهون أيضا بحلول إدريس حيًا وميتًا، وممن قال بتفضيله العلامة الكبير سيدى محمد السبتى رحمه الله تعالى.

وأما الدليل التفصيلى فقد قال الإمام زكريا فى شرح قوله من همزيته:

« نفع مولاه راشد لابنه إدريس فيه إماء».

ما نصه :

هذا دليل علم سيدنا إدريس بن عبد الله على سبيل التفصيل وبيانه أنه لما شب ولده مولانا إدريس الأصغر رضى الله عنه علمه مولى أبيه راشد العلوم العقلية والنقلية من فقه وحديث وتفسير ولغة وبلاغة وغيرها حتى علوم السياسة إلى أن تمهر فيها فإذا كان هذا علم المولى التابع الخادم فما ظنك بعلم السيد المتبوع المخدوم وما استفاد ذلك راشد إلا منه ولا أخذ إلا عنه وقد تقدم أن منشأ راشد وأصله من المغرب من البربر وهو راشد بن مرشد بن منصت الأوربى وأنه سبى مع أبيه فى غزوة موسى بن نصير وقفل مع أبيه إلى المشرق وهو صغير ثم أتى مع مولانا إدريس ودله على المغرب.

وأما الشرط الثانى الذى هو النسب فقد بلغ العلم بشرفه وصحة نسبه وأنه إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن بن الحسن السبط بن علي ابن أبى طالب رضى الله عنه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ مبلغ التواتر المفيد للقطع

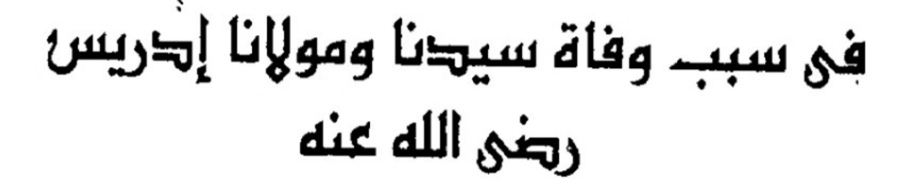
(١) طيبة: المدينة النبوية المنورة.

واليقين واستفاض على السنة الخاصة والعامة استفاضة بلغت أعلى مراتب الاستفاضة وأقوى أنواع التواتر انعقد على ذلك الاجماع وذكر ذلك وصرح به جماعة من فحول أهل العلم وأكابرهم كمصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام ولقى مالكًا وروى عنه كتاب الموطأ وغيره وأخرج له النسائى وابن ماجة وغيرهما فإنه ذكر إدريس بن عبد الله وقدومه المغرب وذكر ولده مولانا إدريس قبل وفاة مصعب هذا بسبع وعشرين سنة وعاش مصعب ثمانين سنة أو ما يقرب منها والحافظ والقاضى عياض فى المدارك حين ذكر المحمودية والإمام التجيبى ذكر إدريس وولده وأخبارهما والإمام الجبزنائى فى كتابه والإمام العارف بالله سيدى الشيخ زروق فى كناشته فإنه ذكره وذكر آباءه ورفع نسبه إلى النبى ﷺ والإمام الولى الصالح موسى ابن عبد الله الزياتى والإمام التنيسى فى كتابه الدر والعقيان والإمام الكبير العلامة الشهير أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون والإمام المسعودى وابن الخطيب التلمسانى وابن السكاك المكناسى والإمام العلامة أبو العباس أحمد الونشريسى والإمام ابن غازى وقد سبق شئ من نظمه والإمام الشاطبى وشيخ الجماعة الإمام ابن القصار والإمام النورزى المصرى فى شرح الشقراطة وغيرهم ويكفى فى القطع بصحة هذا النسب الكريم انتساب القطبين الكريمين والغوثين الجامعين الشهيرين إمامى طريقة الفتح والوصول إلى انقراض الدنيا ومولانا عبد السلام بن مشيش ومولانا الحسن الشاذلى نفعنا الله بهما.

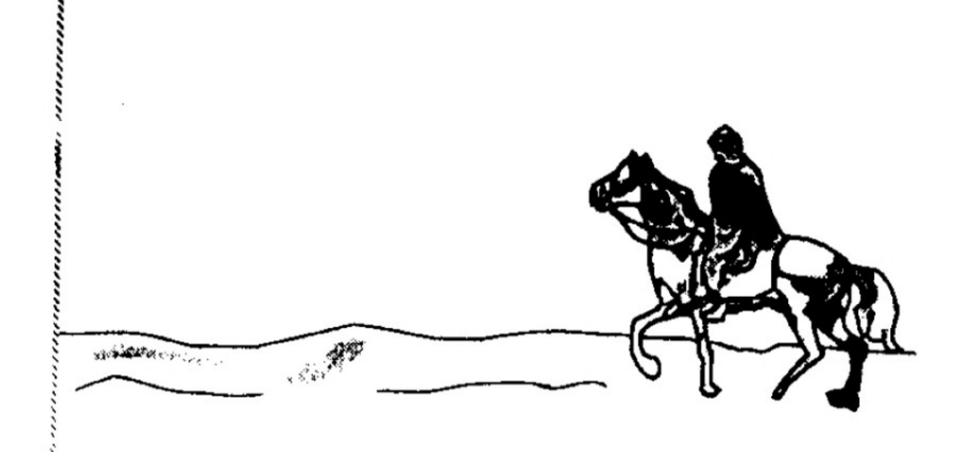




الفصل الثانى



فى سبب وفاة سيدنا ومولانا إدريس رضى الله عنه



الفصل الثانى

فى سبب وفاة سيدنا ومولانا إدريس رضى الله عنه

وذلك أنه لما اشتهر ذكره وعلا صيته وأمره وفشا خبر غزواته وفتوحاته ودخول الناس فى طاعته واستجابتهم لدعوته طوعًا وكرهًا وتسخير القلوب له، خاف الرشيد أن يعظم أمره حتى يصل إليه لما يعلم من كماله وفضله وحب الناس له فاغتم لذلك غمًا شديدًا فبعث إلى وزيره المدبر لمملكته يحيى بن خالد البرمكى يستشيره فيه وقال: إنه من ولد علي بن أبى طالب وابن فاطمة بنتِ رسول الله ﷺ وقد قوى سلطانه وكثرت جيوشه وعلا شأنه واشتهر اسمه وظهرت فتوحاته وقد فتح تلمسان وهى باب إفريقية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار وقد عزمت أن أبعث له جيشًا عظيمًا لقتاله ثم تفكرت فى بعض البلاد وطول المسافة وتنائى المغرب عن المشرق ولا طاقة لجيوش العراق إلى الوصول إلى السوس من أرض المغرب فرجعت عن ذلك وقد هالنى أمره فأشر عليَّ برايك، فقال يحيى بن خالد: يا أمير المؤمنين من الرأى أن تبعث إليه رجلاً ذا حزم ومكر ولسان وإقدام وجراه يقتله وتستريح منه، فقال: الرأى ما رايت فمن يكون الرجل؟ قال: يا أمير المؤمنين أعرف فى جيشى رجلا اسمه سليمان بن جرير من أهل الحزم والإقدام والفتك والشجاعة والعلم بالجدل والدهاء نبعثه إليه فقال: أسرع بذلك فخرج الوزير إلى سليمان بن جرير فعرفه المقصود وما يراد منه ووعده على ذلك الرفعة والمنزلة العالية فأعطاه أموالاً جليلة وتحفًا مستطرفة وجهزه بما يحتاج إليه فخرج من بغداد يجدُّ السير مظهرًا النزوع إلى إدريس فيمن نزع متبرئا من الدعوة العباسية ومنتحلاً للطلب حتى وصل إلى المغرب فقدم على مولانا إدريس بمدينة وليلى بعد رجوعه من تلمسان فسلم عليه فسأله الإمام مولانا إدريس عن اسمه ونسبه ومن أى البلاد قدم وما سبب قدومه إلى المغرب؟ فذكر له أنه من بعض موالى أبيه وأنه اتصل به خبره فأتاه برسم خدمته لأجل محبته وولايته لأهل البيت فأنس به مولانا إدريس وسكن إلى قوله وسُر به سرورًا عظيمًا وحل من قلبه بمنزلة رفيعة فكان لا يقدر أن

يأكل إلا معـه لأنه لم يجد في بلاد المغرب من يأنس به ويستريح إليه غيره وذلك لجهل أهل المغرب وجفاء طباعهم، ولما ظهر له في سليمان المذكور من النبل والأدب والفصاحة والبلاغة. قال في المسالك: سليمان الجريرى رجل من ربيعة كان متكلمًا يرى رأى الزيدية وكان حلوًا شجاعًا أحد شياطين الإنس فكان إذا جلس مع الإمام مولانا إدريس بين رؤساء البرابر ووجوههم يذكر فضائل أهل البيت وعظيم بركاتهم ويقيم الدليل على إمامة مولانا إدريس ويأتى فى ذلك بالحجج البينة والبراهين القاطعة وبأحاديث وأخبار فأحبه إدريس وكان لا يأكل ولا يشرب إلا معه فلم يزل يترقب الفرصة ويعمل فى قتله الحيلة فلا يجد إلى ذلك سبيلا من أجل راشد الذى لا يزايله ولا يفارقه إلى أن قدر الله تعالى أن غاب راشد ذات يوم فى بعض شئونه فدخل عليه سليمان بن جرير فوجده وحده فجلس بين يديه على عادته يتحدث معه مليا فلم ير راشدا فانتهز الفرصة فقال يا سيدى: جُعلت فداك إنى جئت من المشرق بقارورة طيب اتطيب بها ثم إنى لما رأيت هذه البلاد ليس بها طيب رأيت أن الإمام أولى بها فخذها تتطيب بها فقد آثرتك بها على نفسى وهى من بعض ما يجب لك عليّ ثم أخرجها من وعاء ووضعها بين يديه فشكره مولانا إدريس ثم أخذ القارورة ففتحها وشمها ولما تحصل مراده منه وتمت حيلته فيه جعل يده فى الأرض وخرج كأنه يريد قضاء حاجته. فسار إلى منزله وركب فرساً من عتاق الخيل وسباقها كان قد أعدها لذلك وخرج يطلب النجاة وكانت القارورة مسمومة فلما استنشقها مولانا إدريس صعد السم إلى دماغه فغشى عليه وسقط فى الأرض على وجهه لا يفهم ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه واتصل خبر غشيته بمولاه راشد فأقبل مسرعاً فدخل عليه ووجده يجود بنفسه وقد أشرف على الموت وهو لا يقدر يبين الكلام فقعد عند رأسه متحيرًا فى أمره لا يعلم ما به حتى قطع سليمان بن جرير مسافة من الأرض وأقام مولانا إدريس فى غشيته إلى آخر النهار وتوفى رحمة الله عليه وكانت وفاته مفتتح شهر ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومائة فكانت إمارته خمسة أعوام وسبعة أشهر.

وقال النوفلى ثلاثة أعوام وستة أشهر، فلما توفى نظر راشد إلى سليمان بن جرير فلم يجده فأخبر أنه لقى على أميال كثيرة فعلم أنه سمه فركب فى جمع كثير من

البربر وخرج في طلبه وجدَّ السير طول ليله وتقطعت الخيل في أثره فلم يلحقه من القوم إلا راشد وحده أدركه وهو يجوز وادي ملوية فصاح به راشد وشد عليه بالسيف فقطع يده اليمنى وشجه في رأسه ثلاث شجات وجرحه في جسده ولم يصب له مقتلا وكبى جواد راشد ففر سليمان بن جرير حتى وصل العراق فأخبر بعض الناس أنه لقيه ببغداد مشلولة يده اليمنى وبرأسه وجسده أثر الجراحات وقد برئت. قال النوفلي: حدثني من رآه بعد قدومه العراق مكتعا - «والمكنع كمعظم المقطوع اليد»- وقال: لما أتى سليمان الرشيد ولاه بريد مصر وما ظنك برجل تجاسر على جانب النبوءة وتجرأ على حرمة مولانا علي وسيدتنا فاطمة والحسن وقتل إمام المسلمين، وخليفة سيد المرسلين لأجل حظ دنيوى وقدر الله نافذ لا محالة والويل كل الويل لمن قدر الشر على يديه ورجع راشد إلى وليلى فأخذ في جهاز مولانا إدريس فغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه بصحن رابطة باب وليلى ليتبرك الناس بقبره وزيارة تربته وأما يحيى بن خالد صاحب هذا الرأى الفاسد فآل أمره إلى أن سجن طويلاً وقتل شر قتله وشتت شمل جميع أقاربه(*) وفرق جمعهم وسبى نساؤهم وذراريهم ودار عليهم الزمان بضروب الامتحان إلى أن القوا على المزابل كالقمامات، وهكذا عادة الله فيمن آذى أهل البيت وقصد نكايتهم ينعكس وباله عليه.

وقد علم ما وقع بقاتلى الحسين رضى الله عنه وإجمال قصته أنه لما مات معاوية وأفضت الخلافة إلى يزيد ووردت بيعته على الوليد بن عتبة وكان الوليد عاملاً لمعاوية على المدينة أرسل الوليد إلى الحسين وإلى عبد الله الزبير ليلاً فأتى بهما فقال: بايعا فقالا: لا شُلت يمينك لا نبايع سرّا ولكنا نبايع على رؤوس الناس إذا أصبحنا فرجعا إلى بيوتهما وخرجا من ليلتهما إلى مكة وذلك ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب وعزل يزيد الوليد بسبب ذلك حيث كف عن الحسين وابن الزبير، وأقام الحسين بمكة شعبان ورمضان وشوال وذا القعدة وخرج يوم التروية يريد الكوفة وذلك أن أهل الكوفة أرسلوا إليه ليبايعوه ويمحو عنهم ما هم فيه من الجور فنهاه عبد الله بن عباس وبين له غدرهم وقتلهم لأبيه وخذلانهم لأخيه

(*) وهي مذبحة البرامكة الشهيرة بالعراق على يد أبي جعفر المنصور العباسي



وقال: فإن أبيت فلا تذهب بأهلك فأبى فبكى ابن عباس وقال وحبيباه وقال: له ابن عمر نحوا ذلك فبكى ابن عمر وقبله بين عينيه وقال استودعك الله من قتيل ونهاه ابن الزبير أيضا وكان أخوه الحسن قد قال له عند احتضاره: إياك وسفهاء الكوفة أن يستخفوك فيخرجوك ويسلموك فتندم ولات حين مناص وكان أمر الله قدرًا مقدورا.

وقد أخرج البغوى فى معجمه من حديث أنس أن النبى ﷺ قال: استأذن ملك القطر ربه أن يزور النبى ﷺ فأذن له وكان فى يوم أم سلمة فقال النبى ﷺ: يا أم سلمة احفظى علينا الباب لا يدخل أحد فبينما هى على الباب إذ دخل الحسين فاقتحم فوثب على رسول ﷺ فجعل النبى يلثمه ويقبله فقال له الملك: أتحبه قال: نعم قال: إن أمتك ستقتله وإن شئت أريك المكان الذى يقتل به فأراه فجاء بسهله أو تراب أحمر فأخذته أم سلمة فجعلته فى ثوبها. قال ثابت كنا نقول أنها كربلاء وأخرجه أيضًا أبو حاتم فى صحيحه وروى أحمد نحوه وروى عبد بن حميد وابن أحمد نحوه أيضًا لكن فيه أنه الملك جبريل فإن صح فهما واقعتان وزاد الثانى أنه ﷺ شمها وقال: ريح كربلاء (والشهلة بكسر أوله رمل حسن ليس بالرقاق الناعم) وفى رواية الملاء وابن أحمد فى زيادة المسند قالت: ثم ناولنى كفا من تراب أحمر وقال: إن هذا من تربة الأرض التى يقتل بها فمتى صار دما فاعلمى أنه قد قُتل قالت أم سلمة: فوضعته فى قارورة عندى وكنت أقول إن يومًا يتحول فيه دمًا ليوم عظيم وفى رواية عنها فأصبته يوم قُتل الحسين وقد صار دمًا وفى رواية أخرى ثم قال يعنى جبريل ألا أريك تربة مقتله فجاء بحصيات فجعلهن رسول الله ﷺ فى قارورة، قالت أم سلمة فلما كانت ليلة قتل الحسين سمعت قائلاً يقول:

أيها القاتلون جهلاً حسينًا *** فأبشروا بالعذاب والتذليل

قد لُعنتم على لسان ابن داود *** وموسى وحامل الأنجيل

قالت: فبكيت وفتحت القارورة فإذا الحصيات قد جرت دما وأخرج ابن سعد عن الشعبى قال مر علي رضى الله عنه بكربلاء عند مسيره إلى صفين وحاذى قرية على الفرات وسأل عن اسم هذه الأرض فقيل كربلاء فبكى حتى بل الأرض من دموعه ثم قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يبكى فقلت: ما يبكيك قال:

كان عندى جبريل آنفا وأخبرنى أن ولدى الحسين يُقتل بشاطئ الفرات بموضع يقال له كربلاء ثم قبض جبريل قبضة من تراب شمنى إياه فلم أملك عينى أن فاضت ورواه أحمد مختصراً عن علي وروى الملا أن عليا مر بموضع قبر الحسين فقال: هاهنا مناخ ركابهم وها هنا موضع رحالهم وها هنا مهراق دمائهم فتية من آل محمد يُقتلون شهداء تبكى عليهم السماء والأرض وكان مما بعثه على الخروج مخافة أن يُستباح حرمة مكة بسببه فلما نهاه ابن عباس قال لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إليّ من أن يُستحل الحرم بى قال ابن عباس: فذلك الذى سلى نفسى عنه ولما نهاه ابن الزبير قال له: مثل ذلك وفى رواية أنه قال لابن الزبير: إن أبى حدثنى أن لمكة كبشًا تُستحل به حرمتها فما أحب ان اكون انا ذلك الكبش ولأن أقتل خارجها بشبرين أحب إليّ من ان أُقتل خارجها بشبر واحد، ولما سار الحسين لقى فى مسيره الفرزدق الشاعر(*) مقبلاً من الكوفة فقال له: بين لى خبر الناس فقال أجل على الخبير سقطت يا ابن بنت رسول الله ﷺ قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء. وروى أن الحسين رضى الله عنه أنشده:

وإن تكن الدنيا تعد نفيسة ... فإن ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن للموت أنشئت ... فقتل امرئ فى الله بالسيف أفضل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً ... فقلة حزم المرء فى الكسب أجمل
وإن تكن الأموال للترك جميعها ... فما بال متروك به المرء يبخل

ولما بلغ كربلاء والتقى الجمعان حمل عليهم وسيفه مصلت فى يده وأنشأ يقول:

أنا ابن علي الحبر من آل هاشم ... كفانى به فخرًا إذا حين أفخر
وجدي رسول الله أفضل من مشى ... ونحن سراج الله فى الناس يزهر
وفاطمة امى سلالة أحمد ... وعمى يُدعى ذا الجناحين جعفر
وفينا كتاب الله أنزل صادقًا ... وفينا الهدى والوحى بالخير يذكر

(*) الفرزدق: من اشهر شعراء العرب وهو من بنى مُجاشع من تميم العدنانية.

وقد وافق رضي الله عنه بهذه الأبيات ما أثنى عليه رسول الله ﷺ فقد أخرج أبو الشيخ بن حبان في كتاب السنن الكبير عن ربيعة السعدي قال: أتيت حذيفة رضي الله عنه فسألته عن أشياء فقال: اسمع مني وعد وأبلغ الناس أني رأيت رسول الله ﷺ كما تراني وسمعته بأذني هاتين وقد جاء الحسين بن علي رضي الله عنهما فجعله على منكبه وجعل الحسين يغمز بعقبه في سر النبي ﷺ فرأيت كف رسول الله ﷺ الطيبة وقد وضعها على ظهر قدم الحسين وهو يغمز بها سرة نفسه لئلا ينبهر وينقطع نفسه من الكلام ثم قال: أيها الناس هذا الحسين بن علي خير الناس جداً وخير الناس جدة، جده رسول الله ﷺ سيد ولد آدم وجدته خديجة سابقة نساء العالمين إلى الإيمان وهذا الحسين بن علي خير الناس خالا وخير الناس خالة، خاله القاسم بن رسول الله ﷺ وخالته زينب بنت رسول الله ﷺ ثم وضعه على منكبه فدرج بين يديه ثم قال ﷺ: يا أيها الناس هذا الحسين ابن علي جداه في الجنة وأبوه في الجنة وأمه في الجنة وأخوه في الجنة وعمه في الجنة وعمته في الجنة وخاله في الجنة وخالته في الجنة ثم قال: أيها الناس إنه لم يُعط أحد من ورثة الأنبياء الماضين ما أُعطي الحسين بن علي خلا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، يا أيها الناس إن الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول الله ﷺ وذريته فلا تذهبن بكم الأباطيل. وكان مع الحسين في ذلك الموقف نيف وثمانون نفسًا وكان معه أربعون فارسًا ومائة راجل وأعداؤه أربعة آلاف فثبت ثباتًا باهراً وقاتل قتالاً لم يُسمع بمثله وقتل عدداً كثيراً من أبطالهم وشجعانهم ثم قُتل رحمه الله تعالى ورضي عنه وقُتل معه من أخوته وبنيه وبني أخيه الحسن ومن أولاد جعفر وعقيل تسعة عشر رجلاً وقيل إحدى وعشرون قال الحسن البصري: ما كان على وجه الأرض يومئذ لهم شبيه ولولا ما كادوه به من أنهم حالوا بينه وبين الماء لم يقدروا عليه، وكان موته في يوم عاشوراء عام إحدى وستين، أخرج أبو الشيخ عن يعقوب بن عثمان قال: كنت في ضيعتي فصليت العتمة ثم جلسنا جماعة ثم ذكروا الحسين فقال رجل: ما أعان على قتله أحد إلا أصابه قبل أن يموت بلاء ومعنا شيخ كبير فقال: أنا ممن شهده وما أصابني أمر أكرهه إلى ساعتي هذه قال: فاطفئ السراج فقام ليصلحه فأخذته النار فجعل ينادي: النار وألقى نفسه في الفرات ينغمس فيه فأخذته النار حتى مات.

وقال السدى: أنا والله رأيته كأنه حممة وأخرج منصور بن عمار عن أبى محمد الهلالى قال: اشترك منا رجلان فى قتل الحسين فابتلى أحدهما بالعطش فكان لو شرب راوية ما روى. وحكى هشام بن محمد عن القاسم بن الأصبغ قال: لما جئ برأس الحسين وأصحابه إلى الكوفة إذا بفارس من أحسن الناس وجهًا قد علقت فى لبب فرسه رأس غلام كأنه القمر ليلة تمامه والفرس يمرح فإذا طأطأ رأسه لحق الرأس بالأرض فقلت له: رأس من هذه قال: رأس العباس بن علي، قلت: وأنت من؟ قال: حرملة بن الكاهن الأسدى، قال: فلبثت أيامًا وإذا بحرملة ووجهه أسود من النار فقلت رأيتك يوم حملت الرأس وما فى العرب أنضر وجهًا منك وما أرى اليوم أقبح ولا أسود وجهًا منك فبكى وقال منذ حملت الرأس إلى اليوم ما تمر عليّ ليلة إلا وإثنان يأخذان بضبعى ثم ينتهيان بى إلى نار تتأجج فيدفعانى فيها وأنا أنكص فتسفعنى كما ترى ثم مات على أقبح حال، والعباس هذا قُتل مع الحسين هو وشقيقه عثمان وجعفر وعبد الله أمه أم البنين بنت حزام بن خالد الوحيدية ثم الكلابية[١] وقتل معه أيضا أبو بكر بن علي أمه ليلى بنت معود بن خالد النهشلى[٢] ومحمد بن علي قتل معه أيضًا أمه أم ولد.

وبيان القضية أن المختار بن أبى عبيد تبعته طائفة من الشيعة وقتل من شهد قتل الحسين بأقبح القتلات ولم يبق واحد من الأربعة آلاف الذين قاتلوا الحسين مع عمر بن سعد بن أبى وقاص وقتل عمر بن سعد وخص شمّر بن ذى الجوشن[٣] بمزيد من نكال وأوطئت الخيل صدره وظهره وذلك أن شمّر هذا قبحه الله هو الذى تولى قتل الحسين وجرأهم على ذلك، وذلك أن عمر بن سعد كان عاملاً لابن زياد فوجهه ابن زياد لقتل الحسين ومعه أربعة آلاف فبعث عمر للحسين يطلب الاجتماع به فى خلوة لكراهية قتاله فاجتمعا فقال عمر: ما جاء بك؟ فقال: أهل الكوفة فقال: أما عرفت ما فعلوا معكم؟ فقال: من خدعنا فى الله انخدعنا له

(١) الكلابية: منسوبة إلى بنى كلاب من هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

(٢) النهشلى من بنى نهشل من تميم بن مر العدنانية.

(٣) شمّر بن ذى الجوشن: من بنى كلاب من هوازن.

فقال فما ترى الآن؟، قال: دعونى ارجع فاقيم بمكة او آتى المدينة او اقيم ببعض الثغور فقال: أكتب إلى ابن زياد فكتب إليهم فهم بإجابته لذلك فقال شمر بن ذى الجوشن: الكلام لا يقبل منه حتى ينزل على حكمك فقال ابن زياد: نعم ما رايت وكتب إلى ابن سعد إنى لم ابعثك لتكون شفيعاً عندى فإن نزل على حكمى ووضع يده فى يدى فابعث به إلىَّ وإن أبى فأقتله واصحابه واوطئ الخيل صدره وظهره ومَثّل به وإن أبيت فاعتزل علمنا وسلمه إلى شمّر بن ذى الجوشن ودفع الكتاب إلى شمّر وقال: إن فعل ما آمره به وإلا اضرب عنقه وانت الأمير على الناس فلما وصل شمّر قال له ابن سعد: لا أهلاً بك والله ولا سهلاً يا أبرص لقد رددته عما كان فى عزمه وبعث إلى الحسين فأخبره فقال: والله لا وضعت يدى فى يد ابن مرجانة أبداً - يقصد ابن زياد- فقاتلوه وناداه شمّر الساعة ترى الهاوية فقال الحسين: الله أكبر اخبرنى جدى رسول الله ﷺ قال: رايت كأن كلبًا ولغ فى دماء أهل بيتى وما أخالك إلا إياه، ثم إن سنان بن أنس النخعى[1] وشمّر بن ذى الجوشن اشتركا فى قتل الحسين وكان شمّر أبرص فأما سنان فجاء إلى ابن زياد وقال:

اوقر ركابى فضة وذهبا ... إنى قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا ... وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فقال: حيث علمته كذلك فلمَ قتلته؟ وأما شمّر ففعل به المختار ما سبق وقد شكر الناس أولاً للمختار انتصاره لأهل البيت لكنه أنبأ فى الأخير عن خبث وكذب على أهل البيت فزعم أنه يوحى إليه وكان علي بن الحسين يلعنه ويقول كذب على الله وعلينا. وإليه تنسب الطائفة الكيسانية فإنه كان يُلقب بكيسان وكان يزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدى وكان سليمان بن صرد وهو من الصحابة ممن كاتب الحسين فى القدوم إلى الكوفة فيما ذكره ابن عبد البر ثم أنه لم يقاتل معه فندم هو ومن معه بعد موت الحسين على خلافه وقالوا: ما لنا توبة إلا أن نقتل أنفسنا فى

(١) النخعى: من النخع قبيلة من إياد العدنانية ودخلت فى القحطانية قديمًا قبل البعثة.

الطلب بدمه فخرجوا إلى الشام وولوا أمرهم سليمان بن صرد وسموه أمير التوابين وإنما قصدوا الشام لأن ابن زياد الآمر بقتل الحسين لما بلغه موت يزيد هرب من الكوفة إلى الشام فانتهى إلى مروان بن الحكم فخرج إليهم ابن زياد المذكور فى ثلاثين ألفا وكان أصحاب سليمان أربعة آلاف فاقتتلوا أياماً ثم التقوا يوماً فكان النصر لسليمان فى أول النهار ولابن زياد فى آخره ثم قتل سليمان وهو ابن ثلاث وتسعين سنة وافترقوا ثم مات مروان ثم نزل ابن زياد الموصل فى ثلاثين ألفاً فجهز إليه المختار إبراهيم بن الأشتر[1] فى صائفة سنة تسع وستين فالتقى بابن زياد فقتل ابن زياد على الفرات فى يوم عاشوراء وكان من غرق أصحابه أكثر ممن قتل وبعث الأشتر برأس ابن زياد مع رؤوس أصحابه إلى المختار فألقيت فى موضع رأس الحسين وأصحابه ونصب رأس ابن زياد فى المكان الذى نصب فيه رأس الحسين ثم ألقاها فى اليوم الثانى فى الرحبة وروى الترمذى عن عقبة عن عمارة بن عمير قال لما جيء برؤوس عُبيد الله بن زياد وأصحابه نصبت فى المسجد فانتبهت والناس يقولون قد جاء فإذا حية قد جاءت تخلل الرؤوس حتى دخلت فى منخر عُبيد الله ابن زياد ثم مكثت هنيهة ثم خرجت فذهبت حتى تغيبت ثم قالوا: قد جاءت ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثا وروى الحافظ محمد بن إسحاق بن منده عن عبد الملك بن عمير قال: لقد رأيت فى هذا القصر عجبًا، يعنى قصر الإمارة بالكوفة، دخلت على عُبيد الله بن زياد على سرير والناس عنده سماطان وعلى يمينه ترس عليه رأس الحسين ثم دخلت على المختار فى ذلك السرير والناس عنده سماطان وعلى يمينه ترس عليه رأس عُبيد الله بن زياد ثم دخلت على مصعب بن الزبير فى ذلك الموضع على ذلك السرير والناس عنده سماطان وعلى يمينه ترس ثم دخلت على عبد الملك بن مروان فى ذلك الموضع على ذلك السرير والناس عنده سماطان وعلى يمنيه ترس عليه رأس مصعب. هذا بعض ما حصل لهم فى الدنيا وأما ما يحصل فى الآخرة من أليم عذابه وعظيم عقابه ما لا يحويه ولا يحصيه، فقد قال سليمان بن يسار بعد أن وجد حجراً مكتوب عليه:

---

(١) الأشتر ينسب إلى قبيلة النخع من إياد العدنانية.

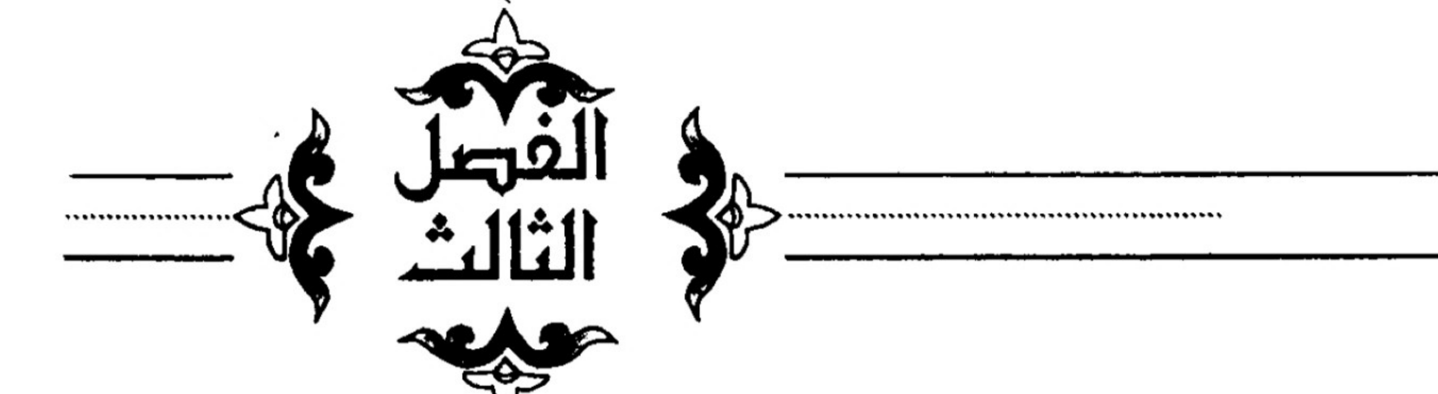
لابد أن ترد القيامة فاطم وقميصها بدم الحسين مُلَطّخ

ويل لمن شفعاؤه خصماؤه والصور في يوم القيامة ينفخ

قال السمهودى: وهو شاهد لما أخرجه ابن الأخضر فى العترة الطاهرة من حديث علي الرضى عن أبيه موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه علي زين العابدين عن أبيه علي بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ تحشر ابنتى فاطمة يوم القيامة ومعها ثياب مصبوغة بدم فتتعلق بقائمة من قوائم العرش فتقول يا عدل احكم بينى وبين قاتل ولدى فيحكم لابنتى ورب الكعبة. وعن محمد بن سيرين قال وجد حجر قبل مبعث رسول ﷺ بثلاثمائة سنة مكتوب عليه بالسريانية فنقلوه للعربية فإذا هو :

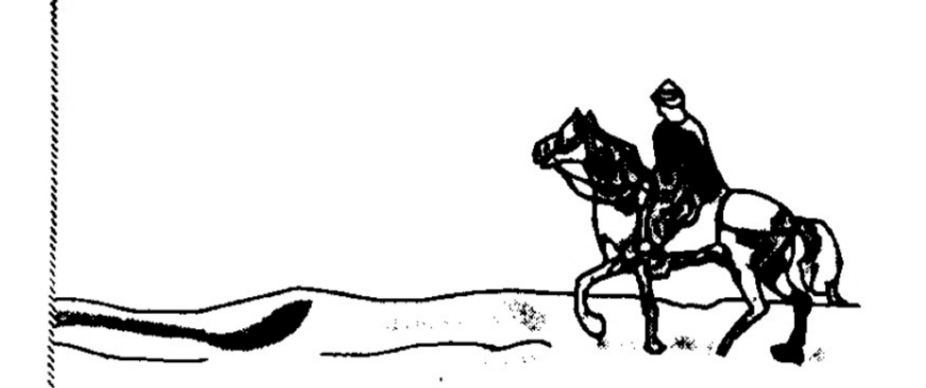
أترجو أمة قتلت حسينا شفاعة جده يوم الحساب

واخرج ابن الجراح من طريق أبى لهيعة عن أبى قتيل قال: لما قتل الحسين بعث برأسه إلى يزيد فنزلوا أول مرحلة فخرجت عليهم من الحائط يد معها قلم حديد فكتبت سطرًا (اترجو أمة قتلت حسينًا . . . إلخ) البيت المتقدم فهربوا وتركوا الرأس.



الفصل الثالث

فى نشاة نجله البدر المنير



الفصل الثالث

فى نشأة نجله البدر المنير

وتربيته بأتم أدب وأوفى توقير وقيام وزرائه به من بعده إلى استكمال قيامه بأعباء الخلافة وبيعته واستكمال متابعة أبيه فى علومه وتعرفاته وسننه ففى المطرب الأنيس قال محمد بن عبد الملك الوراق فى كتابه المقياس والبكرى والبرنسى وغيرهم ممن اعتنى بتاريخ الأدارسة: أن الإمام إدريس بن عبد الله لما توفى لم يترك ولدًا مولودًا إلا أنه ترك جارية من البربر اسمها كنيزة حاملاً منه فى الشهر السابع من حملها فجمع راشد رؤساء القبائل ووجوه الناس بعد فراغه من دفن مولانا إدريس فأخبرهم إن إدريس لم يترك ولدًا إلا حملاً بجاريته كنيزة وهى فى الشهر السابع من حملها وقال لهم فإن رأيتم أن تصبروا حتى تضع حملها فإن كان ذكرًا ربيناه فإذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه تبركًا بأهل البيت وذرية رسول الله ﷺ وإن كان جارية نظرتم لأنفسكم مَنْ ترضونه لذلك قالوا: أيها الشيخ المبارك؛ ما لنا رأى إلا ما رأيت فإنك عندنا عوض عن إدريس تقوم بأمرنا كما كان مولانا إدريس وتصلى بنا وتحكم بيننا بما يقتضيه الكتاب والسنة حتى تضع الجارية فإن وضعت غلامًا ربيناه وإن وضعت جارية نظرنا فى أمرنا على أنك أحق الناس به لفضلك ودينك وعلمك فشكرهم راشد على ذلك ودعا لهم وانصرفوا فقام بأمر البربر حتى تمت للجارية أشهر حملها فوضعت غلامًا أشبه الناس بوالده إدريس فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر حتى نظروا إليه فقالوا: هذا إدريس بعينه كأنه لم يمت فسماه إدريس باسم أبيه وقام بأمره وأمر البرابرة وكفله حتى فطم وشب وأدبه أحسن أدب وأقرأه القرآن فحفظه وله من السنين ثمانية أعوام كما يأتى قلت: فى هذا دليل على نصح راشد رضى الله عنه للأمة ولذرية مولانا رسول الله ﷺ فى أمته فجزاه الله أحسن الجزاء. وولد إدريس رضى الله عنه فى يوم الأثنين من شهر رجب الفرد الحرام سبعة وسبعين ومائة وكانت صفته الخلقية صفة والده رضى الله عنه كأنه هو: قال فى الأنيس:

كانت صفة إدريس بن إدريس كصفة أبيه، كان أبيض اللون مشربًا بحمرة تام القد جميل أقنى الأنف مليح العينين واسع المنكبين شثن الكفين أفلج أبلج

أدعج فصيحًا بليغًا أديبًا عالمًا بكتاب الله قائمًا بحدوده راويًا للحديث عارفًا بالفقه والسنة والحلال والحرام وفصل الأحكام ورعًا تقيًا جوادًا كريمًا حازمًا بطلاً شجاعًا شهمًا مقدامًا له عقل راجح وذهن راشح وإقدام فى مهمات الأمور (البياض المشرب بحمرة هو الذى مارجته الحمرة وهو لون جده ﷺ كما سبق والدعج شدة سواد العين مع سعتها والقنا ارتفاع قصبة الأنف من أحديداب فى وسطه والقد القامة والبهجة الحسن والاستواء الاعتدال والبلج عرف ما بين الحاجبين من الشعر والفلج فى الأسنان انفراج ما بين الثنايا وهو من أوصاف الملاحة وأسباب الفصاحة والمحيا الوجه والصولة القوة والتمكن والاعتلاء والظهور).

ومن شجاعته رضى الله عنه ما ذكر فى روض القرطاس قال داود بن القاسم ابن عبد الله بن جعفر الأوربى: شهدت إدريس بن إدريس رضى الله عنه فى بعض غزواته للخوارج الصفرية من البربر فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا فلما تقارب الجمعان نزل مولانا إدريس فتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله تعالى ثم ركب فرسه وتقدم للقتال فقاتلناهم قتالاً شديدًا فكان إدريس يضرب فى الجانب مرة ثم يكر إلى الجانب الثانى فلم يزل كذلك حتى أرتفع النهار فرجع إلى رايته ووقف بإزائها والناس يقاتلون بين يديه فطفقت أنظر له وأديم الإلتفات إليه وهو تحت ظلال البنود يحرض الناس ويشجعهم فاعجبنى ما رأيت من شجاعته ورباطة جاشه فالتفت إليّ وقال يا داود: مالى أراك تديم النظر إلي فقلت: أيها الإمام أعجبنى منك خصال ما رأيتها لغيرك قال ما هى يا داود؟ قلت: أولها ما رأيت من حسنك وجمالك وثبات قلبك وطلاقة وجهك وما خصصت به من البشر عند لقاء عدوك قال: ذلك بركة جدنا ﷺ ودعائه لنا وصلاته علينا وراثة عن أبينا علي بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قلت: وأراك تبصق بصاقًا مجتمعا وأنا أطلب قليل الريق فى فمى فلا أجده، قال: يا داود ذلك لاجتماع عقلى وقوة جاشى عند الحرب وعدم ريقك من طيش لبك وافتراق عقلك ولما خامرك من الرعب، قال داود: فقلت: أيها الأمير وأنا أيضا أتعجب من كثرة تقلبك فى سرجك وقلة قرارك فى منامك قال: ذلك ظنى (كذا) عزم إلى القتال وعزم صداقة وهو أحسن فى الحرب ثم أنشأ يقول:

أليس أبونا هاشم شد أزره بنيه بالطعان وبالضرب

فلسنا نمل الحرب حتى تملنا ولا نشتكى مما يؤول إلى النصب

فتعجب الناظر إليه رضى الله عنه من طلاقته وبشره وعدم تغير حسنه وتأثر جماله عند محاربة أعدائه وقتالهم قبل ظهور إمارات الفتح وبشائر الظفر، وإنه لخليق بالتعجب فإن ذلك من المواطن التى تنقبض فيها النفوس وتشمئز منها القلوب وتضيق بها الصدور وتبدّل الأخلاق لا سيما رئيس القوم وكبير الجيش الذى عليه المدار وإليه الملجأ والفرار ومن ثم أجاب رضى الله عنه بأن ذلك ليس من طرق البشر ومما يتعارفه الناس أهل القوى والقدر وما أجاب فى مسألة الريق هو عين الحق فقد قال السهيلى فى الروض: قلة الريق من الحصر وهو ضيق الصدر وكثرته من قوة النفس وثبات الجأش، قال العلاّمة ابن زكريا فى شرح همزيته ما نصه: ولما تمهر مولانا إدريس فى العلوم وبلغ إحدى عشرة سنة وبلغ فى هذا السن مبلغ الرجال تأهل بذلك للخلافة واستوفى الشروط قال البكرى والبرنس وغيرهما: لما كمل لإدريس من العمر إحدى عشرة سنة ظهر من ذكائه ونبله وعقله وفصاحته ما أذهل عقول الخاصة والعامة فأخذ له راشد البيعة على سائر البربر ثم لما توفى راشد باشر إدريس القضاء والفصل بين الناس بنفسه وقام بأمور باقى الأحكام والشرائع حتى قدم إليه عامر بن سعيد القيسى فاستقضاه كما يأتى وكان لما بويع قام بإشراط البيعة وصعد المنبر وخطب فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأتوكل عليه، وأعوذ به من شر نفسى ومن شر كل ذى شر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، المبعوث إلى الثقلين بشيراً ونذيراً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ﷺ وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، أيها الناس أنا الذى قد وليت هذا الأمر، الذى يضاعف للمحسنين فيه الأجر، وللمسيئين الوزر ونحن والحمد لله على قصد جميل فلا تمد الأعناق إلى غيرنا، فإن الذى تطلبونه من الحق إنما تجدونه عندنا.

فمن تأمل هذه الخطبة وأعطاها حقها من النظر ظهر له من فصاحة الإمام إدريس وبلاغته ومعرفته بطرق الوعد والوعيد وقصده النصح للأمة وذكر الأمر والنهى وإيثاره رضى الله على هوى النفس ما يبهر العقول ويحير ألباب الفحول

هذا كله وهو ابن إحدى عشرة سنة وأشار بقوله ولينا إلى أنه لا رغبة له فى ذلك ولا شره منه إليه وأشار بقوله الذى يضاعف.. إلخ إلى ما ورد فى الأحاديث من ثواب أئمة العدل ومضاعفة أجورهم لما يقولون به من حفظ الأمة وكف شر الفتنة عنهم وإعانتهم على المصالح الدينية والدنيوية ومن وزر أهل الجور ومضاعفة العقوبة لهم لما يترتب على جورهم من المفاسد الدينية والدنيوية فى حق الخاصة والعامة والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة وأشار بقوله ونحن ... إلخ إلى تطييب نفوس المؤمنين وإدخال السرور عليهم بتعريفهم بقصده وطويته أنه لم يضمر لهم إلا الخير ولم يسع لهم إلا فى الصلاح ثم عن التشوق إلى الغير لئلا تفترق كلمتهم ويختل أمرهم وليكونوا من المؤثرين لذرية مولانا رسول الله ﷺ فيستحقون رضاه ووجه رجحان التمسك بهم والاهتداء بهديهم بقوله فإن الذى تطلبونه من الحق.. إلخ، قال ذلك لما علمه من نفسه من التصميم على المبالغة فى النصح للخلق والعزم على بذل السعى لهم فى المصالح مع ما عنده من العلم بذلك وقد سبقه إلى مثل هذه المقالة والده فإنه لما بويع بالمغرب خطب الناس وقد قال: أيها الناس لا تمد الأعناق إلى غيرنا فإن الذى تجدون من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا ثم قال:ذكر غير واحد أن راشداً لم يمت حتى أخذ البيعة للإمام مولانا إدريس بالمغرب وأن الإمام مولانا إدريس لما كمل له من العمر إحدى عشرة سنة ظهر من ذكائه ونبله وقوة جأشه وثبات جنانه-على صغر سنه-فتسارع الناس إلى بيعته وازدحموا عليه يقبلون يده فبايعه كافة قبائل أهل المغرب فاتصل خبره بإبراهيم بن الأغلب عامل إفريقية فحاول قتل راشد وذلك سنة ثمان وثمانين ومائة بعد الهجرة فقام بأمر إدريس بعده أبو خالد بن يزيد بن إلياس العبدى فأخذ له البيعة على جميع قبائل البربر بعد قتل راشد بعشرين يومًا وسار رضى الله عنه بسيرة سلفه الصالح بنشر العدل وإظهار الحق والتزام الاستبانة وأقامة السنة ونصر الشريعة والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين وأعلى منار الدين وشهر شرائع الإسلام فاستقام أمره وتمهد له المُلك وعظم سلطانه وقويت جنوده وأتباعه ووفدت عليه الوفود من البلدان وقصده الناس من كل ناحية ومكان فأقام بقية سنة ثمان وثمانين التى بويع فيها يعطى الأموال ويصل الوفود ويستميل الرؤساء والأشياخ وفى سنة تسع وثمانين ومائة وفد عليه وفود العرب من إفريقية وبلاد الأندلس فى نحو

خمسمائة فارس ففرح بوفادتهم وأجزل صلاتهم ورفع منازلهم واستوزر منهم عمير بن مصعب الأزدى وكان من فرسان العرب وساداتها، ولمصعب آثار عظيمة فى الأندلس ومشاهد فى غزو الروم كثيرة، واستقضى منهم عامر بن سعيد بن محمد القيسى وكان رجلاً صالحًا ورعًا سمع مالكا وسفيان الثورى وروى عنهما كثيراً ثم خرج إلى الأندلس برسم الجهاد ثم جاز إلى العدوة فوفد منها على إدريس فيمن وفد عليه من العرب ولم تزل الوفود ترد عليه من العرب والبربر من جميع الآفاق. وفى سنة إثنين وتسعين ومائة وفد عليه جماعة من الفُرس من شرق العراق فأنزلهم بناحية عين علون وكانت إذ ذاك ماء وكلخ وبسباس وأشجار برية وكان بها عبد أسود يقطع الطريق هنالك قبل بناء مدينة فاس وكان الناس يتحاشونها ولا يمرون بها ولا يسلكونها من أجل المذكور والتفاف الأشجار وهدير المياه والأنهار وكثرة الوحوش المؤذية فكان الرعاة يتحاشونها بمواشيهم ولا يسلكها إلا الجماعة من الناس فعرف الإمام إدريس بخبر علون حين شرع فى بناء عدوة الأندلس فأمر بالقبض عليه فخرجت الخيل فى طلبه فقبض عليه فأتى به إليه فأمر بقتله وصلبه على شجرة هنالك كانت على رأس العين، وكان رضى الله عنه ملازمًا للحق فى تصرفاته جاريًا على قانون الشريعة فى أحكامه لا يعدل عن الحق ولا ينحرف عن السنة فَألفَ الناسُ منه ذلك حتى عمهم الهناء وأمنوا الجور فكان يأخذ الجزية وزكاة الأموالَ على منهاج الحق ثم يصرف ذلك إلى مستحقيه وكانت تأتيه الغنائم فى غزوات أصحابه فيقسم الأربعة أخماس على المجاهدين ويصرف الخمس فى مصارفة. وفى عام سبع وتسعين ومائة خرج إلى بلد نفيس وبلد المصامدة فوصل إليهما فدخل مدينة نفيس ومدينة اغمات وفتح بلاد سائر المصامدة وأسلم على يديه خلق كثير كانت بقيت بعد أبيه اخترمته المنية قبل أن يصل إليها وحصلت له منها غنائم كثيرة ففرقها ولم يبق منها قليلاً ولا كثيراً إلا قدر الكفاف لأهله وقد تقدم قوله أن الذى تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا.

(تنبيه)

تقدم أن قاضيه كان ممن قرأ على مالك بن أنس وسفيان الثورى فالظاهر أنه كان على مذهب أحدهما ويحتمل أنه كان على مذهب الأوزاعى لقول القاضى عياض فى المدارك أن أهل المغرب والأندلس كانوا قبل أن يصل إليهم مذهب مالك على مذهب الأوزاعى ورأى الكفيين فلما أتى أصحاب مالك بمذهبه رفع ذلك من

المغرب ويحتمل أنه كان مجتهداً مستقلاً لم يتقيد بمذهب أحدهما وكان كذلك جماعة من الأكابر ثم بعد ذلك وقع التقيد بالمذاهب.

ثم إنه رضى الله عنه بعد أن غزا ما لم يصله أبوه من بلدان المغرب وعمرانه وأسلم بدعوته من بقى من أهل الشرك بالمغرب ولم يبق إلا من رضى بذمته المسلمين وآداء الجزية لهم نشر العلوم وأوضح الحق ببيان الشريعة والحقيقة ومهد الجمع بينهما حتى عزمت أصول الدين وفروعه وتبين كلام الإيمان على ما هو عليه فثبت الدين فى المغرب وتقرر وصارت شجرته فيه أصلها ثابت وفرعها فى السماء فعم ببركته أهل المغرب بعد أن جهلوا وعملوا بعد ما ضيعوا وأقبلوا بعد ما أعرضوا واتصلوا بعد ما انفصلوا وقربوا بعد ما انقطعوا واستأنسوا بعد ما استوحشوا وعزوا بعد ما ذلوا وغلوا بعد ما رخصوا وعلوا بعد ما سفلوا فسبحان من أحيا به وأبيه بعد الموت وتداركهم ببركاتهما قبل الفوت.

ولما تمهد ملك مولانا إدريس بن إدريس جدد من معالم الدين ما بلى وأظهر ما خفى وأحضر ما غاب وغير وأحيا ما درس واندثر فكان رضى الله عنه بشارة جده ﷺ فى ما معناه لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله أو إلى قيام الساعة وهم بالمغرب أو المغرب على اختلاف رواياته كما سيأتى ولا ظهر حصول هذه المزية العظمى إلا بعد وروده رضى الله عنه أرض المغرب ومن يوم سطع نوره بالمغرب لا يزيد الدين إلا ظهوراً واتضاحًا فصار بحلوله شمسًا مشرقة وغرب منه به سائر غياهب الجهل والضلالات لشروق الدين والعبادات، قال العلامة ابن زكريا فى شرح قوله من همزيته:

زال عن مغربنا غروبه لما   أشرقت فيه منكم الأضواء

ما نصه: إنما سمى الغرب غربًا ومغربًا لأن الشمس تغرب فى ناحيته وجهته كما قال سيدنا كعب الأحبار رضى الله عنه مخبراً بذلك ابن عباس لما سأله عن مغرب الشمس قال: أجدها تغرب فى ماء وطين بالمغرب وسمى الشرق شرقًا ومشرقًا لأن الشمس تشرق من ناحيته وجهته ولذا قال الشاعر:

ففى الشرق من أجل الشروق مسرة   وفى الغرب من أجل الغروب كروب

ولما كان المغرب في زمن سيدنا رسول الله ﷺ وزمن الخلفاء الراشدين مملوءًا كفرًا ومعمورًا جهلاً لم يدخله الإيمان ولم يبلغ الفتح كان كأنه قد غرب وفقد واضمحل بالغروب المعنوى الذى هو غيبة شمس الإيمان والمعرفة وهو أقوى من الحس فلما منَّ الله على أهله بقدوم مولانا إدريس رضى الله عنه ونفعنا به ففتحه ودعا أهله إلى الله وهداهم الله على يديه وببركته زال عنه ذلك الغروب والفقر فأحياه الله بالإيمان وفتح بصائر أهله وأشرق فيهم شموس المعارف والعلوم كما سيأتى فتبدل غروبه بالشروق وخفاؤه بالظهور وبين الغرب والغروب التجنيس الناقص وبين الغروب والإشراق الطباق ثم قال:

لا غرابة أن هذا الغرب شرقا [١] لشموس المعانى فيه ضياء

ولما قدم مولانا إدريس رضى الله عنه المغرب ودعا أهله إلى الله وأرشدهم إلى دينه فاستجابوا له وحبب الله لهم الإيمان على يده خرجت ظلمة الكفر وأشرق فيه نور الإيمان وتجلت شموس المعرفة فصار الغرب شرقا لشروق شمس المعانى بطلوعها فيه وعم شعاعها ولا غرابة فى ذلك وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فكم من موضع عبد الله فيه بعد الإشراك وكم محل رحم الله أهله بعد الغضب وقربهم بعد البعد ورضى الله عنهم بعد السخط وفرج عنهم بعد الشدة ووصلهم بعد القطع وبين غرابة التجنيس الناقص وبين غرب وشرق الطباق ثم قال أيضًا:

وفشا الحق فيه بعد اغتراب ولأهليه فيه كان البقاء

إشارة لما ذكر الشيخ زروق فى شرح الرسالة بالتعريف بالإمام مالك رضى الله عنه حيث قال: ويكفى فى أرجحيته كونه إمام دار الهجرة فى خير القرون ومتبوع أهل المغرب الذين لا يزالون ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة كما صح فى الحديث وإن اختلفت روايته وأخرج الحاكم عن عبد الله بن عمر بإسناد صحيح

(١) كذا فى الأصل، وهو غير مستقيم، ولعل الصواب: «ليس بدعا أن عاد ذا الغرب شرقًا» إلا أن قول غرابة وغرب وما فيها من التجنيس يدل على أن أصل البيت كما هو هنا، فتأمل.

أن رسـول الله ﷺ قال: لا تزال طائفـة من أمتى ظـاهرين على الحق حتى تقـوم الساعة، قال المناوى زاد فى رواية من أهل المغرب، وما ذكر الشيخ زروق ظاهر من لفظ الحـديث وقال صـاحب المشارق فى قـوله: لا يزال أهل المغرب بعـين الرواية التى ذكرت في بعض طرق مسلم ذكر يعقـوب بن شيبة عن يحيى بن المدينى قال: المراد بالغـرب الدلو وعنا الغرب لأنهم أصـحابها لا يسـتقى بهـا أحد غـيرهم وفى حديث معاذ وهم أهل الشام والغرب المكان والشام غربى الحجاز وقال: المراد أهل الحدة قال أهل اللغـة يقال فى لسان فلان حدة، وزاد فى حديث أبى إمـامة قال يا رسول الله وأين هم؟ قـال بيت المقدس قال: ويمكن الجمع بين الأخـبار بأن المراد قوم بيت المقـدس وهى شامية ويستـقون بالدلو وتكون لهم حدة فى قـتال العدو. انتهى كلام ابن حـجر. وعلى حمل الشيخ زروق رضى الله عنه ونقله غـير واحد وأقره فـهما طائـفتان الطائفـة التى فى الشام هم الذين يقـتلون الدجال مع سـيدنا عيسى عليه السـلام وإليه الإشارة بما فى الحديث الأخير والذى نفـسى بيده ليجدن ابن مريم فى أمتى - الحديث - والله تعـالى أعلم. وهذه الطائفة الجليلة نفعنا الله بهم فى صحيفـة سيدنا إدريس رضى الله عنه إذ سببه وصل الإيمـان واليقين وبين الضمير المجرور يعنى باعتبار معاده واغترابه التجنيس الناقص ثم قال أيضًا:

أخصب الدين فيـه من بعد جدب إذ غـــدا له من ذاك ارتواء

وتمكن مـنه حـتـى انتـفـى أهل الابتـــداع ومـــاتت الأهواء

ذكـر أهل العلم من فـضائل المغـرب أن الله حـماه من فـرق أهل المبـتدعـة كالمعتزلة والرافضة والجبرية وغـيرهم وقد كان أهل المغرب على أديان مختلفة وآراء فاسدة فلما كانت ولاية يزيد بن معاوية ولى عُقبة بن نافع الفهرى على بلاد المغرب فى سنة اثنين وستين من الهجـرة وقد مضت من ولايته سنتان فاستفـتح عُقبة إلى أن بلغ البـحر الأعظم فى بـلاد ماسـة وأدخل فيـه قوائـم فرسـه ثم جعل يقـول وعليكم السلام فقال له أصحابه على مَنْ تسلم يا ولى الله؟ قال إن قوم يونس عليه السلام سلمـوا علي وسلمت عليهم ولولا الـبحر لأريتكم إياهم فـأسلم على يديه بعض من المغـرب وحين رجع منه ارتد بعض من أسلـم. ثم لـما ولى الوليـد بن عبد الملك بـن مروان ولى موسى بن نصير علـى المغرب سنة اثنين وسبعـين فسار

حتى بلغ طنجة وسبتة وجاز فيه بر الأندلس وافتتحه مع مولاه طارق بن زياد وأسلم على يديه بعض أهل المغرب وحين رجع عنه ارتد أيضًا بعض من أسلم.

قال الشيخ ابن أبى زياد ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتى عشرة مرة ولم تستقر كلمة الإسلام إلا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده، أى مدة مولانا إدريس.

وقال ابن خلدون فى العبر: ارتد أهل المغرب مرات إلى أن طهرهم من ذلك موسى بن نصير ومولانا إدريس من بعده، وفى بعض التواريخ أهل المغرب ارتدوا اثنتى عشرة مرة إلى أن فتح الله عليهم بقدوم إدريس فمن بركته تقرر إسلامهم وزاد خيرهم وغاض شرهم. وكان عُقبة بن نافع ولى أمر المغرب قبل ولاية يزيد قال فى الاستيعاب: عُقبة بن نافع ولد على عهد مولانا رسول الله ﷺ لا تصح له صحبه كان ابن خالة عمرو بن العاص وولاه عمرو إفريقية وهو على مصر فانتهى إلى لواته ومزاته فطاعوا ثم كفروا فغزاهم من سبتة فقتل وسبا وذلك سنة إحدى وأربعين وافتتح فى سنة اثنين وأربعين غدامس(*) فقتل وسبا وافتتح سنة ثلاث وأربعين كورة من كور السودان وافتتح ودان وهى من حيز برقة من بلاد إفريقية وافتتح عامة البرابر وهو الذى اختط القيروان فنهض إليه عُقبة فلم يعجبه فركب بالناس إلى موضع القيروان اليوم وكان واديًا كثير الأشجار غيضة مأوى الوحوش والحيات فأمر بقطع ذلك وإحراقه واختط القيروان وأقام بها ثلاث سنين، وروى أنه لما وقف على القيروان قال: أنا[1] إن شاء الله فاظعنوا ثلاثا. قال الراوى: فما رأينا حجرًا ولا شجرًا إلا يخرج من تحته حية حتى هبطوا بطن الوادى ثم قال: انزلوا بسم الله وقُتل عُقبة بن نافع سنة ثلاث وستين بعد أن غزا السوس الأقصى قتله كُسيْلة بن محرم الأوربى وكان نصرانيا ثم قُتل كُسلية فى ذلك العام قتله قيس ابن زهير البلوي ويقولون إن عُقبة بن نافع كان مستجاب الدعوة والله أعلم، وهذا ما يتعلق بعُقبة بن نافع القرشى.

(*) غدامس: بلدة (واحة) صحراوية ليبية فى الحدود التونسية الجزائرية.

(١) بياض فى الأصل للمرجع.

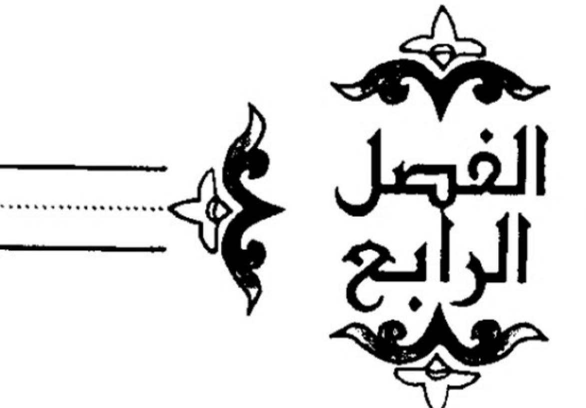


وأما عن موسى بن نصير فهو الإمام الكبير فاتح الأندلس قال الإمام ابن إسحاق فى كتابه مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق قال: كان موسى بن نصير مهابًا ذا رأى وحزم وشجاعة قال: له سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين ما كنت تفزع إليه عند الحرب؟ قال: الدعاء والصبر قال: فأى الخيل رأيت أصبر؟ قال الشقر قال: أخبرنا عن الروم؟ قال: هم أسد فى حصونهم نساء فى مراكبهم إن رأوا فرصة انتهزوها فإن رأوا غلبة فأوعال تذهب فى الجبال. قال: كيف قتالك للعدو؟ قال: ما هزمت لى راية قط ولا رُد لى جمع ولا نُكب المسلمون منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين. ولما فتح الأندلس جرت لديها عجائب وأمور طويلة وانتهى إلى آخر حصن من حصون الأندلس فاجتمع الروم لحربه فكانت بينهم وقعة مهولة وطال القتال وجال المسلمون جولة بالمدينة فأمر موسى بن نصير بسرادقه فكشف عن بناته وحرمه حتى يروه ويبرزن بين الصفوف حتى يراهن الناس ثم رفع يديه بالتضرع والبكاء فأطال فكسرت بين يديه أغماد السيوف وصدقوا اللقاء ففتح عليهم ثم قدموا إلى مصر فى سنة خمس وتسعين وتوجه إلى الوليد بن عبد الملك بما معه من السبى والغنائم، وقال الليث بن سعد: أن موسى ابن نصير بعث ابنه مروان على جيش فأصاب من السبى مائة الف آخرا ولما افتتح الأندلس جاءه رجل فقال: ابعث معى رجلا أدلك على كنز فبعث معه رجالاً فقال: لهم انزعوا ما هاهنا فنزعوا فسال عليهم من الياقوت والزبرجد ما سال قال الليث بن سعد: إن كانت الطنفسة لتوجد منسوجة بقضبان الذهب بنظم سلسلة الذهب باللؤلؤ والياقوت فكان الرجلان ربما وجداها فلا يستطيعان حملها حتى يأتيا بالفارس فيقسماها. ولما فتح الأندلس رجع إلى إفريقية وله نيف وستون سنة وهو يجر الدنيا بين يديه جرًا أمر بالعجول وقال: الذهب والجواهر والتيجان والثياب الفاخرة وفى ذلك مائدة سليمان قوّمت بمائة الف دينار. وذكر الطرطوشى فى سراج الملوك والقرطبى فى تاريخه أن طارقا مولى موسى بن نصير دخل إلى الأندلس فى اثنى عشر الف فارس وكان هناك تادرس نائبًا عن لُدريق فقاتلهم ثلاثة أيام ثم كتب إلى لُدريق إن قومًا وصلوا إلينا ما أعلم من الأرض هم أم من السماء وقد قاتلناهم ولا طاقة لنا بهم، فأدركنا بنفسك فأتاه لُدريق فى تسعين الف فارس

فقاتلهم ثلاثة أيام واشتد بالمسلمين البلاء فقال لهم طارق: إنه لا ملجأ لكم غير سيوفكم أين تذهبون وأنتم فى وسط بلادهم والبحر من ورائكم محيط وأنا فاعل بكم شيئًا إما النصر وإما الموت فقالوا: ما هو؟ قال اقصدوا طاغيتهم فإذا حملت فاحملوا بأجمعكم ففعلوا ذلك فقتل لُدريق وجمع كثير من أصحابه وهزمهم الله وتبعهم المسلمون ثلاثة أيام يقتلونهم قتلاً ذريعًا ولم يُقتل من المسلمين إلا نفر يسير وبُعث برأس لُدريق إلى موسى بن نصير بإفريقية فبعث به موسى إلى الوليد بن عبد الملك بدمشق ثم سار طارق إلى طليطلة ومغيث الرومى مولى الوليد إلى قرطبة ففتحوها ووجدوا ذخائر وأموالاً لا تحصى منها مائدة سليمان عليه السلام قومت بمائة ألف دينار لكثرة ما عليها من الجواهر ومن هنا يظهر أن قول الشيخ موسى الزياتى: افتتح صحابى وتابعيان عُقبة بن نافع وموسى بن نصير والإمام إدريس لكن لم يستقر إسلام أهل المغرب إلا من إدريس. فيه نظر فإن عُقبة صحابى وكذا فى عدة سيدنا ومولانا إدريس تابعيًا فإنه من تابع التابعين كما عند غيره وتقدم أن أباه كان من صغار التابعين وروى عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رحمه الله تعالى أنه كانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحدًا وقرى متصلة عامرة فخربت، وقال الإمام العلامة التوزرى: سمعت من يقول: أنه كان إفريقية من القديم مائة ألف حصن بين قصر ومدينة وإن ملكها كان إذا أراد الغزو بعث إلى كل حصن فيأتيه منه فارس ودينار فجمع له مائة ألف فارس ومائة ألف دينار لا ينقص من بلاد شئ ثم قال من تأمل آثار المدن والقصور الخربة بإفريقية وتدانى بعضها من بعض رأى ذلك ما يقضى منه العجب ويستدل منه على كثرة عمارتها فيما سلف.

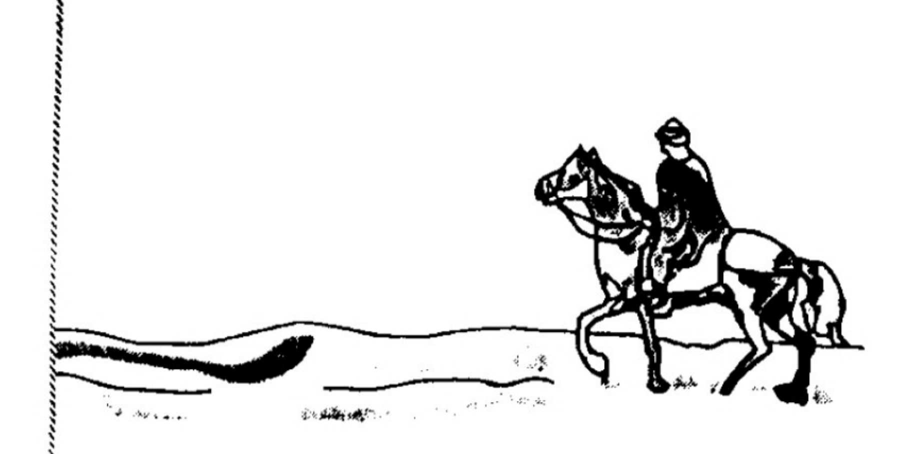
وفى المعيار سئل القاضى عن العاقلة الذين يؤدون فأجاب هم العصبة ومن يقرب منها الأقرب فالأقرب إلى أن قال: وما ذكر أيكون فى أهل الكورة الواحدة وإفريقية كورة واحدة من طرابلس إلى طنجة وفى تكميل التقييد قال سحنون: فى إفريقية يضم عقل أهل إفريقية بعضهم إلى بعض من طرابلس إلى طنجة، قال وفى بعض نسخ اللخمى: طنجة مكان طنبة وفى المدونة ومن غاب عن البكر غيبة

انقطاع كمن خرج إلى المغازى إلى مثل إفريقية والأندلس وطنجة قال عليه فى تكميل التقييد: طنجة كانت قاعدة المغرب الأقصى فى زمن مالك وابن القاسم فقيل إنها طنجة المعروفة اليوم بهذا الاسم وقيل إنها مدينة وليلى التى تعرف اليوم بقصر فرعون عند جبل زرهون انتهى. والجدب بالدال المهملة ضد الخصب بكسر الخاء المعجمة بينهما الطباق والمعنى أنه لما قدم المغرب سيدنا إدريس رضى الله عنه استقام الدين فيه ببركته واخصب أى قوى ظهوره فما زال يدعو أهله إلى الله تعالى حتى تمكن غاية التمكن وثبت كل الثبوت وأمات طرق الابتداع والضلال والحمد لله على ذلك.




الفصل الرابع

في بناء مدينة فاس والسبب الحامل على بنائها



الفصل الرابع

في بناء مدينة فاس والسبب الحامل على بنائها

وذلك أنه لما تمهد مُلك مولانا إدريس وكثرت عليه الوفود وعظمت جنوده وقوى جيشه وضاقت بهم مدينة وليلى عزم على الانتقال عنها وأراد أن يبنى مدينة يسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته فركب فى خاصته وخرج يتخير البقاع فى سنة تسعين ومائة فوصل إلى جبل زالغ فأعجبه ارتفاعه وطيب تربته واعتدال هوائه وكثرة محارثه فاختط مدينة بسنده مما يلى الجرف وشرع فى بنائها فبنى جزءاً من سورها فأتى سيل من أعلى الجبل فهدم ما كان بناه من السور المذكور وحمل ما كان حوله من خيام العرب وأفسد كثيراً من الزرع فلما رأى ذلك مولانا إدريس رفع يده من البناء وأقام إلى أن دخل شهر المحرم مفتتح إحدى وتسعين ومائة ثم خرج ينظر أيضًا فيها فوصل إلى وادى سبوا فأعجبه موضعه فعزم على البناء هناك ثم نظر إلى كثرة الماء الذى فيه فخاف على الناس منه فرجع إلى وليلى وبعث وزيره عمير بن مُصعب الأزدى فنظر له موضعا فخرج وسار فى جهات شتى يختبر الأرض والمياه حتى وصل إلى فحص وأسائس فوجد فحصة الأرض واعتدالها وكثرة المياه فيها فأعجبه ذلك فنزل هنالك على عين غزيرة مطردة فى مروج فتوضأ منها ومن معه وصلى صلاة الظهر حولها ثم دعا الله أن يهون عليه مطلبه وأن يدله على موضع يرتضيه لعباده بما ركب وأمر قومه بأن ينتظروه عند تلك العين حتى يعود إليهم فنسبت العين إليه وسميت بعين عمير إلى الآن فرأى عيونًا كثيرة تزيد على ستين عنصراً ومياهها تطرد فى فسيح الأرض وحول العيون شجر من الطرفى والعرعار وغير ذلك فشرب من الماء واستطابه وقال هذا ماء عذب معتدل وهو أقل ضرراً وأكثر منفعة وحوله مزارع كثيرة ثم سار مع سيل الوادى حتى وصل إلى موضع مدينة فاس فنظر إلى ما بين الجبلين فإذا غيطة ملتفة الأشجار مطردة بالعيون والأنهار فى بعض مواضع منها خيام من شعر يسكنها قبائل من زناته يعرفون بزواغة وبنى يزغة فرجع عمير إلى إدريس فأخبره بجميع ذلك فأعجبه وسأل عن مالك الأرض فقيل له قوم من زواغة يعرفون ببنى الخير فقال مولانا إدريس: هذا فأل حسن فبعث إليهم واشترى منهم موضع المدينة بستة آلاف

درهم ودفع لهم الثمن وأشهد عليهم بذلك وشرع فى بناء المدينة وقيل غير. هذا وسيأتى وجه تسميتها بفاس.

قال فى الأنيس: لما أراد الشروع فى بنائها رفع يديه وقال: اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك وتقام بها حدودك واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها ثم أخذ المعول بيده فابتدأ يحفر الأساس فلم تزل منذ بنيت دار علم وفقه وسنة والجماعة بها قائمة قال: وقد نزلها كثير من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء وغيرهم فهى فى القديم دار فقه وعلم وحديث وعربية وفقهاؤها هم الذين يقتدى بهم جميع فقهاء المغرب لم يزل كذلك على مر الزمان ببركة بانيها مولانا إدريس رضى الله عنه وسكانها أحدُ أهل المغرب أذهانا وأشدهم فطنة وأرجحهم عقلاً وألينهم قلوبًا وأكثرهم صدقة وأعزهم نفوسًا وألطفهم شمائل وأقلهم خلافا على الملوك وأكثرهم طاعة لولاتهم وحكامهم وكيف تقلبت الأحوال بهم يسمون على سائر بلاد المغرب علمًا وفقها ودينًا.

وذكر ابن الأغلب فى تاريخه أن الإمام مولانا إدريس لما فرغ من بناء المدينة وحضرت الجمعة صعد المنبر وخطب الناس ثم رفع يديه فى آخر خطبته فقال: اللهم إنك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة وإنما أردت أن تُعبد بها ويتلى بها كتابك وتُقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك سيدنا محمد ﷺ ما أبقيت الدنيا، اللهم وفق سكانها وقطانها إلى الخير وأعنهم عليه واكفهم مؤنة أعدائهم وأدر عليهم الأرزاق وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق والنفاق إنك على كل شئ قدير فأمن الناس على دعائه فكثرت الخيرات وظهرت بها البركات فبلغ وسق القمح فى أيامهم درهمين ووسق الشعير درهما والقطنية لا تباع ولا تشترى والكبش بدرهم ونصف والبقرة بأربعة دراهم والعسل خمسة وعشرون رطلاً بدرهم واحد والفاكهة لا تُباع ولا تشترى لكثرتها دام ذلك بها خمسين سنة وتقدم أنه قال للناس من أنشأ موضعا وغرسه قبل تمام السور فهو له هبة ابتغاء وجه الله تعالى فبنى الناس الدور وغرسوا الثمار وكثرت العمارة والخطة فكان الرجل يختط موضع منزله وبستانه ثم يقطع منه الخشب فيبنى به ولا يحتاج إلى خشب غيره وغرس الناس جانب الوادى من

أصله الذى يخرج منه بفحص أسايس إلى مصبه بنهر سبوا بالشجر والكرم والزيتون وضروب الثمار فعمرت الأرض بالغراسة والحراثة وأينعت الثمار وأطعمت الكروم والأشجار من سنتها ببركة مولانا إدريس وسلفه الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين ورحمته وبركاته بنيته الصالحة وطيب المنزلة وعذوبة المياه واعتدال الهواء فظهرت البركات وتوالت الخيرات وزادت العمارة وقصدها الناس من جميع البلاد والجهات وأتاها من رغب فى جوار السلالة الكريمة الطاهرة أهل بيت المصطفى ﷺ انتهى. ومن فضائل هذه المدينة دخول ماء نهرها وعيونها لمنازلها ودورها فينتفع بذلك أهلها ثم يخرج بالفضلات والقاذورات فتبقى المدينة نقية طيبة الهواء والرائحة. قال فى الأنيس: ماء نهر مدينة فاس افضل أنهار الأرض وأعذبها واخفها يخرج من عيون من أعلاها فى بسيط من الأرض على الكرافس والسعداء من منبعه حتى ينحدر عن المدينة فى مروج خضراء لا تزال كذلك صيفا وشتاء حتى يدخل البلد وينقسم فى داخلها على جداول كثيرة ومن فضائل هذا النهر أنه يفتت الحصى ويذهب الصنان لمن اغتسل به ويلين البشرة ويسرع الهضم ويشرب على الريق فلا يضر وذلك لأجل جريانه على الكرافس والسعداء فهو فى نهاية الخفة والعذوبة، والسعداء من جنس الديس يعلو الأرض حول الذراعين فى أعلاه سنبلة وأصله مستطيل منعقد مشتبك بعضه ببعض يدب تحت الأرض أسود يميل إلى الحمرة طيب الرائحة طعمه كطعم عروق الزنجبيل، وبين محل ويحل التجنيس الناقص وبين أمر ويمر التجنيس المضارع وقد أنشد الفقيه الصالح الزاهد أبو الفضل بن النحوى فى مدح مدينة فاس وأوصافها ما نصه:

يا فاس منك جميع الحسن مسترق — والساكنون أهنيهم لقد رزقوا
هذا نسيمك أم راح لراحتنا — وماؤك السلسبيل الصافى أم ورق
أرض تخللها الأنهار داخلها — حتى المجالس والأسواق والطرق

قال فى الأنيس: وكان الفقيه أبو الفضل ابن النحوى هذا من أهل العلم والدين والورع والفضل والصلاح، ذكره صاحب الشفوف من أكابر رجال أهل المغرب، وأنشد الفقيه البارع الورع أبو عبد الله المغيسى فى وصف فاس متشوقا إليه حين ولى القضاء بمدينة أزمور:

يا فاس حيا الله أرضك من ثرى   وسقاك من صوب الغمام المسبل
يا جنة الدنيا التى أربت على   حمص لمنظرها البهى الأجمل
غرف على غرف ويجرى تحتها   ماء ألذ من الرحيق السلسل
وبساتر من سندس قد زخرفت   بجداول كالأيم أو كالفيصل
وبجامع القروى شرف ذكره   أنسى بذكراه بهيج يململ
وبصحنه زمن المصيف محاسن   فوق العشى الغرب منه استقبل
وأجلس إزاء الخصة آلحسنا بها   واكرع بها عينى فديتك وانهل

واحسن ما وجهت به تسميتها بفاس أن الإمام إدريس لما عزم على بنائها ووقف موضعها مر بها شيخ كبير راهب من رهبان النصارى قد زاد على مائة وخمسين سنة كان مترهبًا فى صومعة قريبة من تلك الجهة فوقف على مولانا إدريس وسلم عليه ثم قال: أيها الأمير ما تريد أن تصنع بين هذين الجبلين قال: أريد أن اختط مدينة هنا يعبد الله تعالى بها ويتلى بها كتابه وتقام بها حدوده قال: أيها الأمير إن لك عندى بشرى قال: وما هى أيها الراهب قال: إنه أخبرنى راهب كان قبلى فى هذا الدير له منذ توفى مائة سنة أنه وجد فى كتاب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينة تسمى سافا خربت منذ ألف سنة وأنه يجددها ويحيى آثارها ويقيم دارسها رجل من آل بيت النبوة يسمى إدريس ويكون له شأن عظيم وقدر جسيم لا يزال دين الإسلام قائما إلى يوم القيامة فقال مولانا إدريس: الحمد لله أنا إدريس وأنا من آل بيت رسول الله ﷺ وأنا بانيها إن شاء الله تعالى، فلما بناها قيل له كيف تسميها؟ قال: باسم المدينة التى كانت قبلها ساف ولكن أقلب اسمها الأول ونسميها بقلبه وسماها فاسًا وكان تأسيس سيدنا ومولانا إدريس رضى الله عنه لمدينة فاس على ما ذكره المؤرخون سنة اثنين وتسعين ومائة؛ وأسس عدوة الأندلس منها وأدار بها السور وبعدها بستة أسس عدوة القرويين وذلك فى غرة ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة ولما فرغ من بناء المدينة وانتقل إليها بمحلته واستوطنها واتخذها دار ملكه أقام بها إلى سنة سبع وتسعين ومائة فخرج إلى غزو نفيس وبلاد المصامدة ورجع إلى فاس فأقام بها إلى شهر المحرم من سنة تسع وتسعين ومائة

فخرج منها برسم غزو قبائل نفزة فسار حتى غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان فنظر فى أحوالهـا وإصلاح سورها وجامـعها وصنع بهـا منبراً كتب عليه هذا مـا أمر به إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحـسن بن الحسن السبط بن علي بن أبى طالب رضى الله عنه فى شهر مـحرم سنة تسع وتسعين ومائة فأقـام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازها ثلاث سنين ثم رجع إلى مدينة فاس فلم يزل بها إلى أن توفى رحمة الله عليه ورضوانه فى سـنة عشرة ومائتين وهو ابن ثلاث وثلاثيـن سنة ودفن بمسجده بإزاء الحائط الشرقى منها. هكذا فى بعض نسخ الأنيس وفى بعضها وهو ابن ست وثلاثين سنة وهو الصواب لما مر أنه ولد سنة سبع وسبعين ومائة فأعوام ملكه ستة وعشـرون عامًا، وأمـا قول البرشـتى توفى إدريس بن إدريس بمدينة وليلى من بلد زرهون فى الثانى عشر من جمادى الآخرة سنة ثلاث عـشرة ومائتين وعمره يومئذ ثمانية وثلاثون عامًا ودفن إلى جانب قبر أبيه برابطة وليلى انتهى فهو صحيح..

أما أولاً فـلا تفاقـهم على أنه ولد سنة سبع وسـبعين فـلا يصح أن يكون عمره ثمانية وثلاثين وأما ثانيا فلما ذكره العلامة الحافظ سيدى عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى من اتفاق أرباب البصـائر والأذواق وإطباق العامة والخاصة على أنه بفاس كـما لهـجت به الألسنة وطارت به الرفاق فى الآفـاق وأذعنت به قلوب أهل الإيمان لم يقع فيه اختلاف ولا شقـاق فما يُعرف لهم قط تنازع فى ذلك فمن قال بخلافه يجوز الوعـيد بمقتضى قوله ومن يشاقق الرسول من بعـد ما تبين له الهدى ويتبع غير سـبيل المؤمنين نُوَلِّهِ ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا . وما أحسن قول القائل:

مـنازل أهـل الله آل رسـولـه ... فاحبب بهم أهلا واحـبب بها مغنى
مـدينة إدريس بـن إدريس الـتى ... بهـا قـبـره آثاره قـبـر مـبنى

ووجد بخط الإمام القصار رحمه الله مما أنشده بعض الأدباء:

إدريس نام بـفـاس كـالعـروس له ... قـلـب إذا نامت الـعـينان لم يـنم
أحل بارئـه فى حـزم حـرمـتـه ... كـالليث حل مع الأشبـال فى أجم
يرد عـنهم يد المؤذى بصـولتـه ... رد الغـيـور يد الجـانى عـن الحـرم

قال العلاّمة ابن زكريا وقد ذكر بعض أهل العلم أن مما يستدفع به الأذى عن أهل بلد فاس بقاء أثر شجاعته ونصرته لدين الله وقهره للأعداء بها وهو سيفه الذى بمنارة القرويين فقد تضمن وضعه هنالك إشارة جليلة إلى الدفع عن أهلها ورد من رماها بسوء وفى هذا المعنى قال الفقيه الإمام الربانى أبو عبد الله محمد بن سعيد الحباك رضى الله عنه :

شهرة المشرفى فوق المنار ... عزة للورى ودين النبى

سيف إدريس محمد للأعادى ... وانتصار الملوك بالمشرفى

وأما الحياك هذا فمن أشياخ ابن غازى الذين أخذ عنهم وأثنى عليهم الثناء الجميل وقصد بهذين البيتين رضى الله عنه رد قول مسعود بن أبى القاسم بن أبى طلاق:

قالوا بجامع فاس سيف إدريسا ... وكلهم قائل زورًا وتلبيسا

ما جعله غير طلسم لساكنيها ... لكى ينال بها الأحزان والبؤسا

وإنه لحقيق بالرد وخليق بالتزييف والابطال، نعم ما تضمنه كلامه من ترادف الأحزان والبؤس على ساكن فاس له أصل وأساس وهو كثرة التوسعات الدنيوية به فى الأطعمة والأشربة واللباس والأبنية والمياه وغير ذلك مما لا يوجد فى غيرها من البلدان وبقدر ذلك يكون الغم وترادف الأحزان كما قال سيدى ابن عطاء الله فى الحكم ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه فإن مفهومه أن بقدر ما يفرح به الإنسان يكون حزنه وبه قرره وشراحه وهو هذا معنى قول القائل:

فاس لعمرى هى الدنيا بأجمعها ... لو لم يك القلب فيها ضيقًا حرجا

من حل ساحتها لم ينج من كدر ... كأنما همها بمائها مزجا

وكما زيف ذلك القول الإمام الحياك زيفه الشيخ أبو زيد المكودى قال:

قد سيف المنار بفاس ... هو طلسم ذلة وهوان

أخطأوا ليس ذاك إلا لعز ... بهرت منه سائر البلدان

وكذا رده أيضًا الشيخ الفقيد الأستاذ النحوى المقرى أبو المكارم منديل ابن آجروم رحمه الله تعالى فى قوله:

شاموا بفاس سيف إدريسهم فوق منار لا لأمر مخوف
بل أشعروا بقول خير الورى جنتكم تحت ظلال السيوف

وكذا الشيخ الفقيه الإمام عبد الغفار البوخلفى بقوله:

وذكرت ولم أكن ناس عجائب سيف إدريس بفاس
فلم يك بالمنار سدى ولكن عن حماها كل باس

وكذا الشيخ المتفنن الفقيه النحوى أبو عبد الله محمد بن موسى بن إبراهيم الحاجرى بقوله :

يقولون زجراً إن فاسا قضى لها بذلتها سيف المنار المشيد
لقد أخطأوا فى زجرهم ضل سعيهم هل العز إلا تحت ظل المهند

وما أحسن قول الفقيه أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالربيب:

سر فاس لأهل فاس بدا فى وضع إدريس بالمنار حسامه
فهم الغر للنداء فأورى ناره معلماً وشال علامه

يشير إلى إظهار العلام والفنار اللذين أحدثهما أمير المؤمنين المتوكل أبو عنان فارس المدينى ونحو قول ابن آجرُوم قولُ الفقيه أحمد بن يحيى بن عبد المنان:

أنكر السيف بالمنار بفاس قائل إن ذاك داعى اغتمام
لا يرعك الحسام سل عليها جنة الخلد تحت ظل الحسام

وقال الشيخ الفقيه إدريس بن راشد الفهرى رحمه الله تعالى :

سل إدريس بالمنار حساما منبئًا ذاك عن شديد العقاب
داعيًا للصلاة إن لم تجيبوا فحقيق الجزاء ضرب الرقاب

ونحو هذا قول الفقيه أبى الفضل محمد بن باشر التسولى:

وليس ارتفاع فى المنار لكربة ... ولكنه كى يعلم الحق جاهله
احض على الخمس التى فاز أهلها ... ومن حاد عن عرفانها انا قاتله

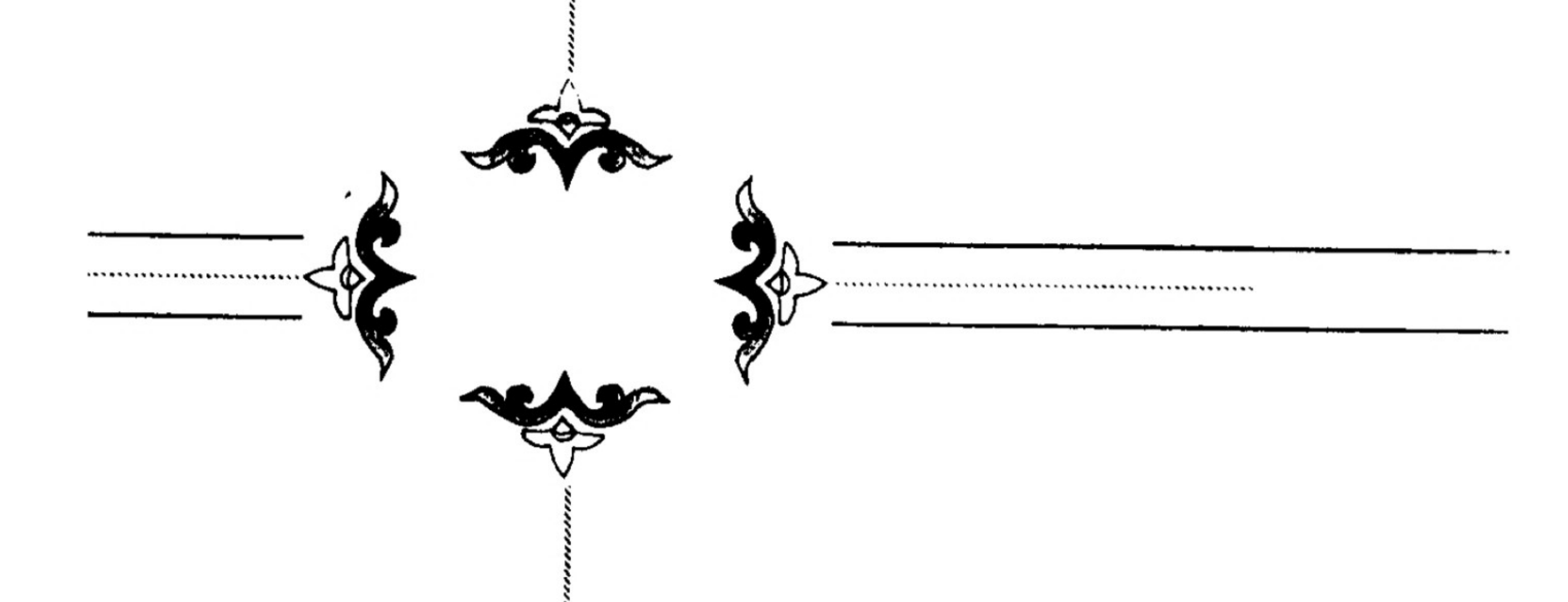
وقال أيضا رحمه الله ورضى عنه :

قل لمن أنكر الحسام بفاس ... ودعى الغم قول ذى تجريح
سيف إدريس بالمنار شهير ... شهيرة الدين بالآذان الفصيح

وقال الأديب أبو عثمان سعيد السراتى شهر بشهبون رحمه الله تعالى:

لإدريس سيف أظهر الدين والهدى ... بأفق منار للآذان تقيدا
فمن ظن أن الذل أورثنا به ... فهل ذل الأظالم ضل واعتدى

ذكر هذه الأشعار فى كتاب فرائد الجمان الأديب أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر رضى الله عنه وزاد عليها ما اقتصرنا عليه هو زبدة ما ذكره. وسبب وضعه فى أعلى المنار أن الأمير أحمد بن أبى الزناتى كان رجلاً فاضلاً صالحًا من أهل الدين والورع اختصم إليه بعض حفدة الإمام مولانا إدريس فى السيف المذكور وطلب كل واحد منهم أن يحوز السيف لنفسه وطال نزاعهم فيه فقال لهم الأمير أحمد بن أبى بكر: هل لكم أن تبيعوه منى وتتركوا النزاع فيه؟ قالوا له: وما تصنع به أيها الأمير؟ قال: أجعله فى أعلى هذه الصومعة التى بنيت تبركا به فقالوا: أيها الأمير إن كنت تفعل هذا فخذه نهبه لك بطيب نفوسنا فوهبوه له فجعله فى أعلى المنار وكان ذلك سنة خمس وأربعين وثلاثمائة .



الدولة الثانية الغمارية



الدولة الثانية الغمارية

« إليها أشار ابن خلدون فى تاريخ العبر بقوله الخبر عن دولة الأدارسة فى غمارة وتصاريف أحوالهم»

كان عمر بن إدريس عند قاسم بن محمد بن إدريس من أعمال المغرب بين إخوته برأى جدته كنيزة أم إدريس اختص منها بتجياس ونزغة وبلاد صنهاجة وغمارة واختص القاسم بطنجة وسبتة والبصرة وما إلى ذاك من بلاد غمارة ثم غلب عمر عليها عندما تنكر له أخوه محمد واستضافها إلى عمله كما ذكرنا فى أخبارهم ثم تراجع بنو محمد بن القاسم من بعد ذلك إلى عملهم الأول فملكوه واختص منهم محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بقلعة حجر النسر الداقية وجعل سبتة معقلاً لهم وثغراً لعملهم وبقية الإمارة بفاس وأعمال المغرب فى ولد محمد إدريس ثم أدالوا منهم بولد عمر بن إدريس وكان أخوهم يحيى بن إدريس ابن عمر وهو الذى بايع لعبد الله الشيعى على يد مصالة بن حبوس قائده وعقد له على فاس ثم نكبه سنة تسع وخرج عليها سنة ثلاث وعشرين فى بنى القاسم الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس وتلقب الحجاج لطعنه فى المحاجم وكان مقداماً شجاعًا وثار أهل فاس بريحان وملكوا للحسن وزحفوا إليه موسى فقتله ومات واستولى ابن أبى العافية على فاس وأعمال المغرب وأجلى الأدارسة وأخذ منهم حصنهم حجر النسر وانحرف إلى جبال غمارة وبلاد الريف وكان لغمارة فى التمسك بدعوتهم أباد ومقامات واستحدثوا بتلك الناحية مُلكًا فوزعوه قطعًا كان أعظمها لبنى محمد هؤلاء ولبنى عمر بتكسان ونكور وبلاد الريف ثم سما الناصر ابن عبد الرحمن إلى ملك العدوة ومراجعة الشيعة فنزل له بنو محمد عن سبتة سنة تسع وتناولها من بر الريف الرضى بن عاصم رئيس محكمة كان يقيم فيها دعوة الأدارسة فأفرجوا له عنها ودانوا بطاعته وأخذها من يده ولما غزا أبو القاسم ميسور إلى المغرب لمحاربة ابن أبى العافية نقض طاعتهم ودعا للمروانية ووجد بنو محمد السبيل إلى الانتقام منه بمظاهرة ميسور عليه ووالى على ذلك بنو عمر صاحب نكور ولما اشتغل ابن أبى العافية نكسته ورجع إلى الصحراء سنة خمس وعشرين منصرف ميسور من المغرب نازل بنى محمد وبنى عمر وهلك بعد ذلك



وأجاز الناصر بن محمد بن طماس سنة ثلاث وثلاثين وكتب إلى ملوك مغراوة محمد بن إدريس بن عمر المعروف بابن شالة يدعوه إلى الطاعة وأوفد رسله إلى الناصر فعقد له الأمان وأوفد ابنه محمد بن أبى العيش مؤكدًا للطاعة فاحتفل لقدومه وأكد له العقد ونصل سائر الأدارسة من بنى محمد وسأل مثل سؤالهم فعقد لجميع بنى محمد أيضا وكان بنو إدريس يرجعون فى رياستهم إلى بنى محمد هؤلاء منذ استبدها وآخرهم الحسن بن محمد الملقب بالحجاج فى ثورته على ابن أبى العافية فقدموا على أنفسهم القاسم بن محمد الملقب بكنون بعد فرار موسى ابن أبى العافية وملك بلاد المغرب ما عدا فاس مقيمًا لدعوة الشيعة إلى أن هلك بقلعة حجر النسر سنة سبع وثلاثين وقام بأمرهم من بعدهم أبو العيش أحمد بن القاسم كنون وكان فقيهًا عالمًا بالأيام والأخبار شجاعًا ويُعرف بأحمد الفاضل وكان فيه ميل للمروانية فدعا للناصر وخطب له على منبر عمله ونقض طاعة الشيعة وبايعه أهل المغرب كافة إلى سجلماسة ولما بايعه أهل فاس استعمل عليهم محمد ابن الحسن ووفد محمد بن أبى العيش بن إدريس بن عمر بن شالة على الناصر عن أبيه سنة ثمان وثلاثين فاتصل به وفاة أبيه وهو بالحضرة فعقد له الناصر على عمله وسرحه وهم عيسى ابن عمر بن أبى العيش أحمد بن القاسم كنون على عمله بتكاهن فى غيبة محمد فملكها واحتوى على مال ابن شالة ولما أقبل محمد من الحضرة زحف برابرة غمارة إلى عيسى المذكور ابن كنون ففظعوا به وأثخنوا جراحه وقتلوا أصحابه ببلاد غمارة.

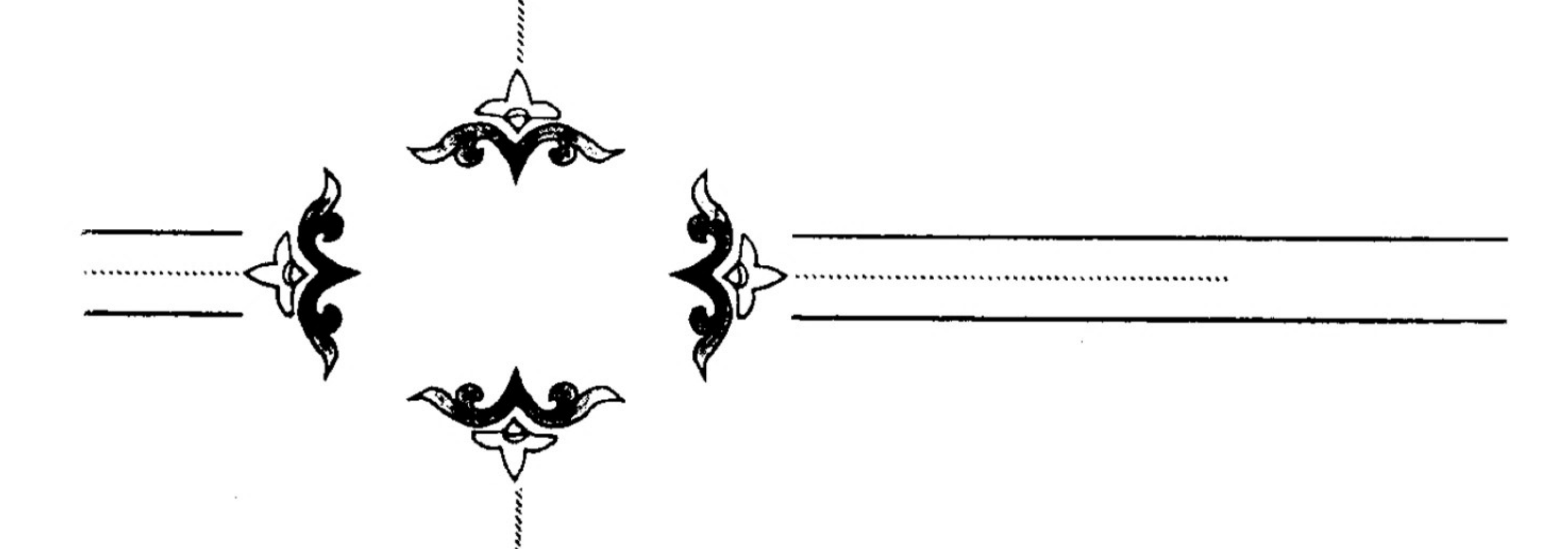
وأجاز الناصر قواده إلى المغرب وكان أول من أجاز إلى بنى محمد هؤلاء سنة ثمان وثلاثين أحمد بن يعلى من طبقة القواد أجازه فى العساكر ودعاهم إلى هدم تطاون[1] فامتنعوا ثم انقادوا وشطوا وأجابوا إلى هدمها ورجع عنهم فانقضوا فسرح إليهم حمير بن صليتى المكناسى فى العساكر سنة تسع وثلاثين وزحفوا إليه بوادى راوا فوقع بهم فأذعنوا بعدها وتغلب الناصر ثم تخطت عساكر الناصر إلى بسائط المغرب فأذعن له أهله وأخذ بدعوته فيه أمراء زناتة فى مغراوة وبنى يعرب ومكناسة كما ذكرنا، فضعف أمر بنى محمد واستأذنه أميرهم أبو العيش فى الجهاد

(١) تطاون : تسمى الآن تطوان وهى شمال المملكة المغربية.

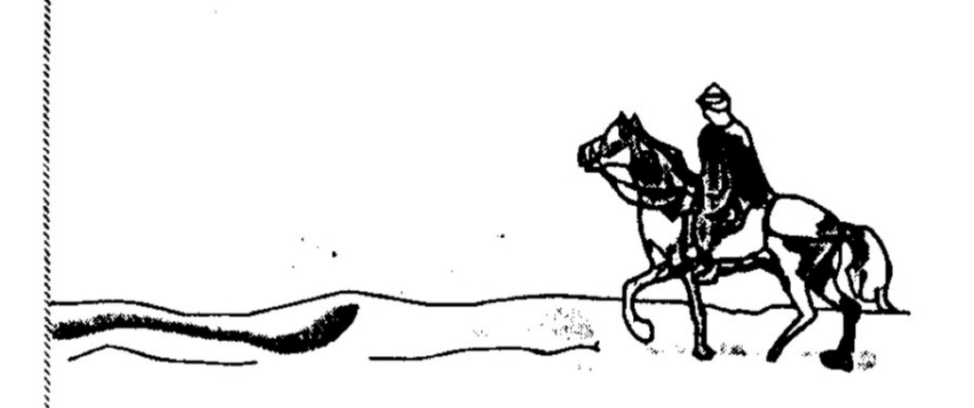
فأذن له وأمر ببناء القصور فى كل مرحلة من الجزيرة إلى الثغر فكانت ثلاثين مرحلة فأجاز أبو العيش واستخلف على عمله أخاه الحسن كنون وتلقاه الناصر بالمرة وأجرى له ألف دينار فى كل يوم وسقط شهيداً فى موقف الجهاد سنة ثلاث وأربعين وكان أخذ معه قائده جوهر ولما قفل من المغرب راجع الحسن الطاعة للناصر إلى أن مات سنة خمسين واستنجد الحكم عزمه فى سد ثغور المغرب وإحكام دعوتهم وشمر لها عزائم أموالهم من ملوك زناتة فكان بينهم وبين زيرى وبلكين ما ذكرناه ثم أغزى معه بلكين بن زيرى المغرب سنة اثنتين وستين أولى غزواته فأثخن فى زناتة وأوغل فى ديار المغرب وقام الحسن بن كنون بدعوة الشيعة ونقض طاعة المروانية فلما انصرف بلكين أجاز الحاكم إلى العدوة مع وزيره محمد ابن قاسم بن طلمس وخلف كثيراً من عسكره وأوليائه ودخل قبلهم إلى سبتة(*) واستصرخوا الحكم فبعث غالبا مولاه البعيد الصيت المعروف بالشهامة وأمر له بما يعنيه على ذلك من الأموال والجنود وأمره باعتزال الأدارسة وإجارتهم إليه وقال له: سر يا غالب مسير من لا إذن له فى الرجوع إلا حيًا منصوراً أو ميتًا معزوراً واتصل خبره بالحسن بن كنون فأفرج عن مدينة البصرة واحتمل منها أمواله وحرمه وذخيرته إلى حجر النسر معقلهم القريب من سبتة ونزل غالب ببعض مصمودة فاتصلت الحرب بينهم أيامًا ثم بث غالب المال فى رؤساء البربر من غمارة ومن معه من الجنود وفروا وأسلموا فانحجر بقلعة جبل النسر ونازل به غالبًا وأمره الحكم بعرب الدولة ورجال الثغور وأجارهم مع وزيره صاحب الثغر الأعلى يحيى بن محمد بن إبراهيم الحسنى فمن معه من أهل بيته وحشمه سنة ثلاث وستين فاجتمع مع غالب على القلعة واشتد الحصار على الحسن وطلب من خالد الأمان فعقد له واستلم الحصن من يده ثم عطف على من بقى من الأدارسة فى بلاد الريف فأعجزهم وسيرهم مسيرة أسوة واستنزل جميع الأدارسة من معاقلهم وسار إلى فاس فملكها واستعمل محمد بن علي بن قشوس فى عدوة القرويين وعبد الكريم بن ثعلبة الجزامى فى عدوة الأندلس وانصرف غالب إلى قرطبة ومعه الحسن بن كنون وسائر ملوك الأدارسة وقد مهد المغرب وحاله ومهد الشيعة وذلك

(*) سبتة: مدينة عريقة تقع على ساحل البحر المتوسط شمال المغرب مقابل مضيق جبل طارق يحتلها الإسبان حتى الآن مع مدينة مليلة على البحر أيضًا شرق سبتة قرب حدود الجزائر ردهما الله سبحانه إلى الوطن الأم «المملكة المغربية» فى أقرب الآجال.

سنة أربع وستين وتلقاهم الحاكم وركب الناس للقائهم وكان يوم دخلوهم إلى قرطبة أجمل أيام الدولة وعفا عن الحسن بن كنون ووفى له بالعهد وأجزل له ولرجاله العطاء والخلع والجعلان وأوسع عليهم الجراية وأجرى لهم الأرزاق ورتب من حاشيتهم فى الديوان سبعمائة من أنجاد المغرب وتجنى عليه بعد ثلاث سنين بسؤاله من الحسن قطعة عنبر تادت من بعض سواحل عمله بالمغرب أيام ملكه فاتخذ منها أريكة يرتفقها ويتوسدها فبسأله حملها إليه على أن يحكمه فى رخاد فأبى عليه مع سعاية بنى عمه فيه عند الخليفة وسوء خلق الحسن، فنكبه واستقصى ما لديه من قطعة العنبر وسواها واستقام المغرب وتضافر أمراؤه على مراجعة بلكين وعقد لوزيره جعفر على المغرب واسترجع يحيى ابن محمد بن هاشم وغرب الحسين بن كنون مع الأدارسة جميعًا إلى المشرق استقلالاً لنفقاتهم وشرط عليهم أن لا يعودوا وقصدوا البحر من المدينة سنة خمس وستين ونزلوا فى جوار العزيز معه بالقاهرة خير نزل وبالغ فى الكرامة ووعد بالنصرة والمبرة ثم بعث الحسن بن كنون إلى المغرب وكتب له إلى آل زيرى بن مناد بالقيروان بالمظاهرة فلحق بالمغرب ودعا لنفسه وبعث المنصور بن أبى عامر العساكر لمدافعته فغلبوه وقبضوا عليه واستحضره إلى الأندلس فقتل فى طريقه سنة ٣٣٠هـ كما ذكرناه فى أخبارهم وانقرض ملك الأدارسة من المغرب أجمع إلى أن كان رجوع الأمر لبنى حمود منهم ببلاد غمارة وسبتة كما نذكره.



الدولة الثالثة السبتية



الدولة الثالثة السبتية

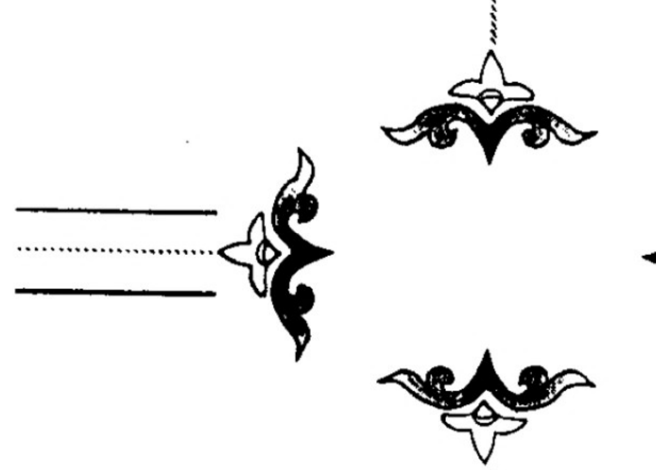
وإليها أشار عبد الرحمن بن خلدون فى العبر بقوله الخبر عن دولة حمود من الأدارسة ومواليهم بسبتة وطنجة وتصاريف أحوالهم وأحوال غمارة من بعدهم.

كان الأدارسة لما أجلاهم الحكم عن العدوة إلى المشرق وسائر بلاد المغرب واستقامت غمارة على طاعة المروانية وأذعنوا لجند الأولين ورجع الحسن بن كنون لطلب أمرهم فهلك على يد المنصور بن عامر فانقرض أمرهم وافترق الأدارسة فى القبائل ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا إشارة النسب واستحالت صفتهم منه إلى البداوة ولحق بالأندلس فى جملة البرابرة من ولد عمر بن إدريس رجلان منهم وهما علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر ابن إدريس فصار لهما ذكر فى الشجاعة والإقدام، ولما كانت الفتنة البربرية بالأندلس بعد انقراض الدولة الغمارية ونصّب البرابرة سليمان بن الحكم ولقبوه المستعين اختص ابنى حمود هذين فاحسنا الغناء فى ولايته حتى إذا استولى على ملكه بقرطبة وعقد للمغاربة الولايات عقد لعلي بن حمود هذا على طنجة وأعمال غمارة فنزلها وراجع عهده معهم فيها ثم انقرض ودعا لنفسه وجاز إلى الأندلس وولى الخلافة بقرطبة كما ذكرنا فعقد على عمله بطنجة لابنه يحيى ثم أجار يحيى إلى الأندلس بعد مهلك أبيه علي منازعًا لعمه القاسم واشتغل أخوه إدريس من بعده بولاية طنجة وسائر أعمال أبيه بل بالعدوة من مواطن غمارة ثم أجار بعد مهلك أخيه يحيى بمالقة فاستعدى رجال دولتهم وعقد لحسن بن أخيه يحيى على عملهم بسبتة وطنجة وانفذ نجا الخادم معه ليكون تحت نظره و استرشاده ولما هلك إدريس واعتزم ابن بقية على الاستبداد بمالقة أجار نجا الخادم لحسن بن يحيى من طنجة فملك مالقة ورتب أمره فى خلافته ورجع إلى سبتة وعقد لحسن على عملهم فى مواطن غمارة حتى إذا هلك حسن أجاز نجا إلى الأندلس يروم الاستبداد واستخلف على العمل من وثق به من الموالى الصقبية فلم يزل على نظرهم واحد بعد آخر إلى أن استقل بسبتة وطنجة من موالى بنى حمود هؤلاء الحاجب سكون البرغواطى وكان عبدًا للشيخ من مواليهم اشتراه من سبى برغواطة

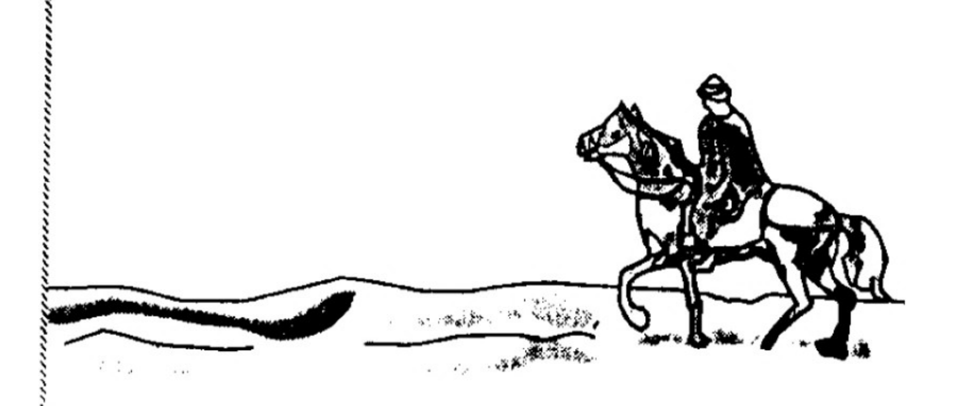
فى بعض أيام جهله ثم صار إلى علي بن حمود فأخذت النجابة بضبعة إلى أن استقل بأمرهم واقتعد كرسى عملهم بطنجة وسبتة وأطاعته قبائل غمارة واتصلت أيامه إلى أن كانت دولة المرابطين وتغلب ابن تاشفين سنة إحدى وسبعين ودعا الحاجب سكون إلى مظاهرته على مزاوة بفلس ولجا إلى بلاد الرملة من آخر بسيط المغرب مما يلى بلاد غمارة ونازلهم يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وأوقع بهم وافتتح حصن علو دان من حصون غمارة من ورائه فانقاد المغرب لحربه ثم صرف وجهه إلى سكون فأقسم ان لا يسمع أحداً من رعيته هدير طبولهم ولحق هو بمدينة طنجة ثغر عمله وقد كان عليه من قبله ابنه منبأ الدولة المعز وبرز للقائهم فالتقى الجمعان بظاهر طنجة وانكشفت عساكر سكون وطحنته رحى المرابطين وسالت نفسه ضياءهم ودخلوا طنجة واستولوا عليها ولحق ضياء الدولة بسبتة ولما تكالب الطاغية على بلاد الأندلس وبعث ابن عباد صريخه إلى أمير المؤمنين يوسف ابن تاشفين مستنجزاً وعده فى جهاد الطاغية والذب عن المسلمين وكان أهل الأندلس كافة يستحثونه على الجهاد وبعث ابنه المعز سنة ست وسبعين فى عسكر المرابطين إلى سبتة فرمته المجاز فنازلها وأحاطت بها أساطيل ابن عباد واقتحموها عنوة وقبض على ضياء الدولة وفر ابن المعز فطالبه بالمال بإنجائه فاسا فقتله لوقته وعثر على ذخائره وفيها خاتم يحيى بن علي بن حمود وكتب إلى أبيه بالفتح وانقرضت دولة بنى حمود وانمحى آثارهم وسلطانهم من بلاد غمارة وأقاموا فى طاعته لتوقت سائر أيامهم ولما نجم المهدى بالمغرب واستفحل أمر الموحدين بعد مهلة تنقل خليفة عبد المؤمن فى بلادهم فى غزوته الكبرى لفتح المغرب سنة سبع وثلاثين وما قبلها كما قيل قبل استيلائه على مراكش كما نذكره فى أخبارهم واتبعوا أثره ونزلوا بسبتة فى عساكره وامتنعت عليهم وتولى كبر امتناعها قائدها عياض الطائر الذكر رئيسهم لذلك العهد لدينه وأبوته وعلمه ونصيحته ثم أصبحت بعد فتح مراكش سنة إحدى وأربعين .

ولما فشل أمر بنى عبد المؤمن وذهب ريحه وكثر الثوار بالقاصية ثار فيهم محمد بن محمد الكتامى سنة خمس وعشرين كان أبوه من قصر كتامة مقبضاً على الناس وكان ينتحل السيميا ولعله عن أبيه محمد هذا وكان يلقب أبا الطواجن فارتحل إلى باب سبتة ونزل على بنى سعيد وادعى صناعة الكيمياء فاتبعه الغوغاء ثم

ادعى النبوة وشرع شرائع وأظهر أنواعًا من الشعيرة فكثر تابعوه ثم اطلعوا على خبثه فنبذوا إليه عهده وزحفت إليه عساكر سبتة ففر عنها وقتله بعض البرابرة غيلة ثم غلب بنو مرين على بسائط المغرب وأمصاره سنة أربعين وستمائة واستولوا على كرسى الأمر بمراكش سنة ثمان وستين فامتنع قبائل غمارة من طاعتهم واستعصوا عليهم وأقاموا بمنجاة من الطاعة وعلى شبح من الخلاف وامتنعت سبتة من ورائهم على ملوك بنى مرين بسبب امتناعهم وصار أمرها إلى الشورى واستبد بها الفقيه أبو القاسم القرمى من مشيختها كما سنذكر ذلك كله إلى أن وقع بين قبائل غمارة ورؤسائهم فتن وحروب ونزعت إحدى الطائفتين إلى طاعة السلطان بالمغرب من بنى مرين فأتوها طواعية ودخل الآخرون فى طاعة ملوكهم أوكرهًا فملك بنو مرين أمرهم واستعملوا عليهم وتخطوا إلى سبتة وراءهم فملكوا من الفريقين سنة سبع وعشرين وسبعمائة بعد الهجرة على ما نذكره بعد عند ذكر دولتهم وهم الآن على أحسن أحوالهم من الاعتزاز والكثرة يأتون طاعتهم وجبايتهم عند استقلال الدولة ويمرضون فيها عند التياثها بقتل وشغب فتحضر البعوث إليهم من الحضرة حتى يستقيموا بوعورة جبالهم عز ومنعة وجوار لمن لحق بهم من عياض الملك الخوارج إلى هذا العهد وذلك لإشراف جبلهم على سائرها وسمو قلاعه إلى مجار السحب دونها وتوعر مسالكه بهبوب الرياح فيها وهذا الجبل مطل على سبتة من غربيها وصاحب أمره يوسف بن عمر ولهم فيه عزة قد اتخذوا به المصانع والغروس وفرض لهم السلطان بديوان سبتة العطاء وأقطعهم فى بسيط طنجة الضياع استئلافًا لهم وحسمًا لخلافهم ولله الخلق والأمر بيده ملكوت السماوات والأرض.



الدولة الرابعة الأندلسية



الدولة الرابعة الأندلسية

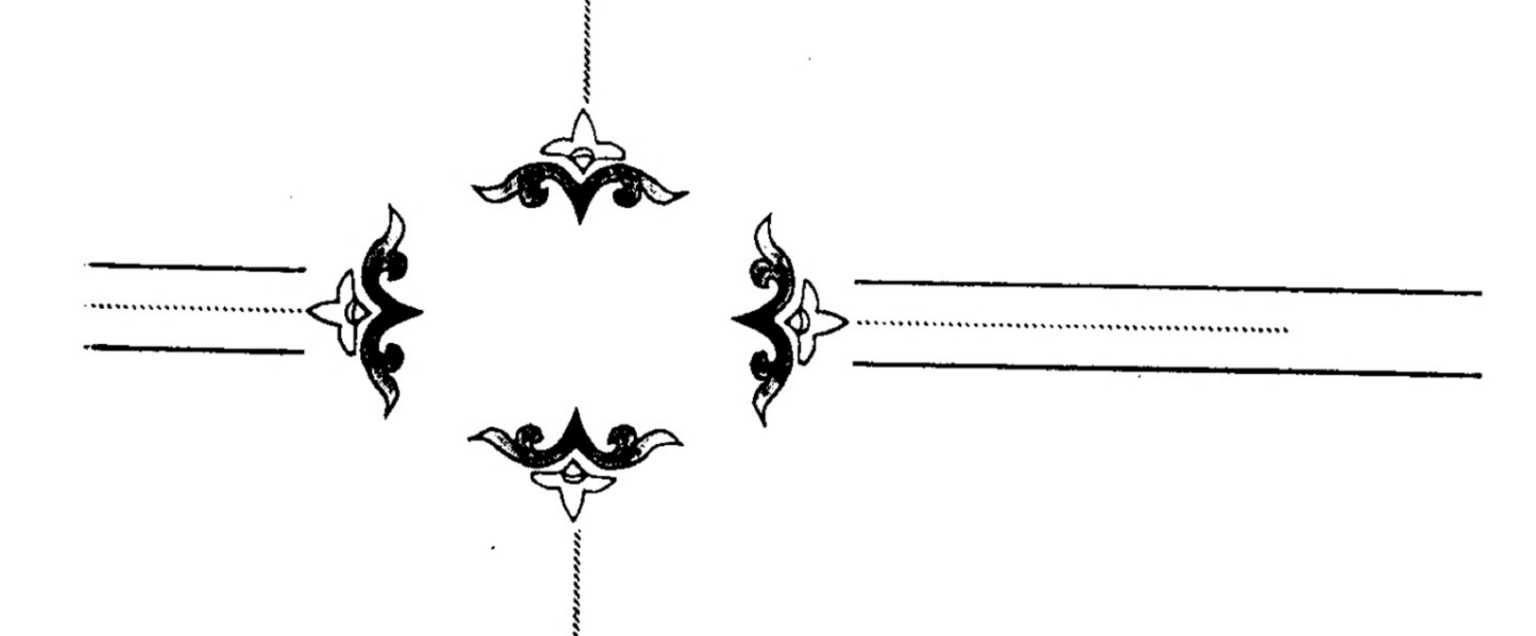
اعلم أن سبب ملك الأدارسة لها أنه قام قائم على هاشم آخر ملك من ملوك بنى أمية بها وادعى ذلك القائم أنه المهدى وصارت فتنة عظيمة ثم تولى سليمان بن الحكم بالأندلس على قبائل البربر الذين قطعوا الجزيرة مع موسى بن نصير فى بداية الأمر واستوطنوا البلاد وحاصروا هاشمًا فى قرطبة ثم أرسل هاشم لصاحب سبتة وأحوازها وكان فيها وتملكها علي بن حمود من الأدارسة فقطع إليه من سبتة فى جموع من البربر واغاثه، وهو علي بن حمود بن ميمون بن علي بن عبد الله بن عامر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب، فقطع البحر لإغاثته وتبعه بعض أهل الجزيرة مع قوته ونزل على سليمان وهو محاصر لهاشم فى قرطبة فقبضه وقتله وقتل جموعه فادعى لنفسه علي بن محمود وولى البيعة بالأندلس وكان فظًا غليظًا شجاعًا شديد البأس وكانت له أخبار بالجزيرة ووقائع واختصرنا من حديث أخبار وقته إلى أن انقضى أجله وسمته مملوكة من السقلب فمات فى ثمان وأربعمائة وولى الأمر بعده أخوه القاسم ثم نازعه علي بن يحيى بن حمود وتملك قرطبة ثم قام المرتضى مع العامرى لناحية شرق الأندلس وتحركوا ونزلوا على غرناطة وكثر الهرج فى أخبار يطول ذكرها واختل أمر المسلمين وكان آخر الدولة المرتضى كان ممتنعًا فى قصر البنات فرجع إليه الأمر فى آخر عمره وهو شيخ فبايعه أهل قرطبة وجلس على سرير المُلك وبعد ذلك خلعوه وذلك فى سنة عشرين وأربعمائة والبقاء لله الواحد القهار.

ولنذكر شيئًا من محاسن قرطبة إذ كانت عروس ملك الدولة الأموية والإدريسية. قيل فى المغرب كان فى الزمن القديم فى عهد سليمان عليه وعلى نبينا محمد الصلاة والسلام نزل بها ليلة مع عساكره وكانت أرضها مروجًا تنبع بالماء فقال لهم سليمان: قرطبوها بالحجارة وأنزلوا فى هذه البقعة سيكون لها شأن عظيم فى آخر الزمان تخرج منها علوم كثيرة فعند ذلك سميت قرطبة والجبل الذى عليها يسمى بالتاج ويندفق منه ماء معين فسميت قرطبة عروسة الأندلس والتاج عليها وبقربها معدن الزئبق ولا يجود فى معمور الأرض إلا هناك وينجلب منها إلى كل أرض ونذكر مسجدها الاكبر الذى بناه بنو أمية ولا استوفى بالبناء إلا بعد خمس

وعشرين سنة وقد بنى فيها إثنا عشر خليفة من بنى أمية زاد فيه مجلس المنتصر بالله الحاكم لذكر الله وآخر بنائه محمد بن عامر وكان عدد بلاطاته ثمانى عشرة وعدد سواريه ألف سارية وأربعمائة وعدد ثرياته ثمانين ومصابيحه ألف مصباح ويسلم فى الجامع أربعون ألف مصل دون الصحن والصحن قدره ثلث الجامع وفيه منبر لم ير فى مشارق الأرض ومغاربها مثله وله تسعة أدراج وأنفق فيه من الأموال ثمانية عشر ألف دينار دون الحديد والعاج والصندل والبقام والرنج واليابنون وغير ذلك ومساميره مفضضة ومذهبة وعدد الفقهاء وأهل الكراسى والأشياخ والمؤذنين والمدرسين ما ينيف على المائة والعشرين رجلاً، ومن أراد أن يطلع على حقيقة هذا المسجد وعلى ما يوقد فيه من الزيت وما له من الأحباس ومن الأرض للحرث وماذا يكفيه من الحصور وكيف هى الصومعة وعمودها وما له من الدَرج من جهة أبواب القبلة وكيف هو المجلس وما فيه من الذهب والفضة والعاج والزجاج والمدارق فليُطلب حقيقة أمر هذا المسجد فى كتاب الجغرافية وترى لقرطبة أخباراً يبكى عليها كل مسلم(*).

(*) من عجيب الأقدار أن يظل الأندلس وهو شبه جزيرة إيبريا أو ما يُعرف الآن بدولتى إسبانيا والبرتغال يظل ما يقارب ٨٠٠ عام تحت حكم العرب المسلمين ثم تضيع هذه البلاد منهم وتعود إلى الديانة المسيحية ويهرب من العرب من خاف على دينه الإسلامى وأبى الردة إلى بلاد المغرب.. ثم من أعجب العجائب أن يتقوى هؤلاء الإفرنجة من الإسبان والبرتغال ويلاحقون بلاد المسلمين فى المغرب العربى ويحتلون ثغورها فترات طويلة خلال الخمسمائة عام الماضية بعد سقوط الأندلس وبعض هذه الثغور ما زالت بأيديهم حتى الآن فى سبتة ومليلة وجزر الكناريا وبعض الجزر الصغيرة فى البحر المتوسط.

حقًا.. فليبك كل العرب على ما آلوا إليه من ضعف وهوان.



الدولة الخامسة المهدوية



الدولة الخامسة المهدوية

وإليها أشار ابن خلدون فى العبر بقوله الخبر عن مبدأ أمر المهدى وما كان للموحدين القائمين بها على يدى بنى عبد المؤمن من السلطان والدولة بالعدوتين وإفريقية وبداية ذلك وتصاريفه، لم يزل أمر هؤلاء المصامدة بجبال وزن عظيمًا وجماعتهم موفورة وبأسهم قويًا، وفى أخبار الفتح من حروبهم مع عُقبة بن نافع وموسى بن نصير حتى استقاموا على الإسلام ما هو معروف مذكور إلى أن ظلتهم دولة لمتونة فكان أمرهم فيه مستفحلاً وشأنهم على أهل السلطان والدولة مهما حتى لقد اختطوا مدينة مراكش، وقد نجم فى تلك الدولة على عهد علي بن يوسف إمامهم العالم الشهير محمد بن تومرت صاحب دولة الموحدين المشتهر بالمهدى أصله من هرعة من بطون المصامدة الذين عددناهم يسمى أبوه عبد الله وتومرت وكان يلقب فى صغره أيضًا «إمغار» وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه فى أهل البيت وأنه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن عفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان ابن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب أخى إدريس الأكبر الواقع نسب الكثير منهم فى المصامدة وأهل السوس كذا ذكر ابن نحيل فى سليمان هذا وأنه لحق بالمغرب ابن أخيه إدريس ونزل تلمسان وافترق ولده فى المغرب، قال: فمن ولده كل طالبى بالسوس وقيل بل هو من قرابة إدريس اللاحقين به إلى المغرب وأن رباحًا الذى فى عمود هذا النسب إنما هو ابن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن وعلى الأمرين فإن نسبه الطالبى وقع فى هرعة من قبائل المصامدة ورسخت عروقه فيهم والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم وانتسب بنسبتهم صار فى عددهم وكان أهل بيته أهل نسك ورباح وشب محمد هذا محبًا للعلم وكان يسمى أسافو ومعناه الضياء ولكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها وارتحل فى طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ومر بالأندلس ودخل قرطبة وهى إذ ذاك دار علم ثم أجاز إلى الإسكندرية وحج ودخل العراق ولقى جملة من العلماء يومئذ فحول النظائر وأفاد علمًا نافعًا وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على

يده لما كان الكهان يتحينونه من ظهور دولة يومئذ بالمغرب ولقى فيما زعموا أبا حامد الغزالى وفاوضه بذات صدره بذلك فأراده عليه لما كان فيه الإسلام يومئذ بأقطار الأرض من اختلال الدولة وتقويض أركان السلطان الجامع للأمة المقيم للملة بعد أن سأله عمن له من العصابة والقبائل التى يكون بها الاعتزاز والمنعة ونشأ بها أمر الله فى درك هذه البقعة وظهور الدعوة. وانطوى هذا الإمام راجعًا إلى المغرب بحرًا متفجرًا من العلم وشهابًا واريًا من الدين وكان قد لقى بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم فى الانتصار للعقائد الفلسفية والذب عنها بالحجج العقلية الدامغة فى صدر أهل البدعة وذهب إلى رأيهم فى تأويل المتشابه من الآيات والأحاديث بعد أنه كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم فى التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف فى ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت فمنع أهل المغرب من ذلك وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية فى كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوه تقليدهم وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة فى التوحيد وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأى الإمامية من الشيعة وألف فى ذلك كتابه فى الإمامة الذى افتتحه بقوله أعز ما يطلب وصار هذا المفتتح لقباً على ذلك الكتاب وأحل بطرابلس أول بلاد المغرب نصا بمذهبه ذلك مظهرًا التكبر على علماء المغرب فى عدولهم عنه وأخذ نفسه بتدريس العلم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما استطاع حتى لقى بسبب ذلك أذيات فى نفسه احتسبها من صالح عمله ولما دخل بجاية[1] وبها يومئذ العزيز ابن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة وكان من المقترفين فأغلظ له الإشاعة فى النكير وتعرض يومًا لتغيير بعض المنكرات فى الطرق فوقعت بسببها هبة أنكرها السلطان والخاصة وأءتمروا به فخرج منها خائفًا ولحق بملالة على فرسخ منها وبها يومئذ بنو ورتكلل من قبائل صنهاجة وكان لهم اعتزاز ومنعة فآووه وأجاروه وطلبهم السلطان صاحب بجاية بإسلامهم إليه فأبوا وسخطوه وأقام بينهم يدرس العلم أيامًا وكان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارعة الطريق قريبًا من ديار ملالة وهى لهذا العهد معروفة وهناك لقية كبير صحابته عبد المؤمن بن علي

(١): بجاية: مدينة جزائرية على ساحل البحر شرق الجزائر كانت عاصمة دولة بنى حماد الصنهاجية عدة قرون.

حاجا مع عمر فاعجب بعمله وانتهى عزمه عن وجه ذلك واختص به وشمر للأخذ عنه وارتحل المهدى إلى المغرب وهو فى جملة أصحابه فبلغ تلمسان وقد تسامع الناس بخبره فاحضره القاضى بها ابن صاحب الصلاة ووبخه على منتحله ذلك وخلافه لأهل قطره وظن أن من العدل نزعه عن ذلك فصم عن قبوله واستمر على طريقه إلى فاس ثم إلى مكناس ونهى بها عن بعض المناكير فأوقع به الشر من الغوغاء فأوجعوه ضربًا ولحق بمراكش وأقام بها آخذا فى شأنه ولقى علي بن يوسف بالمسجد الجامع فى صلاة الجمعة فوعظه واغلظ له القول ولقى ذات يوم الصورة أخت علي بن يوسف حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين فى زى نسائهم فوبخها ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه ففاوض الفقهاء فى شأنه بما وصل إليه من شهرته وكانوا ملئوا منه حسدًا وحفيظة لما كان ينتحل مذهب الأشعرية فى تأويل المتشابه وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف على إقراره كما جاء ويرى أن الجمهور لقنوه تجسيما ويذهب إلى تكفيرهم وهو أحد قول الأشعرية فى التكفير بالرأى فاغروا الأمير به واحضروه للمناظرة معهم فكان له الفتح والظهور عليهم وخرج من مجلسه وأنذر بالشر منهم فلحق من يومه بأغمات وغير المناكير على عادته وأغرى به أهلها علي بن يوسف وطيروا إليه بخبره فخرج منها هو وتلاميذه الذين كانوا فى صحابته ودعا إسماعيل بن أبكيك من أصحابه وخرج به إلى صناجات من جبال المصامدة لحق أولاً بسفيوه ثم بهشاشة ولقيه من أشياخهم عمر بن يحيى بن محمد وأنود بن علي وهو ابو حفص ويعرف بيته فى هشاشة ببيت فاصكات ويقول نسابتهم أن فاصكات هو جد وأنود بن المشانه بلسانهم يتنهى فلذلك كان يعرف عمر وسيأتى الكلام على تحقيق نسبه عند ذكر دولتهم ثم رحل المهدى عنهم إلى ابكبلن من بلاد هرعة فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة وبنى رباطا للعبادة واجتمعت إليه الطلبة والقبائل فعلمهم المرشدة فى التوحيد باللسان البربرى وشاع أمره فى صحبه واستدرك العلم والفقه بمجلس الأمير علي بن يوسف وهو مالك بن وهيب فاغراه به وكان حزاء ينظر فى النجوم وكان الكهان يتحدثون بأن ملكاً يأتى بالمغرب لأنه من المغرب ويتغير فيه شكل السمكة لقران بين الكوكبين الطويين والسيارة يقتضى ذلك فى

أحكامهم وكان الأمير يتوقعهـا فقال: احتفظوا بالدولة من هذا الرجل فإنه صاحب القـرآن والدرهم المربع في كلام سـفسـاق بمسجـع سوقى يتناقل الناس نصـه وهو أجعل على رجله كيلا لئلا يسمعه طبلاً وأظنه صاحب الدرهم المربع فطلبه علي بن يوسف ففقده وسرح الخيالة في طلبه فـفاتهم ودخل عامل السوس وهو أبو محمد اللمتونى بعض سرعة في قتله ونذر بهم إخوانهم فنقلوا إلى معقل أشياعهم وقتلوا من داخل أمرهم ودعوا المصامدة إلى بيعتـه على التوحيد وقتال المسلمين دونه سنة خمس عشرة وخمسمائة فتقدم إليـها رجالاتهم من العشيرة وغيرهم وكان فيهم من هشاشـة أبو حفص عمـر بن يحيى وأبو يحـيى بن يكتب ويونس بن واندين وأبى يعمـور ومن تملل ابو حفص عمـر بن علي أصناك ومحمـد بن سليمان وعـمر بن تافراكين وعـبد الله بن ملويان واوهب قبيلة هرعة فـدخلوا فى أمره كلهم ثم دخل معهم كيدموية وكنفسية ولما كملت بيعـته لقبوه بالمهدى وكان لقبه قبلها الإمام وكان يسمى أصحابه الطلبة أهل دعوته الموحدين ولما تم له خـمسون من أصحابه سماهم آية الخمسين فـزحف إليهم عامل السوس أبو بكر بن محمـد اللمتونى بمكانهم من هرعة فـاستجاشـوا بإخوانهم من هشاشة فـاجتمعـوا إليهم وأوقعوا بعـسكر لمتونة فكانت هزيمة الفتح وكان الإمام يعدهم بذلك فاستـبصروا فى أمره وتسابق كافتهم إلى الدخول فى دعوته وترددت عساكر لمتونة إليه مرة بعد أخرى ففضوهم، وانتقل لثلاث سنين من بيعـته إلى جبل تملل فأوطنه وبنى داره ومسـجده بينهم وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا فقاتل أولاد هزواجة وأوقع بهم مراراً وأجابوا بالطاعة ثم قاتل هسكورة ومعهم أبو لوقة اللمتونى فغلبهم وقفل فاتبعه بنو يزكيت فأوقع بهم الموحدون وأثخنوا بهم قتلاً وأسراً ثم غزا بلد عجرامة وكان قد افتـتحه وترك فيـه الشيخ أبا محمـد عطية من أصحـابه فغدروا به وقتلوه فـغزاهم واستباحهم ورجع إلى تملل وأقام به إلى أن كان شأن الشير وميز الموحد من المنافق وكانوا يـسمونه لمتـونة الحشم فـاعتـزم على غزوهم وجـمع كافة أهل دعـوته من المصامـدة وزحف إليهم فلقـوه بكبكب وهزمهم الموحـدون وأتبعوهم إلى أغـمات وهناك زحوف لمتونة مع بكر بن علي بن يوسف وإبراهيم بن علي بأغمات فهزمهم الموحدون وقُتل إبراهيم وتبعوهم مراكش فنزلـوا البحيرة فى زهاء أربعين ألفًا كلهم

رجال إلا أربعمائة فارس واحتفل علي بن يوسف الأحشاد وبرز إليهم للأربعين من نزولهم وخرج عليهم من باب أبلاق فهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وسبيًا وفقد العشيرة من أصحابه واستمر القتل فى هيلانة وأبلى عبد المؤمن فى ذلك اليوم البلاء وكانت وفاة المهدى لأربعة أشهر بعدها وكان يسمى أصحابه بالموحدين تعريضًا للمتونة فى أخذهم بالعدول عن التأويل وحيلهم إلى التجسم وكان حصورًا لا يأتى النساء وكان يلبس العباءة المرقعة وله قدم فى التقشف والعبادة ولم يحفظ عنه فلتة فى البدعة إلا ما كان من وفاقية الإمامية من الشيعة فى القول بالإمام المعصوم انتهى ما فى العبر.

وقال ابن خلكان فى وفيات الأعيان وما نصه هو: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المنعوت بالمهدى صاحب دعوة بنى عبد المؤمن بن علي بالمغرب تقدم فى ترجمة عبد المؤمن طرف من خبره وكان ينسب إلى حسن بن علي بن أبى طالب رضى الله عنه وهو من جبال السوس من أقصى بلاد المغرب ونشأ بها ثم رحل إلى المشرق فى شبيبته طالبًا للعلم فانتهى إلى العراق واجتمع بأبى حامد الغزالى والكيا الهراس والطرطوشى وغيرهم وحج وأقام بمكة المكرمة مدة مديدة وحصل طرفًا صالحًا من علوم الشريعة والحديث النبوى وأصل الفقه والدين وكان ورعًا ناسكًا متقشفًا مخلولقًا كثير الأطراب بسامًا فى وجوه الناس مقبلاً على العبادة لا يصحب من متاع الدنيا إلا عصا وركوة وكان شجاعًا فصيحًا فى اللسان العربى والمغربى شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع لا يقنع فى أمر الله بغير إظهاره وكان مطبوعًا على الاشتداد بذلك متحملاً للأذى من الناس بسببه وناله بمكة شئ من المكروه لأجل ذلك فخرج منها إلى مصر وبالغ فى الإنكار فزاد فى إيذائه وطردته الدولة وكان إذا خاف من البطش وإيقاع القتل به خلط فى كلامه فينسب إلى الجنون فخرج من القاهرة إلى الإسكندرية وركب البحر متوجهًا إلى بلاده وكان قد رأى فى منامه وهو فى بلاد الشرق كأنه شرب ماء البحر جميعه كرتين فلما ركب فى السفينة شرع فى تغيير المنكر على أهل السفينة وألزمهم بإقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن ولم يزل على ذلك حتى انتهى إلى المهدية(*)

(*) المهدية: مدينة تونسية تقع على البحر المتوسط شمال شرق تونس الخضراء.

إحدى مدائن إفريقية وكان ملكها يومئذ الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وذلك سنة خمس وخمسمائة هكذا وجدته في تاريخ القيروان ولما تقدم في ترجمة الأمير تميم والد يحيى المذكور أن محمداً المذكور جاز في أيام ولايته بإفريقية عند عودة من المشرق وكنت وجدته أيضًا والله أعلم بالصواب ولم يدخل المشرق مرتين حتى يحمل ذلك على دفعتين فإن كان عدوه في سنة خمس كما ذكرناه فهو في ولاية الأمير يحيى لأن الأمير تميم توفي في سنة إحدى وخمسمائة كما تقدم في ترجمته وإنما نبهت عليه لئلا يتوهم الواقف عليه أنه فاتني ذلك وهو متناقص فرأيته في تاريخ الأكزرين الغبطي لوزير حلب وهو مرتب على السنين ما صورته في هذه السنة، وكان في آخر سنة إحدى عشرة وخمسمائة خرج محمد ابن تومرت من مصر بعد الطلب بها وبغيرها ووصل إلى بجاية والله أعلم بالصواب. ولما وصل إلى المهدية نزل في مسجد معلق وهو على الطريق ونزل في طارق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة فلا يرى منكراً من الملاهي وأواني الخمور إلا نزل إليها وكسرها فتسامع الناس به في البلاد فجاءوا إليه وقرأوا عليه كتبًا من أصول الدين وبلغ خبره الأمير يحيى فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه وأجله وسأله الدعاء فقال له: أصلحك الله لرعيتك ولم يقم بعد ذلك بالمهدية إلا أيامًا يسيرة ثم انتقل إلى بجاية فأقام بها مدة وهو على حاله بالإنكار فأخرج منها إلى بعض قراها واسمها سلا فوجد بها عبد المؤمن بن علي القيسي المقدم ذكره وفي كتاب المُغْرب في سيرة ملوك المغرب أن محمداً بن تومرت كان قد أطلع على كتاب علوم يسمى الجفر وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس وهو من قرابة رسول الله ﷺ يدعو إلى الله يكون مقامة ومدينته بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه ت ى ز م ل ورأى فيه أيضًا أن استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكنه على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة فأوقع الله في نفسه أنه القائم بأول الأمر وان أوانه قد أزف مما كان محمد يمر بموضع إلا سأل عنه ولا رأى أحدًا إلا أخذ اسمه وتفقد حليته وكانت حلية عبد المؤمن معه فبينما هو في

الطريق رأى شابًا قد بلغ أشده على الصفة التى معه فقال له محمد بن تومرت وقد تجاوزه: فما اسمك؟ فقال: عبد المؤمن فرجع إليه وقال الله أكبر أنت بغيتى فنظر فى حليته فوافقت ما عنده فقال له: من أين أنت؟ فقال له: من كومية فقال: أين مقصودك قال: الشرق فقال: ما تبغى؟ قال: أطلب علمًا وشرفًا قال: وجدت علمًا وشرفًا وذكرًا أصحبنى تنله فوافقه على ذلك فألقى إليه بجملة أمره وأودعه سره وكان محمد بن تومرت قد صحب رجلاً يسمى عبد الله الونشريسى ممن تهذب وقرأ على الفقهاء وكان جميلاً فصيحًا فى لغة الغرب وأهل المغرب فتحدث يومًا فى كيفية الوصل إلى الأمر المطلوب فقال محمد بن تومرت لعبد الله: أن تسر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن الناس وتظهر العجز واللكن والحصر والبعد عن الفضائل مما تشتهر به عند الناس لتتخذ الخروج عن ذلك واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة ليقوم ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه فنصدق بما تقوله ففعل عبد الله ذلك ثم إن محمدًا تخلص من أهل المغرب أجلادًا فى القرى السمانية أغمارا وكان أميل إلى الأغمار من أولى الفطن والاستبصار فاجتمع له منهم ستة سوى عبد الله ثم إنه دخل إلى أقصى المغرب واجتمع بعبد المؤمن بعد ذلك وتوجهوا إلى مراكش وملكها يومئذ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين وقد سبق ذكر والده فى ترجمة والد المعتمد بن عباد وكان ملكًا عظيمًا حليمًا ورعًا عادلاً متواضعًا وكان بحضرته رجل يقال له ملك بن وهب الأندلس فشرع ابن تومرت فى الإنكار على جرى عادته حتى أنكر على أبيه المُلك وله فى ذلك قصة يطول شرحها فبلغ خبره الملك، وإنه يحدث فى تغيير الدولة فتحدث مالك بن وهب وقال: نخاف من باب يعسر علينا سده والرأى أن نحضر هذا الشخص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء الأدب فأجاب الملك إلى ذلك وكان ابن تومرت وأصحابه مقيمين بمسجد خراب خارج البلد فطلبهم فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده: سلوا هذا الرجل ما يبتغى منا؟ فانتدب إليه قاضى المدينة واسمه محمد بن أسود فقال: ما هذا الذى يذكر عنك من الأقوال فى حق الملك العادل الحليم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله على هواه؟ فقال: له ابن تومرت أما ما نُقل عنى فقد قلته ولى من ورائه أقوال وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله على هواه وينقاد إلى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه ليعلم بتعر (كذا) يدعى هذه الصفة أنه مغرور بما

يقولون له وتضرونه به مع علمكم ان الحجة عليه متوجهة فهل بلغك يا قاضى ان الخمر تُباع جهاراً ويمشى الخنازير بين المسلمين وتؤخذ أموال اليتامى وعدد من ذلك شيئًا كثيرًا فلما سمع الملك ذلك ذرفت عيناه واطرق حياء ففهم الحاضرون من مجرى كلامه أنه طامع فى المملكة ولما رأوا سكوت الملك وإنخداعه لكلامه لم يتكلم أحد منهم فقال مالك بن وهب وكان كثير الأجتراء على الملك: إن عندى لنصيحة إن فعلتها حمدت عاقبتها فقال الملك: وما هى؟ قال: إنى خائف عليك من هذا الرجل وأرى أن تعتقله وأصحابه وتنفق عليه كل يوم ديناراً لتكفى شره وإن لم تفعل لينفقن عليك خزائنك ثم لا ينفعك ذلك فوافقه الملك على ذلك فقال له وزيره: يقبح عليك أن تبكى من موعظة هذا الرجل ثم تسئ إليه فى مجلس واحد وأن يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لا يملك سد جوعه فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره وصرفه وسأله الدعاء. وحكى صاحب المغرب فى اخبار أهل المغرب أنه لما خرج من عند الملك لم يزل وجهه تلقاء وجهه إلى أن فارقه فقيل له: نراك قد تأدبت مع الملك إذا لم توله ظهرك فقال: إنى لا يفارق وجهى الباطل حتى اغيره اهـ كلامه فلما خرج ابن تومرت واصحابه من عند الملك قال لهم: لا مقام لنا بمراكش مع وجود مالك ابن وهب فما نأمن أن يعاود الملك فى أمرنا فينالنا منه مكروه وإن لنا بمدينة أغمات أخا فى الله فنقصد المرور به فلا نعدم منه رأيا ودعاءً صالحًا واسم هذا الشخص عبد الحق بن إبراهيم وهو من فقهاء المصامدة فخرجوا إليه ونزلوا عليه وأخبره ابن تومرت خبرهم وأطلعه على مقصدهم وما جرى لهم مع الملك فقال عبد الحق: هذا الموضع لا يحميكم وإن أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد تينمل وبيننا مسافة يوم فى هذا الجبل فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكركم فلما سمع ابن تومرت هذا الأسم تجدد له ذكر اسم الموضع الذى رآه فى كتاب الجفر فقصده مع أصحابه ولما اتوه رآهم اهله على تلك الصورة فعلموا أنهم من طلاب العلم فقاموا إليهم واكرموهم وتلقوهم بالترحاب وانزلوهم فى اكرم منازلهم وسأل الملك عنهم بعد خروجهم فقيل له: إنهم سافروا فسره ذلك وقال: تخلصنا من الإثم بحبسهم ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول ابن تومرت إليهم وكان قد سار فيهم ذلك فجاءوا من كل فج عميق وتبركوا بزيارته وكان كل من استدناه عرض

عليه ما فى نفسه من الخروج على الملك فإن أجابه أضافه إلى خواصه وإن خالفه أعرض عنه وكان يستميل الأحداث وذوى الغرة وكان ذوو الحكم والعقل من أهاليهم ينهونهم ويحذرونهم من اتباعه ويخوفونهم من سطوة الملك فإنه لا يتم له مع ذلك حال وطالت المدة وخاف ابن تومرت من مفاجأة الأجل قبل البلوغ الأمل وخاف أن يطرأ على أهل الجبل من جهة الملك ما يحوجهم إلى تسليمه إليه والتخلى عنه فشرع فى إعمال الحيلة فيما يشاركونه فيه ليعصوا على الملك بسببه فرأى بعض أولاد القوم شقرًا زرقا وألوان آبائهم السمرة والكحل فسألهم عن سبب ذلك فلم يجيبوه فألزمهم بالإجابه فقالوا: نحن من رعية هذا الملك وله علينا خراج فى كل سنة يصعد مماليكه إلينا ينزلون بيوتنا ويخرجوننا عنها ويختلون بمن فيها من النساء فتأتى الأولاد على هذه الصفة وما لنا قدرة على دفع ذلك عنا فقال ابن تومرت: والله إن الموت خير من هذه الحياة وكيف رضيتم وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالحربة؟ فقالوا: بالرغم لا بالرضا فقال: أرأيتم لو أن ناصرًا نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون؟ قالوا: كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت قالوا: من هو؟ قال: ضيفكم يعنى نفسه فأخذ عليهم العهود والمواثيق واطمأن قلبه ثم قال لهم: استعدوا لحضور هؤلاء بالسلاح فإذا جاؤوكم فأجروهم على عاداتهم وخلوا بينهم وبين النساء وميلوا عليهم بالخمور فإذا سكروا فأتونى بهم فلما حضر المماليك وفعل بهم أهل الجبل ما أشار به ابن تومرت وكان ليلاً فأعلموه فأمر بقتلهم فلم ينهض من الليل سوى ساعة حتى أتو على آخرهم فلم يفلت منهم سوى مملوك واحد كان خارج المنازل لحاجة له فسمع التكبير عليهم والوقوع بهم فهرب من غير الطريق حتى خلص من الجبل ولحق بمراكش وأخبر الملك بما جرى فندم على فوات ابن تومرت من يده وعلم أن الحزم كان مع مالك بن وهيب فيما أشار به فجهز من وقته خيلاً بمقدار ما يسع وادى تينمل فإنه ضيق المسلك وعلم ابن تومرت أن لابد من عسكر يصل إليهم فأمر أهل الجبل بالقعود على أنقاب الوادى ومراصده واستنجد لهم بعض المجاورين فلما وصلت الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبى الوادى مثل المطر وكان ذلك من أول النهار إلى آخره وحال بينهم الليل فرجع العسكر إلى الملك وأخبروه بما تم لهم فعلم أن لا

طاقة لهم بأهل الجبل وعند ذلك استدعى الونشريسى وقال: هذا أوان إظهار فضائلك دفعة واحدة ليقوم لك مقام المعجزة لتستميل قلوب من ليس يدخل تحت الطاعة ثم اتفقا على أن يصلى الصبح ويقول بلسان فصيح بعد استعمال العجمة واللكنة تلك المدة: أنى رأيت البارحة فى منامى أنه قد نزل ملكان من السماء وشقا فؤادى وغسلاه وحشياه علما وحكمة وقرآنا فلما أصبح فعل ذلك وهو فصل يطول شرحه وانقادوا له صعب القياد وعجبوا من حاله وحفظه القرآن فى النوم فقال له ابن تومرت: عجل لنا البشرى فى أنفسنا وعرفنا أسعداء أم أشقياء فقال له: أما أنت فإنك المهدى القائم بأمر الله ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك ثم قال: اعرض عليّ أصحابك حتى أميز لهم أهل الجنة من أهل النار وعمل فى ذلك حيله قتل بها من خالف ابن تومرت وأبقى من أطاعه وشرح ذلك يطول، وكان غرضه أن لا يبقى فى الجبل مخالف لابن تومرت فلما قتل من قتل علم ابن تومرت أن فى الباقين من له أهل وأقارب قتلوا فرأى أن يطيب قلوبهم فجمعهم وبشرهم بانتقال مُلك مراكش إليهم واغتنام أموالهم فسرهم ذلك وسلاهم عن أهلهم. وبالجملة فإن تفصيل هذه الوقعة طويل ولسنا بصدد ذلك وخلاصة الأمر أن ابن تومرت لم يزل حتى جهز جيشًا عدد رجاله ما بين عشرة آلاف فارس ورجل وفيهم عبد المؤمن والونشريسى وأصحابه كلهم وأقام هو الجبل فنزل القوم لحصار مراكش وأقاموا عليها شهرًا وكسروا كسرة شنيعة وهرب من سلم من القتل وكان فيهم سالمًا عبد المؤمن وقتل الونشريسى وبلغ ابن تومرت الخبر وهو بالجبل وحضرته الوفاة قبل عود أصحابه إليه فأوصى من حضر أن يبلغ الغائبين أن النصر لهم وأن العاقبة حميدة فلا يضجروا وليتعاودوا القتال وأن الله تعالى سيفتح على أيديهم والحرب سجال وأنكم ستقوون وتعلون وتكثرون وانتم فى مبدأ أمركم وفى آخره ومثل هذه الوصايا وأشباهها وهى قصة طويلة ثم إنه توفى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ودفن فى الجبل وقبره مشهور يزار وكانت ولادته يوم عاشوراء سنة خمس وثمانين وأربعمائة وأول ظهوره ودعائه إلى هذا الأمر فى سنة أربع عشرة وخمسمائة قال صاحب كتاب المغرب فى أخبار أهل المغرب فى حقه بيت من شعر:

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه

له قدم فى الثرى وهمة فى الثريا ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون ماء المحيا، أغفل المرابطون حله وربطه حتى دب دبيب الفلق فى العسق وترك فى الدنيا دويًا وانشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم لكان ليعتريه فيها غير مسلم وكان قوته من غزل اخت كل يوم رغيفا بقليل سمن أو زيت ولم يشغل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا ورأى أصحابه يومًا قد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه فأمر بذلك جميعه وأحرقه وقال: من كان يبتغى الدنيا فما له عندى إلا ما رأى ومن تبعنى على الآخرة فجزاؤه على الله تعالى وكان على خمول زيه وبسطة وجهه مهيبًا منيع الحجاب إلا عند مظلمة وله رجل مختص بخدمته والأذن عليه وكان له شعر فمن ذلك قوله:

أخذت بأعضادهم إذ نأوا وخلفه القوم إذ ودعوا
فكم أنت تنهى ولا تنتهى وتسمع وعظا ولا تسمع
فيا حجر الشحذ حتى متى تسن الحديد ولا تقطع

وكان كثيراً ما ينشد:

تجرد من الدنيا فإنك إنما خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد

وكان يتمثل أيضًا بقول أبى الطيب المتنبى :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس رد ربحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

وبقوله :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

وبقوله :

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

ولم يفتح شيئًا من البلاد وإنما قدر القواعد ومهدها ورتبها ووحدها وكانت الفتوحات على يد عبد المؤمن كما تقدم ذكره فى ترجمته والهرغى بفتح الهاء والراء وبعدها غين معجمة هذه النسبة إلى هرغة وهى قبيلة كبيرة من المصامدة فى جبل السوس فى أقصى المغرب تنسب إلى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه يقال أنها نزلت فى ذلك المكان عندما فتح المسلمون البلاد على يد موسى بن نصير السالف ذكره وتومرت بضم التاء المثناة من فوق وسكون الواو وفتح الميم وبعدها تاء مثناه من فوق وهى اسم بربرى والونشريسى بفتح الواو وسكون النون وفتح الشين المعجمة وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحت وبعدها سين معجمة هذه النسبة إلى ونشريس(*) وهى بلدة بإفريقية من أعمال بجاية فيما ذكره ابن خلكان. ثم أعلم أنه لما كان عبد المؤمن بن على هو عضد دولة المهدى وقيام أمره وولى عهده فى حياته وبعد موته فمن المناسب أن نذكر ترجمته بأثره وبيان ما انتهى إليه أمره مما كان فى نفس أستاذه مما عمده عليه فأقول هو أبو محمد بن عبد المؤمن ابن على القيسى الكومى الذى قام بأمر محمد بن تومرت المعروف بالمهدى كان والده وسطا فى قومه وكان صانعًا فى عمل الطين يعمل منه الآنية فيبيعها وكان عاقلاً من الرجال وقوراً ويحكى أن عبد المؤمن فى صباه كان نائمًا وأبوه مشتغل بعمله فى الطين فسمع أبوه دويًا من السماء فرفع راسه فراى سحابة سوداء من النحل قدهوت مطبقة على الدار فنزلت كلها مجتمعة على عبد المومن وهو نائم فغطته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ فرأته أمه على تلك الحال فصاحت خوفًا على ولدها فسكتها أبوه فقالت: أخاف عليه فقال: لا بأس عليه بل إنى متعجب بما يدل عليه ذلك؟ ثم غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينظر ما يكون من أمر النحل فطار عنه بأجمعه فاستيقظ الصبى وما به من ألم فتفقدت أمه جسده فلم تر به أثرًا ولم يشك إليها ألما! وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر فمضى أبوه إليه فأخبره بما رآه بالنحل مع ولده فقال الزاجر: لا يوشك أن يكون له شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب فكان من أمره ما اشتهر وفى بعض تواريخ أهل المغرب أن ابن تومرت كان قد ظفر بكتاب يقال له الجفر وفيه ما يكون على يده

(*) الونشريس: اسم جبال معروفة شمال غرب الجزائر الآن.

وقصة عبد المؤمن وحليته واسمه وأن ابن تومرت أقام مدة يطلبه حتى وجده وصحبه وهو إذ ذاك غلام وكان يكرمه ويقدمه على أصحابه وأفضى إليه بسره وانتهى به إلى مراكش وصاحبها يومئذ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ملك الملثمين وجرى له معه فصول يطول ذكرها وأخرجه منها فتوجه إلى الجبال وحشد اشتات المصامدة وبالجملة فإنه لم يملك شيئًا من البلاد بل عبد المؤمن ملك بعد وفاته بالجيوش التى جهزها ابن تومرت والترتيب الذى رتبه وكان أبدًا يشعر فيه التجلة وينشد إذا أبصره:

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها ... فكلنا بك مسرور ومغتبط
السن ضاحكة والكف مانحة ... والنفس واسعة والوجه منبسط

وكان يقول لأصحابه صاحبكم هذا غلاب الدول ولم يصح عنه أنه استخلف به بل راعى أصحابه فى تقديمه ما أشار به فتم له الأمر وكمل وأول ما أخذ من البلاد وهران ثم تلمسان ثم فاس ثم سلا ثم سبتة ثم انتقل بعد ذلك إلى مراكش وحاصرها أحد عشر شهرًا ثم ملكها وكان أخذه لها فى أوائل سنة اثنين وأربعين وخمسمائة واستوثق له الأمر ما امتد ملكه إلى المغرب الأقصى والأدنى وبلاد إفريقية وكثير من بلاد الأندلس وتسمى أمير المؤمنين وقصد إليه الشعراء وامتدحوه بأحسن المدائح، وذكر العماد الأصبهانى فى كتاب الخريدة أن الفقيه أبا عبد الله محمد أبى العباس السمانى لما أنشده:

ماهر عطفيه بين البيض والأسل ... مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

أشار إليه بأن يقتصر على هذا البيت وأمر له بألف دينار ولما تمهدت له القواعد وانتهت أيامه خرج من مراكش إلى مدينة سلا[1] فأصابه بها مرض شديد وتوفى فى العشر الأخير من جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وكانت مدة ولايته على دولة الموحدين ثلاثا وثلاثين سنة وأشهرًا وكان عند موته شيخًا

(١) سلا: تقع شمال الرباط على شاطئ المحيط الأطلسى وهى الآن ضمن العاصمة المغربية.

نقي البياض ونقلنا من تاريخ فيه سيرته وحليته فقال مؤلفه رأيته شيخًا معتدل القامة عظيم الهامة أشهل العينين كث اللحية شثن الكعبين طويل القعدة واضح بياض الأسنان. والكومى بضم الكاف وسكون الواو بعدها ميم هذه النسبة إلى كومة وهى قبيلة صغيرة من قبائل البربر نازلة بساحل البحر من أعمال تلمسان ومولده بقرية هناك يقال لها باجرة .

وقد علم أن مشاهير ملوك تلمسان ثلاثة كل منهم اسمه عبد القوى إثنان شريفان أحدهما موسوى حسينى والثانى إدريسى حسنى زيانى والثالث راشدى توجانى فأما الموسوى الحسينى فهو عبد القوى بن عبد الرحمن بن إدريس بن موسى بن إسماعيل بن موسى الكاظم رضى الله عنه المتوفى فى حدود الثلاثمائة أو ما فى حكمها. وأما الإدريسى الحسنى الزيانى فهو عبد القوى بن محمد بن عبد الرحمن ابن يوسف بن زيان القصبى التالتوتى . . .إلخ المتوفى فى حدود التسعمائة أو ما يقرب منها وأما التوجانى المتوفى فى حدود سبعة وأربعين وستمائة فلنفرد كل واحد من الثلاثة بفصل مخصوص مقدمًا الشريفين ومؤخرًا الراشدى التوجانى لكونه لم يكن له مُلك حقيقى على تلك المدينة المذكورة وإنما كانت ولايته محاربة كما سيأتى فى فصله.



فى ذكر الشريف عبد القوى
الموسوى الحسينى





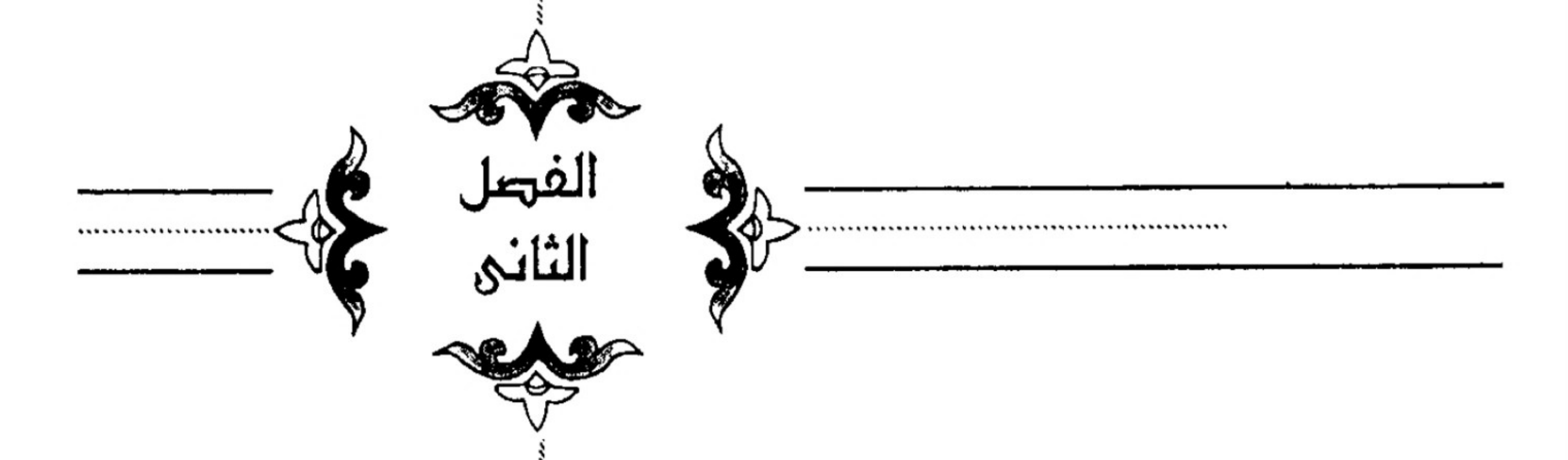
الفصل الأول

فى ذكر الشريف عبد القوى الموسوى الحسينى

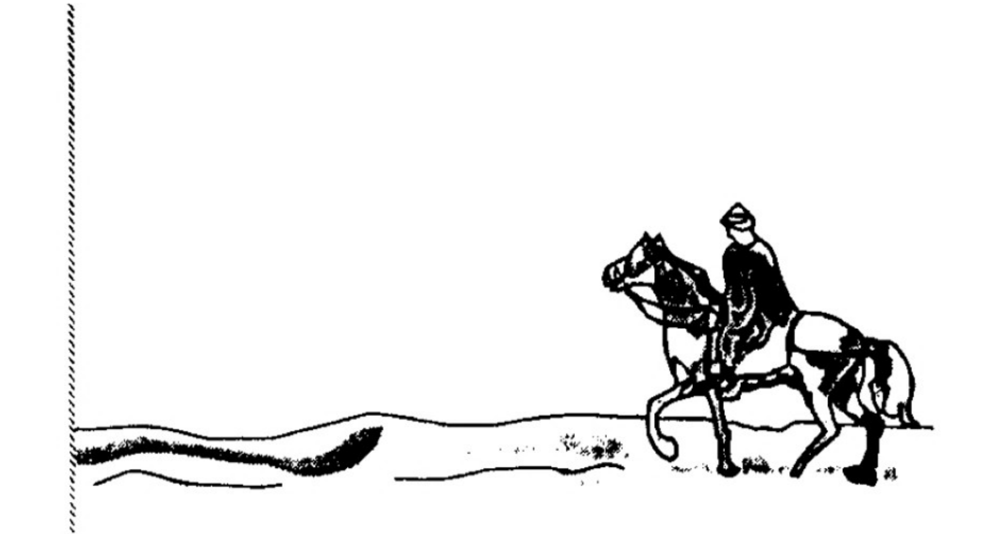
اعلم أن الشريف عبد القوى هذا وهذه المدينة كانت لأسلافه قبله وبها قبورهم وآثارهم فإنه كان أبوه الشريف عبد الرحمن بها ملكا وبعد وفاته ولى بها ولده المذكور وأقام مدة مديدة وسنين عديدة وكانت سيرته حميدة كسيرة والده وجده قبله وكان فقيهًا متبحرًا في جميع العلوم فارسًا شديد البأس لا يقاومه أحد فى الحروب مع شدة فيض كرمه وحسن شيمته سريع الغضب قريب الرضى فإنه لما مات والده الشريف عبد الرحمن المذكور خلف أربعة أولاد: أحمد وعبد القوى ومحمد الشراط وزيان. فأما أحمد فأولاده بمكة. وأما محمد الشراط فأقام فى مدينة تاهرت. وأما زيان فأقام فى مدينة تيارت. وأما الشريف عبد القوى فأقام فى المُلك بعد موت أبيه بقطر تاقدمت كما مر ومن هؤلاء الأربعة تناسل الشريف الحسينى فى تلك النواحى من بعض نواحى الصحراء والسواحل والريف وتلمسان وتونس وغيرها فإن مولاى عبد القوى لما مات ترك سبعة أو ثمانية أولاد محمد الكبير وعلي وأحمد وعبد السلام وعبد الرزاق وزيان ومحمد الثانى وعبد القوى الصغير وهم صرحة واحدة ثم إن أولاد عبد القوى المذكورين تفرقوا. فأما السيد محمد الكبير فأقام فى المُلك بعد موت أبيه ومنه انقطع ملك بنى عبد الرحمن بن إدريس بتاقدمت وهو ولى سنة ٦٩٨ هـ وتوفى سنة ٧٢١ هـ وأما علي فقد انتقل بإزاء شلق وأما أحمد وزيان فقد انتقلا بإزاء تونس وأما محمد الثانى وعبد السلام وعبد الرزاق فقد انتقلوا إلى مدينة فاس فشاع خبرهم بها حتى سمع بهم أميرها موسى بن أبى العافية البربرى فبعث إليهم قائدًا من قواده فقبض محمدًا الثانى وقتله بالغدر والخديعة وقد خلف ولدًا ابن عشرين يومًا فخرجت به جارية له فى كمها اسمه حمامة، فقال لها الخادم: ما عندك أيتها الجارية؟ فقالت: ما عندى شئ إلا خبزة برقوق نحيى بها النفس التى حرم الله وفرت إلى بطيوة وأقامت به بإزاء جبل الحديد وأما أولاد عبد الرازق وعبد السلام ومحمد الثانى أولاد عبد القوى المذكور هاهنا بعض عقب إسماعيل بن موسى الكاظم إنما هو من ولده موسى وجده وفيه كما ستراه بعد. قال: فمنهم أولاد جعفر بن موسى

الكلثميون وهم بمصر والشام الآن، وأولاد موسى الكاظم فرق مديدة في أماكن عديدة فمنهم فرقة في مكة ومنهم فرقة في تلمسان ومنهم فرقة في نواحي وادي شلق ومنهم في فاس ومنهم فرقة في تونس ومنهم فرقة في التركمان ومنهم فرقة في العراق وهم صرحة واحدة ومنهم غير ذلك فأما أهل مكة فجدهم اسمه علي ابن أحمد بن عبد الرحمن بن إدريس بن موسى بن إسماعيل بن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ. ومن أهل تلمسان فرقة يقال لهم أولاد الطاهر السقلي صاحب تلمسان وانتقلت ذريته إلى فاس فهم المعروفون بالسلقيين ومنهم فرقة في قبائل بن مطهر فجدهم جميعًا الشريف طاهر السقلي ابن علي الفقيه ابن يحيى بن علي بن الحسن بن محمد قاضي الجماعة ابن إسماعيل بن الطاهر ابن موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وأما أهل نواحي وادي شلق فمنهم أولاد السيد محمد بن عبد القوى المتولى المُلك بعد أبيه ومنهم أولاد سيدى علي بن يحيى الولي المشهور والنور المأثور وقد خلف اثنى عشر ولدًا سيدى خليفة والأزرق وعبد العزيز ومحمد وأحمد ويحيى وعبد الرحمن وأبو القاسم وعيسى وعبد الله وعمر وعمران بن الجارية وهم صرحة واحدة فجدهم اسمه علي بن يحيى بن راشد بن فرقان بن حساين بن سليمان بن أبى بكر بن مؤمن بن محمد بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن إدريس بن موسى بن إسماعيل بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن زين العابدين بن الحسين السبط بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ويحيى والد على المذكور هو ابن راشد صاحب جبل بني وليد فتقطب اثنتي عشرة سنة ثم توفي رحمة الله عليه وخلف أربعة أولاد وبنتًا: يحيى ويعقوب وعبد الجبار وعلي وفاطمة. فأما يحيى فانتقل بإزاء وادي شلق وهناك تفرعت أولاده المذكورين وأما يعقوب فبإزاء جبل نزاره وأما فاطمة فتزوجت محمد الفقيه في بني وليد فجدهم جميعًا اسمه راشد ابن فرقان بن حساين بن سليمان بن أبى بكر بن موسى بن محمد بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن إدريس بن إسماعيل بن موسى بن عبد الله بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن زين العابدين بن الحسين السبط بن علي وفاطمة بنت

رسول الله ﷺ وأما عبد الله الملقب بابن سفانة المستقر فى رأس العين عند أولاد داوود الحميرى ثم الحسنى فى قبائل بنى مطهر فهو من ذرية سيدى علي بن يحيى ابن راشد ويلحق بهم بعضهم ممن يجتمع معهم فى محمد بن عبد القوى فمنهم أولاد سيدى موسى بن أحمد البريشى أصله فى تاقدمت المعروف بقبائل بنى عامر فاسمه محمد بن علي بن محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد ابن أبى القاسم بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن إدريس بن إسماعيل بن سليمان بن موسى بن عبد الله بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ومنهم أولاد محمد بن هلال بن محمد المكى خلف ستة أولاد أولهم هلال بن محمد بن هلال وعلى بن محمد بن هلال وهلال بن محمد بن هلال وعلي بن محمد بن هلال وأما أحمد بن هلال فانتقل بإزاء فرجان من ناحية المشرق وأما هلال بن محمد بن هلال فانتقل إلى الصحراء ثم انتقل إلى المغرب بإزاء أنجاد فى قبائل شجيع وأما ابن هلال فانتقل إلى المغرب الأقصى وأما محمد بن هلال وعبد الله بن هلال وعلى بن هلال فهم أهل مدينة القيروان فجدهم اسمه محمد بن هلال بن إدريس بن غالب بن محمد المكى بن إسماعيل بن محمد بن أبى القاسم ابن على بن محمد بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن إدريس بن إسماعيل بن سليمان بن موسى بن عبد الله بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على بن زين العابدين بن الحسين السبط بن على وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وهذه شجرة أصلهم : علي بن يحيى بن راشد بن فرقان بن حساين بن سليمان بن سليمان بن أبى بكر بن موسى بن محمد بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن إدريس بن موسى ابن إسماعيل بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ .



فى ذكر الشريف عبد القوى الإدريسى الحسنى



الفصل الثانى

فى ذكر الشريف عبد القوى الإدريسى الحسنى

فى ذكر الشريف عبد القوى الإدريسى الحسنى الزيانى القصبى التالوتى أحد ملوك إقليم مدينة تاقدمت قاعدة المغرب الأوسط المذكورة قبل وهو آخر ملوكها، وهذه البلدة كان لها شأن عظيم وذكر جسيم فى السابق لما اشتملت عليه من المحاسن فى إقليمه وما بها من الرياض والقصور والمساكن وقد ذكر لها المؤرخون أخباراً طويلة وحكايات جزيلة يطول ذكرها وما اشتمل عليه صقعها وقد استوفى غالب ما لها قديمًا وحديثًا بحسب وقته الإمام الهمام المازونى صاحب الدرر المكنونة فى كتاب له فى ذلك والشريف الزيانى المذكور كان لأسلافه وأجداده فى محله الآتى ذكره من القدر العظيم والجاه الجسيم والمهابة والوقار والمكانة والاستكبار ما يقصر عنه اللسان ويعجز عن تفصيله رسم البنان قبل ملكهم تلمسان وبعده أما محل أسلافه وقرار أوائله فهم أهل القصبة قصبة تالوت بإقليم الصحراء بأعالى أواسطها بنواحى وادى سسلم ونهر واصل وما يلى ذينك من أطراف إقليم تلك النواحى فهى مقر أسلافهم وأوائلهم بعد انتقالهم من محل أسلافهم الأول عمران ابن إدريس وبنيه الذى هو الريف وبادس حصته مع إخوته العشرة حيث قسمها بينهم أخوه الأمير مولاى محمد بن إدريس بأمر جدتهم وسيأتى إشارة لشئ من ذلك وأما سبب نقلتهم وحلولهم بإقليم تلك المدينة الآتى ذكرها فهو أنهم لما انقضى ملكهم بتلمسان ومما حصل لهم بها مما يأتى ذكره رجعوا إلى محلهم المذكور وكان الراجع إليه جد الشريف المذكورة وهو السيد يوسف بن زيان وكانت له أولاد بعد ذلك ولم يبق منهم إلا الشريف عبد الرحمن بن يوسف المذكور فهو الذى انتقل إلى تاقدمت المذكورة وولى إمارتها وولد له الشريف عبد القوى المذكور فنشأ بها صالحاً خيراً مباركًا شجاعًا كريمًا عالماً بعلوم جمة كتابًا وسنة وفقهًا مع علوم شتى تقصر عنها أطول يد لغيره فيها وله من الذكاء والفطنة وحسن السيرة ما ليس لغيره من أهل وقته قاطبة وهو الذى أقامها واستفحل ملكه بها وبقى بها مدة مديدة فى سنين عديدة فى سعود وإقبال وأمن وأفضال وقد أعاد لها من إحسانها ما قد وهى واندثر مما خربه طوائف أجلاف العرب وقبائل البربر ثم إنه لما تم بها أمله انقضى أجله بعد أن خلف ولدين محمداً ومنداسا أما منداس فسيأتى خبره وأما

محمداً فقد أقام بها على ما كان أبوه وجده ومنه انقطع مُلك بنى عبد الرحمن بها وتفرقت أولادهم عنها. هذا إجماله وأما تفصيله فهو ما ذكره الإمام الهمام أبو المكارم محمد بن عبد الله بن خلدون التلمسانى فيما أبداه فى تحقيق الأصول كما فى شرح سلاسل الفصول قائلاً ما خلاصة معناه: أن الشريف المذكور أصله من شرفاء بنى زيان أهل القصبة (قصبة تالوت) بأعالى الصحراء بنواحى وادى سسلم ونهر واصل وما يلى ذينك من تلك النواحى وهى مقر أسلافهم وأوائلهم ولهم بها قدر عظيم وجاه جسيم ولبعضهم بعض إقامات بمدينة تلمسان سيما حيث صار لهم بها ملك عظيم وسلطان جسيم مما يزيد بقرب مائة سنة ومع ذلك ما رفضوا مقارهم المذكورة ومنازلهم المشهورة قال ثم إن الشريف زيان القصبى التالوتى الذى هو مرجع نسب تلك القبيلة وأصلها وبه سميت فهو الشريف زيان بن زين العابدين بن يوسف بن إدريس الآتى تمام نسبه وكان أسلاف الشريف زيان المذكور المسمى به بنوه إنما يعرفون بشرفاء تالوت وتارة بأشراف قصبة تالوت وتالوت هذا اسم بلد عظيم ومواضع ومحال أقوام به وأحواله قصور وقرى ومدارس كانت معمورة بأهاليها وأما قصبتها فهى خاصة بأشراف أوائل الشريف زيان المذكور وإنما حدثت لهم النسبة الزيانية بسببه وسائر بلد تالوت كان به علماء الهمام القدوة الإمام أبو الحسن علي بن محمد التالوتى الأنصارى أحد شيوخ الشيخ محمد السنوسى صاحب العقائد وأخوه لأمه ومنهم الفقيه العلاّمة الهمام العابد الملازم الصيام والقيام أبو العباس أحمد بن عمر التالوتى الأنصارى وأخوه الناسك الأبر أبو الحسن علي بن عمر الأنصارى والثلاثة المذكورون من أصحاب محمد الهوارى دفين وهران رضى الله عنه ولهم معه أخبار طويلة فى كرامات جزيلة وكانت وفاته سنة ٨٤٣ هـ وبعضهم أخ للشيخ السنوسى وما وقع خراب بلد تالوت وقصبتها إلا بعد ذلك المذكور ومنهم تركنا ذكرهم خوف الإطالة ولم تزل بعد معمورة إليها ينسبون غالب أهلها أنصار وأشراف إلى اختلال نظام المُلك بها بسبب مُلك الأشراف بتاقدمت كما مر وتغلب الأعراب عليها ونواحيها بعد التاريخ المذكور فى حدود العاشر وما يقاربها وأما الآن فهى مداثر بلاقع وأطلال رسوم شواسع أسوارها واقعة عليها ومراسم ديار لا أنيس بها غير أسماء سكانها الفاضلة القديمة بأسماء أقوام سالفة ذميمة شأنهم الغارات ونقض الذمم وخفر العهود ودناءة الهمم

ليس لهم مبالاة بالدين ولا اعتبار لهم بسنن سيد المرسلين بعد أن كانت بها رياض العلوم زاهرة وأفنانها يانعة مثمرة القرآن بها رواياته محررة أى تحرير والأحاديث مضبوطة أصولها وفروعها مقررة أى تقرير وكتب أصول المذهب القدماء لايخالطها تبديل ولا تغيير وقد مر بتلك الديار وغالب الظن أنها تقدمت رجل صالح عالم بالحديث والتفسير والفقه حافظ لكتاب الله محقق لرواياته السبعة بل العشرة وكان ذلك الرجل لا يفتر لسانه عن ذكر الله وتلاوة كتابه فقام يتهجد يصلى ويتلو وكان مبيته بقرب المقبرة فكشف له عن قبور الصالحين بها أنوار ساطعة تخطف الأبصار بأقبية قبورهم عديدة وسالهم فى منامه هل فيكم من يحفظ القرآن؟ فأجيب بأن غالب من حواليك من القبور من المهرة به رجالاً ونساء وأقرب ما إليه بسبعمائة جارية ممن يحفظ بجميع رواياته العشرة ويحفظن المدونة عن ظهر قلب وأما الأحرار من الرجال والنساء فلا يحصون كثرة وكان سبب ملكهم لتلمسان أن الشريف المذكور كان له سطوة عظيمة وطول يد عميمة مع شدة شكيمة فى الدين وإقامة دعائمه مع تمام الشفقة والرأفة بالمسلمين وكان له أربعة أولاد على نهجه وسبيله وتضلع كتاب الله وسنة رسوله الشريف أحمد والشريف يوسف والشريف عبد الله والشريف زيان وكان لهم أيضًا مع ذلك من الشهرة وشدة الشكيمة فى الدين والقيام بوظائفه والوقوف على حدود فى أنفسهم وتابعيهم والسطوة التامة والقوة العامة فى قطرهم المذكور الموروث لهم عن أسلافهم ثم إنه جرت أمور عظام وأسباب اقتضت طلب أهل تلمسان من الأشراف المذكورين تولية أحد منهم عليهم فى بلادهم لإقامة الدين وحقن الدماء وحفظ أموال المسلمين لعلمهم باستحقاقهم ذلك دون غيرهم فأجابوهم بعد الإباية وعقد الشروط المنعقدة بينهم واستكمل شرائط البيعة فكان أول من تولى منهم سلطنة تلمسان ومكث ثلاثين سنة فى أقوم حال وأتمه وأنعم عيش وارغده هو الشريف أحمد بن زيان المذكور وتخلف ابنه يوسف من بعده عشر سنين كذلك ثم إنه جرت خطوب بينه وبين بنى مرين فتغلبوا عليه وهجموا عليه فقتلوه وهدموا القصبة المعدة لهم بها وفر عمه زيان لذلك فرجع إلى بلاده المذكورة وقد خلف الشريف يوسف بن أحمد المقتول أولادًا منهم محمد وحمزة وأحمد مع أمهم فبقيت أمهم عيون لهم فى البلد وهم فروا بأنفسهم لبلادهم فى الصحراء ومكثوا فيها حتى تراجع أمرهم وتناسبت أحوالهم واشتدت شوكتهم

واجتمع عليهم حشمهم ونصرتهم طوائف البربر وقبائل العرب وراموا افتكاك ملكهم وقوى اهتمامهم بأخذ ثأرهم من عدوهم ولم تزل أمهم وعيونهم تحثهم على ذلك وتراسلهم المرة بعد المرة ليغنموا الفرصة بالرجوع إلى مُلكهم إما بقهر القوارع المزعجات الدافعة أو بما يمكن من أنواع الاحتيالات النافعة وأعداؤهم فى غياهب عنهم غارون ولإنقراض من كان يناوئهم بمحلهم آمنون مع طول زمان الوقائع الكائنة من أسلافهم وأمهم وعيونهم لهم أشراف واطلاع على اختلال أحوال أعدائهم وأنهم إن امتثلوا لهم نالوا مرادهم فامتثلوا الأمر وساروا إليهم من محلهم بأموالهم وعددهم ومن أمكن من حشمهم وخلفائهم حتى انتهوا قريبًا من المدينة على صفة الأعراب المنتجعين الطالبين رعى مواشيهم فى سوائح البلد وصحاراهم فتسامع الناس بهم على الوضف المذكور وخرج لهم خلص أحبابهم للقائهم والسلام عليهم حتى بعض عظماء بنى مرين خرجوا إليهم ولقوهم بقرية بيدر وضيفوهم بعظيم الأطعمة وكرائم الطرف وأنواع الأشربة وجلائل التحف ثلاثة أيام ثم رجع الناس كلهم بنو مرين وغيرهم فاجتمعوا مع خلص عيونهم وأمهم ومن معها خفية وأصحاب تدبيرهم فتشاوروا كيف السبيل إلى حصول مرادهم فاقتضى رأيهم أنهم يهجمون على عدوهم كما هجم عليهم فهجموا على أعدائهم وهم غارون فدخلوا البلد واستولوا عليها فحمدوا الله وهم له شاكرون فغنموا من ذلك ما غنموا وقتلوا ما قتلوا وفر بنو مرين وحزبهم منهزمين إلى مدينة فاس. ثم إن أولاد الشريف يوسف بن أحمد بن زيان المذكور عقدوا البيعة لأخيهم الشريف أحمد المذكور ومكث بها ملكًا نحو ثلاث سنين ثم لما اطمأنوا واستكانوا بعثوا إلى عمهم الشريف زيان المذكور ليقدم عليهم فسار جاد السير إليهم من الصحراء فقطع من وادى سسلم إلى تلمسان فى أربعة أيام وترك أولاده فى حوز تالوت القصبة مع النساء والصبيان فاجتمع معهم فجعلوا لذلك مهرجانًا عظيمًا واستلحقوا من شاءوا من أهلهم وأولادهم وجعلوا مهرجانا آخر ومكثوا على ذلك مدة مديدة فى أيام سعيدة ثم دارت الدوائر وانقلبت العشائر وثارت الفتن ونشر بيت المحن فى أسباب يطول شرحها فآل أمرها إلى موت السلطان أحمد بن السلطان يوسف بن السلطان أحمد بن زيان المذكور وأمه وإخوانه وأولاده فى جم غفير منهم وأنصارهم ثم إن أهل تلمسان بعد ذلك

جعلوا أحد موالى زيان بن زيان المذكور سلطانا فبقى سلطانا نحواً من أربعين سنة ثم استغلظ أمر بنى مرين وكادوا يحيطون بالمدينة وصاروا يتأهبون لقتالهم ويفسدون عليهم أنصارهم بالرشا يراسلون ويبعثون بذلك للعرب والبربر قبيلة قبيلة حتى أتت إليهم جميع العرب بنجدة وقوة وأحاطوا بهم وحاصروهم نحواً من أربع سنين فانتهكت تلمسان وهلكت وضاعوا بالجوع فالتقى الجمعان فانهزم جمعهم وانقلبوا مدبرين ودخل بنو مرين على من هناك من بنى زيان القصبيين التالوتيين وقتلوا السلطان زيان وأخاه الشريف عبد الله وهرب السيد يوسف أخوهم إلى بلدهم المذكورة سالمًا فتمكن بنو مرين منهم أى تمكن وغنموا ما عندهم وهدموا القصبة واستقر أمر بنى مرين فى مملكتهم بتلمسان والظاهر أن بنى مرين هؤلاء هم بنو وطاس منهم لان بنى مرين الأول أعنى بنى عبد الحق ومن فى معناهم كان أعظم ملكهم للثمانمائة والمائة التاسعة والخمسون بعدها لبنى وطاس منهم فالجملة تسعمائة وخمسون وما كان لبنى زيان المذكورين ولاية على تلمسان إلا بعد انقضاء أمر بنى عبد الوادى بها كان انقضاؤه فى أواخر الثامنة كبنى مرين الأول فتبين أن أمر بنى زيان القصبيين إنما كان مع بنى وطاس منهم أو مع الطرفين والله أعلم وسيأتى لذلك مزيد بيان ثم إن السيد يوسف المذكور لما بلغ مأمنه بوصوله لموضع أسلاف ابيه وجده أبى زيان بن زين العابدين مكث فيه وتزوج أربع عشرة امرأة ولم يولد منهن سوى ياقوتة بنت عبد الله بن جعفر فولدت له عشرة أولاد وثلاث بنات فبقى منهم عبد الرحمن ومات الباقون فانتقل عبد الرحمن إلى تاقدمت ونزل فى عين الطوغ وحصل له بها من التعظيم والجاه الجسيم ما هو معروف لهم فى أسلافهم السابقين فتزوج حسنة بنت عامر القرشى فولدت له عبد القوى وجعفر واحمد ومن هؤلاء الثلاثة تفرعت فروع شرفاء بنى زيان وتفرعت أولاده الثلاثة فأما السيد جعفر بن عبد الرحمن فسار قاصداً ناحية المشرق حتى نزل وادى الذهب فى المكان المعروف بوادى عام وأمر ببناء قصر الذهب فمن بناه السيد محمد بن عبد الله المعروف ويقال لذريته المقارنة وأما السيد أحمد بن عبد الرحمن فسار ونزل ببلاد القبائل المقربين من مدينة الجزائر الحالية ببعض شوامخ جبالها واستقر بها وله بها أولاد ويقال لذريته البراكنة منهم الولى الصالح سيدى أحمد بركان فجدهم السيد أحمد البركانى بإزاء مليانة فاسم جد كل من المقارنة والبراكنة السيد عبد الرحمن

ابن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس بن عبد الله ابن أحمد بن محمد بن عبد الله بن حمزة بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة ابن علي بن عمران بن إدريس ابن إدريس الأكبر ابن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وأما الشريف عبد القوى فأقام يعنى سلطانًا فى مدينة تاقدمت ثلاثين سنة ومات وترك اثنين من أولاده محمداً ومنداسا، فأما محمد فتولى السلطنة بتاقدمت من بعد أبيه مدة مديدة ومات بها وبقيت ذريته بإزاء تاقدمت ونواحيها، ومنه انقطعت السلطنة بها لبنى زيان القصبيين وأما منداس فدخل العبادة فى بلدة تلك على عادته من دوام النسك والانقطاع إلى الله تعالى ومات بها وترك ولدين أحمد الملقب بالمرابط وأخاه يوسف فأما الشريف يوسف فذهب وسار من بلاده إلى بلاد بنى ماحون بنواحى البحر وتزوج فيها ومات ولم تبق له ذرية وأما الشريف مرابط فكأنه انتقل هو وبنوه إلى نواحى وادى شلق بنو منازل قبائل السويد وترك السيد راشدا هناك وبها توفى وقبره مشهور مزور بسوائح ظهر الملح منها والسيد راشد المذكور خلف ثلاثة أولاد السيد يحيى وعبد الله ويوسف فعبد الله ويوسف لم يبق لهما ذرية وأما السيد يحيى فخلف ولده السيد علي المشهور المكنى بأبى العسل وقبره مشهور مزور لقصة لهم فى ذلك والسيد علي خلف ولده الشريف خطابًا العلامة الهمام القدوة الإمام جد آل خطاب قاطبة وقبره مشهور هنالك بملتقى وادى شلق ووادى مينة وهو ولد الشريف الأبر القطب الأكبر السيد عبد الله النقابى المذكور المتولى القطبانية وهو دفين ثغر بلد مستغانم(*) الكائنة بساحل البحر المعروف بالمطمر منها وما عمر تلك البلد إلا بعد حلوله بها وإنما كان ذلك البلد قبل محلا لرباط المجاهدين فى سبيل الله وثغرًا من ثغور المحتسبين لرباط الله وكان السيد المذكور نزوله وإقامته بها لذلك وحصل له فى ذلك المحل وقبله من الكرامات مالا يحويه كتاب وبذلك الثغر توفى وقبره مشهور مزور وله قبر آخر كذلك بقرية عيذب بساحل تلك البلد شرقيها لقصة عندهم مشهورة له فى ذلك وقد خلف خمسة أولاد بتلك النواحى لكل منهم كرامات شهيرة ومناقب أثيرة يعلمها الخاص والعام من أهل وطنهم متواترة عندهم والخمسة الأولاد المذكورون كل منهم نال من الولاية العظمى حظًا وافرًا وقد

(*) مستغانم: مدينة جزائرية قرب الحدود المغربية وهى ساحلية على البحر المتوسط.

دعـا الله تعالى والدهم أن لا ينقطع عدد مراتب الخمسة الأولاد من بنيهم وبنى بنيهم إلى قيام الساعة فاستجيب له ولم تزل بركة ذلك مشاهدة فيهم عند الخاص والعام واسم جدهم جميعًا أعنى الخطابيين هو السيد عبد الله بن خطاب بن علي ابن يحيى بن راشد بن أحمد المرابط بن منداس بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن إدريس بن إدريس الأكبر ابن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ انتهى محصل كلام ابن خلدون التلمسانى.

قال بعضهم بعد ما ذكر من أول النسب إلى آخره ما نصه: وقد كنا نسمع من أعيان محل أولئك الأشراف أن سلسلتهم هذه تسمى عندهم بسلسلة الذهب وقد تواتر عندهم أن هذه السلسلة الخطابية العمرانية من أصح السلاسل وأتقنها من ابتدائها إذا لها طرفان وواسطة فالطرف الأول وهو من أحمد بن محمد إلى علي وفاطمة وهم ستة عشر فهذا لا ريب فيه لأحد لكون عمران هو بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة رضى الله عنهما والنسب المحقق الذى لا ريب فيه حسبما رتبه المؤرخون كابن خلدون ولكون عمران أيضا أعطى من بين أخوته أرض الريف وبادس وانتقل هو إليه وتناسلت أولاده هناك بهما فقد ذكروا كما مر وكما فى كتاب رفع التدليس عن بنى إدريس أن الإمام محمد بن إدريس لما قسم البلاد على إخوانه وعين لكل منهم محله المخصوص به واستوطن وترك ذريته به. وعليه فيكون الإمام عمران ولد عليا هناك أو قبله وهو ولد حمزة وحمزة ولد داود وهو ولد يعقوب وهو ولد سعيد ولد إدريس وإدريس ولد الحسن والحسن ولد يوسف ويوسف ولد زين العابدين وزين العابدين ولد زيان المذكور مُنشئ النسبة الزيانية كما مر ثم إن المنتقل من محله الأصلى المذكور لجدهم إنما هو فيما بين يعقوب والحسن إلى الديار القصبية التالوتية من هذا الطرف والله أعلم والطرف الثانى من عبد الله بن الخطاب إلى إدريس بن عبد الله وهى خمسة عشر وهى يقينية أيضًا بتنقلاتها ومقارها وأضرحتها بمواضعها المعروفة بها وأما الواسطة فهى ما بين إدريس وداود بن حمزة ابن علي بن عمران وهم عشرة وهؤلاء هم المنتقلون أو بعضهم عن محالهم ومحل

أبيهم المذكور إلى نواحي الصحراء إذ كانت معمورة بملوكها وأعرابها الخيرين الصالحين بها فنالوا بها من الأمن والراحة على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم من الهناء والدعة التي يقصر عنها الوصف والمتنقلون إلى ما ذكر منهم من محال أبيهم وتصاريف أمورهم وسيرهم مذكورة في مختصر الدر النفيس في أحوال الأئمة الاثنى عشر من بني إدريس، قال بعضهم وهذه الخمسة المذكورة وهي من التحقيق بمكان بحسب أصلها غير أنه وقع فيه اختلاف نسخ بالتقديم والتأخير منه ما تحرر لدينا اعتمادا على الأصول التي بأيدينا والله معين بمنه وكرمه آمين. وسوف نذكر ترجمة الشريف عمران بن إدريس الإمام رضي الله عنهما من أول أمره إلى منتهاه وتتبع أولاده ونقلاتهم في سائر أمكنتهم وأسباب ذلك لينكشف الغيب ويزاح الريب كسائر تراجم بني إدريس الاثنى عشر رضي الله عنهم ونتبع بنيهم وبني بنيهم إلى وقتنا ممن علمناه منهم وبتمامهم يتم الكتاب والله الموفق للصواب بمنه وكرمه آمين. وهذه شجرة آل خطاب(*) منهم حسبما أثبته ابن خلدون التلمساني وغيره هكذا: عبد الله بن خطاب بن علي بن يحيى بن راشد بن مرابط ابن منداس بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين ابن يوسف بن حسن بن إدريس بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن حمزة بن سعيد ابن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي ابن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ.

«تتمة»

اعلم أن لفظة بني زيان تطلق على قبائل عديدة وأنساب مديدة منهم شرفاء وعرب وبربر والمذكور في المحل اثنان.

الأول «بنو زيان» ملوك تلمسان وهم بنو عبد الوادي نسبة إلى زيان بن يوسف بن محمد بن زكريا الآتي ذكره وهم من زناتة ولهم حظ في الشرف على ما قال المقريزي في قلائد العقيان في أنساب عرب الزمان ونصه: ومن زناتة بنو

(*) آل الخطاب: ينسب لهم السنوسيّون «الأشراف» الذين كانوا ملوك ليبيا وكان جدهم قد مكث في برقة أثناء عودته إلى الجزائر قادمًا من مكة المكرمة وذلك في عام ١٨٣٧م ومن المعروف أن هؤلاء الخطاطبة قبيلة الآن في نواحي مستغانم غرب الجزائر.

عبد الوادى ملوك تلمسان القائمون بها الآن وهم بنو عبد الوادى بن بار بن محمد ابن رحيك بن واسير بن مسلمين بن سترين بن أكيابن بن أدد بن جانا وهو زناتة وأول من ملك منهم تلمسان جابر بن يوسف بن محمد بن زكريا بن بندركش بن طاع الله بن علي بن القاسم بن عبد الوادى ولم تزل فى أعقابهم وربما غلبهم عليها بنو مرين ملوك فاس التى صارت بيد سعد بن أبى حمو موسى بن يغمراسن بن زيان بن يوسف المذكور وأما قبله فإنما يعرفون ببنى عبد الوادى أصل نسبهم المشهور وهم أقدم زمانًا وأكثر ذكرًا عند المؤرخين وربما التبست النسبتان حتى غلط فى ذلك كثير فقد نسب العلامة التنيسى الشرف لبنى عبد الوادى وقد علمت أنهم بربر ليس لهم فى العربية أصل فضلاً عن الشرف ومثله ما قاله ابن خلدون فى العبر وفى مرآة المحاسن ما نصه: أول ملوك بنى عبد الواد بتلمسان يغمراسن أول المائة السابعة وفى آخرها آخر ملوكهم الأمير أحمد بن الأمير عبد الله سنة ٩٥٣ هـ وقال فى التعريف بالشيخ الإمام أبى الطيب الحسن بن يوسف بن يحيى ابن مهدى ابن محمد بن يوسف بن مهدى العبد الوادى قال أصله من بنى عبد الوادى إحدى قبائل زناتة المشهورة وهى التى كان لها المُلك والسلطنة فى تلمسان وما إليها من ولد يغمراسن بن زيان مقيم الدولة فى أوائل المائة السابعة ومهدها لبنيه بعده إلى أن تغلب الترك عليها وانتزعوها من أحمد بن عبد الله من أعقاب يغمراسن وقال العلامة الونشريسى ما نصه: قدم حسن بن خير الدين التركى واستولى على تلمسان أواسط شعبان سنة اثنين وخمسين وتسعمائة وأخرج منها الأمير أحمد بن الأمير عبد الله ووزيره منصور بن أبى غانم ولحقا بدبدو ومن انضاف إليها من أمراء تلمسان وكبرائها فغدرهم محمد بن يحيى يعنى المرينى صاحب دبدو وأخذ أموالهم واعتقهم وسرح منصور بن أبى محرم فى سنة ثلاث وخمسين ولا حاجة فى ذكر ما بعد ذلك من الأحداث التى لم تستقر كدخول الشرفاء ملوك المغرب إياها فإن الأمر استقر بها للترك إلى هذا التاريخ وهو سنة ست وأربعين والف. فكان جميع ملكهم بتلمسان إحدى وخمسين وثلاثمائة.

النسبة الثانية

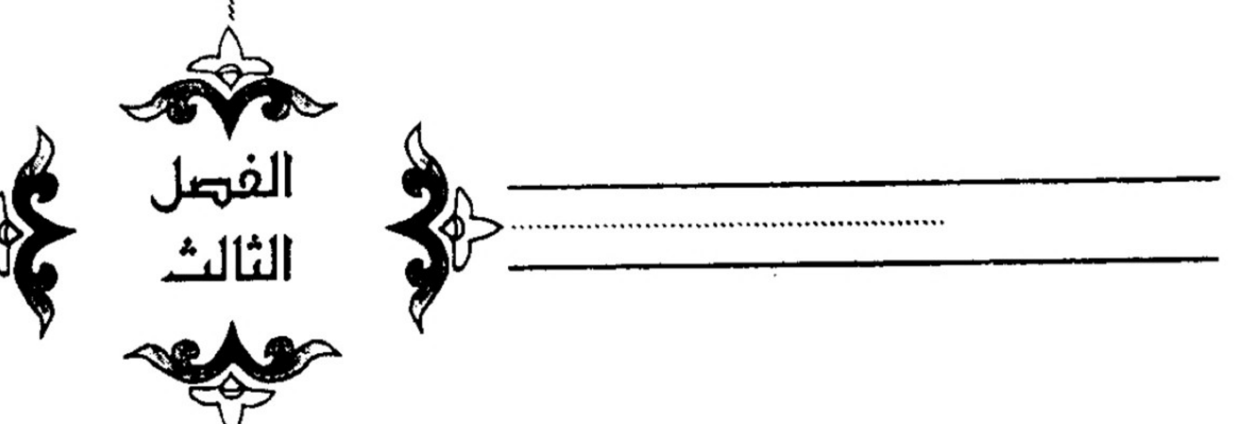
نسبة بنى زيان الأشراف الأدارسة القصبيين ممن جمع أسلافهم بين مُلك تلمسان ومُلك الصحراء على التعاقب إذ هم من بعض ملوك الصحراء مدينة

تاقدمت قاعدة صـحراء المغرب الأوسط (الجزائر حاليًا) آخـر ملوكها المذكورين فى الفصل الثـانى وقد علمت نسبـهم وما آل إليه أمـرهـم فيمـا نص عليه ابن خلدون التلمسانى ولم يكن لبنى زيان الأدارسة مُلك وسلطنة بتلمسان إلا بعد انقراض بنى زيان العبديين وانقـراض بنى مرين أعنى بنى عبد الحق إنما كـانت حروبهم مع بنى مرين الوطاسيـين فإنهم كان لهم المائة التاسـعة والخمسون بـعدها دل على ذلك ما سيأتى وما وجد مكتوبًا فى رخامة سـقطت من جسر الرسيف فى الوادى عام تسعة والف ونصه:

جـسـر الرسيف أبـو العبـاس جـدده فـخـر السـلاطين من بـنى وطاس
قـد جـاء فـى غـاية الاتقـان والمنا لمن يـمـر بـه من عـبـدوة فـاس
وقـد تـكامل بـنيـانه عـام عـنا من هجـرة المجـتبى المبـعوث للناس

كما فى القرطاس والمغرب وفى المرآة ما نصه آخر ملوك بنى مرين الوطاسيين وما إليهـا أبو العباس أحمد بن أبى عـبد الله محمد الشيـخ الوطاسى المرسى حيث أسـر أخوه فى وقـعـة وادى درنا للشـرفاء على بـنى وطاس فى رجب سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة ومات فى تلك الأيام القـريبة همًا وغمًا رحمه الله وتقدم بعض ذلك فأعلمـه وقد قال فيـها أيضًا: وقد التـقى الجمعـان على مشرع أبى عُقـبة من وادى العسـر مقاتلة فاس وسلـطانهم أحمد بن محـمد الوطاسى ومقـاتلة مراكش وسلطانهم أبو العـباس أحمـد بن محمـد الشريف المعـروف بالأعرج ومعـه أخوه السلطان بعـده أبو عبد الله مـحمـد الشيخ سنة ثلاث واربعـين وتسعـمائة فـانهزم السلطان أحمد الوطاسى وتفـرقت جموعه وتبعـته الخيل فكادوا يقبضونه فـحضره هنالك رجل على فرس يحول بينه وبينهم ويقول له سـر يا أحمد ولم يزل معه إلى أن نجا وقال فيها وكـان السلطان أبو المعالى زيدان صاحب مراكش ابن السلطان أبى العبـاس أحمد المنصور التـقى مع ولد أخيه صـاحب فاس السلطان محمـد الشيخ برؤوس الشعرب يوم الخمـيس السابع والعشرين من شوال عام سبـعة عشر والف فانهزم السلطان عـبد الله وفر إلى محلة أبيه على العرايش ثم رجـع إلى جهة فاس وانتهى إلى دار ابن مشعل من بلاد بنى يزناس واستولى عمه على محلته وسار إلى فاس فدخلها وأقام إلى أوائل سنة ثمان عشرة ورجع إلى مراكش واستخلف بفاس

العلج مصطفى باشا ثم إن السلطان عبد الله زحف إلى فاس فخيم مصطفى بظاهرها من ناحية باب الفتوح وعرض لصاحب الترجمة عارض من الأمور العامة جاء فيه وتردد إلى المحلة فركب إليها يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الثانى سنة ثمان عشرة وألف فالتقى الجمعان بين الظهرين يومئذ فانجلت الحرب على قتل مصطفى وفقد صاحب الترجمة رضى الله عنه، وقد تقدم بعض ذلك فاعلمه وقد ذكر فى تاريخ العبر أن كلاً من بنى عبد الوادى وبنى مرين من زناتة أما بنو عبد الوادى فقد تقدم نسبهم وأما بنو مرين فقال المقريزى أيضًا فى الجمان قبل ذلك ما نصه: من زناتة بنو مرين بفتح الميم وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناه تحت نون فى الآخر وهم بنو مرين بن ورتاجى بن ماخوخ بن فاتى بن بدر بن بحت بن عبد الله بن درفيص بن المعز بن إبراهيم بن رحيك بن واشق بن القلين ابن سر بن زكريا دريك بن أربدت بن جانا وهو زناتة ومن بنى مرين بنو عبد الحق ملوك المغرب الأقصى الآن المستقرون بمدينة فاس وهم بنو عبد الحق بن يحيى بن أبى بكر بن خالد بن محمد بن روصيص بن فكرس بن كونان طريق ابن بدر المتقدم ذكره وأول من ملك منهم السلطان أبو سعيد بن عثمان بن عبد الحق استولى على بعض نواحى المغرب ثم قتل فى سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وملك بعده مدينة فاس أخوه محمد بن عبد الحق ثم تداولتهم أعقابهم إلى أن كان منهم السلطان أبو الحسن المرينى فى حدود أيام الناصر محمد بن قلاوون فعظم سلطانه واتسعت مملكته ولم يزل يتنقل فى أعقابهم إلى أن صار الأمر فيهم إلى السلطان أبى سعيد عثمان ابن أبى العباس أحمد ابن السلطان أبى الحسن ابن السلطان أبى سعيد عثمان ابن أبى العباس أحمد ابن السلطان أبى سالم ابن السلطان أبى الجسن ابن السلطان أبى سعيد عثمان ابن أبى يعقوب بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق. انتهى قول المقريزى.



في أخبار عبد القوي بن العباس الراشدي التوجاني الزناتي



الفصل الثالث

فى ذكر اخبار عبد القوى بن العباس الراشدى التوجانى الزناتى ثالث الثلاثة المذكورة

وملكه مجازى بالنسبة لتلك البلد المذكورة بحيث كان له الحل والعقد بها والإقامة بها فى حال قيامها بأسوارها وقصبتها خلال أسواقها ومساجدها وأربطتها المعدة لذخائرها وجندها وعساكرها، وإنما كان متغلبا على أوطانها وسوائحها فى حال دثورها وإنحلال أمرها فصار ملكه بها مجازيًا على سبيل التغلب لأعرابها وقراها ومن انزوى إليها وإنما كان ملكه بدويا لم يفارق فيه سكنى الخيام ولا أبعاد النجعة ولا ائتلاف الرحلتين يتنابون فى مشاتيهم إلى ميزاب[1] والزاب[2] ونحوهما فى المغرب الأوسط وينزلون فى المصائف بلادهم هذه من التل والتى تغلبوا عليها وانشريس ومنداس وتافركيت وما حوالى ذلك مثل الجيبات وتاوعزوت وغيرها ولم يكن له فى جميع ذلك قرية مخصوصة وإنما كان لما غلب مغراوة على جبل وانشريس اختط حصن مرات بعد أن كان منديل المغراوى شرع فى اختطاطه فبنى منه القصبة فأكمله ولده محمد بن عبد القوى من بعده وسيأتى جميع ذلك مفصلاً فى كلام ابن خلدون فإنه ذكر فى كتابه العبر ترجمة عبد القوى المذكور ونسبه وقومه بنى توجين بأتم بيان وأوضح تبيان وله فى كل من الطبقات الثلاث الآتية أخبار ونقلات له ولقومه ذكرنا جميعها كذلك.

ونص كلام ابن خلدون فى ذلك مبتدئًا بالأول الخبر عن بنى توجين من شعوب بنى بادين من أهل هذه الطبقة الثالثة من زناتة وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب الأوسط وأولية ذلك ومصائرة كان هذا الحى من أعظم أحياء بنى بادين وأوعرهم عدوا وكانت مواطنهم خفافير وادى شلق قبله جبل ونشريس من أرض السرسو وهو المسمى لهذا العهد نهر واصل وكان بأرض السرسو بجهة المغرب منه بطون من لواتة وغلبهم عليها بنو وجدخى ومطماطة ثم صارت أرض السرسو

---

(١) ميزاب: إقليم صحرواى فى جنوب الجزائر به واحات من النخيل اشهرها غرداية والقرارة ومتليلى، وتسكنه قبائل عديدة من البربر وهم على المذهب الأباضى، وقبائل من العرب البادية تنسب إلى بنى سُليم العدنانية اشهرها «الشعانبة»، وينسب لها مُعد الكتاب.

(٢) الزاب. إقليم صحراوى جزائرى يقع شمال شرقى ميزاب عاصمته بسكرة

موطن بنى راشد وجبل دراك فى جانب القبلة وكانت فيهم الرياسة أيام صنهاجة لعطية بن دافلتن وابن عمه لقمان بن المعتز كما ذكره ابن الرفيق ولما كانت فتنة حماد بن بلكين مع عمه باديس ونهض إليه باديس من القيروان حتى احتل بوادى شلق تحيز بنو توجين هؤلاء وكان لهم فى حروب حماد آثار مذكورة وكان لقمان ابن المعتز أظهر من عطية بن دافلتن وكان قومهم يومئذ زهاء ثلاثة آلاف وأوفد لقمان ابنه بدر على باديس قبل اللقاء طاعة له وانحياشا فلما انهزم حماد ادعى لهم باديس انحياشهم إليه وسوغ لهم ما غنموه وعقد للقمان على قومه ومواطنه وعلى ما يفتحه من البلاد ودعوته ثم انفرد برياستهم بعد حين بنو دافلتن ويقال أن دافلتن ابن أبى بكر بن الغلب وكانت رياستهم لعهد الموحدين لعطية بن مناد بن العباس ابن دافلتن وكان يلقب عطية الحيو وكانت بينهم لعهده وبين عبد الوادى حروب كان متولى كبرها من بنى عبد الوادى شيخهم لذلك العهد ابن القاسم فلم تزل الفتنة بينهم إلى أن غلبهم بنو عبد الوادى آخرًا على مواطنهم كما نذكره ولما هلك عطية الحيو قام بأمرهم ابنه أبو العباس وكانت له آثار فى الاجلاب على ضواحى المغرب الأوسط ونقض طاعة الموحدين إلى أن هلك سنة سبع وستمائة وقد بعث عامل تلمسان يومئذ أبو يزيد بن لوخان من اغتاله فقتله وقام بأمرهم من بعده ابنه عبد القوى فانفرد برياستهم وتوارثها عقبة من بعده كما نذكره وكان من أشهر بطون بنى توجين هؤلاء يومئذ بنو يدلاتن وبنو قمرى وبنو مادون وبنو زنداد وبنو قاصى وبنو مامت ويجتمع هؤلاء الثلاثة بنو سرغين ونسب بنى زنداد دخيل فيهم وإنما هم من بطون مغراوه وبنو منكوش هؤلاء منهم عبد القوى بن العباس بن عطية بن الحيو، هكذا رأيت نسبه لبعض مؤرخى زناتة المنكوشى. وكانت رياسة بنى توجين جميعًا عند انقراض أمر بنى عبد المؤمن لعبد القوى بن عطية الحيو واحياؤهم جميعًا تلك المجالات القبلة فلما وهى أمر بنى عبد المؤمن وتغلب مغراوه على بسائط متيجة(*) ثم على جبل ونشريس نازعهم عبد القوى هذا وقومه أمر ونشريس وغالبوهم إلى أن غلبهم عليه واستقر فى ملكهم وأوطنه بنو تيغرين وبنو منكوش من أحيائهم ثم تغلبوا على منداس وأوطنها أحياء بنى مدن جميعا وكان الظهور منهم لبنى يدلاتن ورياسة بنى يدلاتن لبنى سلامة وبقى بنو يزناتن من بطونهم

(*) متيجة : سهل شهير من سهول الجزائر ويقع فى جنوبه جبل الونشريس

بمواطنهم الأولى قبلة ونشريس وكان من أخلاف بنى عطية الحيو بنو تبعرين منهم خاصة وأولاد عزيز بن يعقوب يعرفون جميعًا بالوزراء ولما تغلبوا على الأوطان والتلول وأزاحوا مغراوة عن المدينة ووانشريس وتافركيت واستأثروا بملكها وملك الأوطان عن غربيها مثل منداس والجعبان وتواعزت وراسهم لذلك العهد عبد القوى بن العباس والكل لأمره فصار له ملك بدوى لم يفارق فيه سكنى الخيام ولا إبعاد النجعة ولا ائتلاف الرحلتين ينتالون فى مشاتيهم إلى مصاب الزاب وينزلون فى المصائف بلادهم هذه من التل، ولم يزل هذا شأن عبد القوى وابنه محمد إلى أن تنازع بنوه الأمر من بعده وقتل بعضهم بعضًا وتغلب بنو عبد الوادى على عامة أوطانهم وأحيائهم واستبد عليهم بنو يزناتن وبنو يدلاتن فصاروا إلى بنى عبد الوادي وبقى أعقابهم بجبل ونشريس إلى أن انقرضوا على ما نذكره بعد وكان عبد القوى لما غلب مغراوه على جبل ونشريس اختط حصن مرات بعد أن كان منديل المغراوى شرع فى اختطاطه فبنى منه القصبة ولم يكمله فأكمله محمد بن عبد القوى من بعده، ولما استبد بنو أبى حفص بأمر إفريقية وصار خلافة الموحدين نهض الأمير أبو زكريا إلى المغرب الأوسط ودخلت فى طاعته قبائل صنهاجة وفرت زناتة أمامه وردد إليهم الغزو فأصاب منهم وقبض فى بعض غزواته على عبد القوى بن العباس أمير بنو توجين فاعتقله بالحضرة ثم مَنّ عليه وأطلقه على أن يستألف له قومه فصاروا شيعة له ولقومه آخر الدهر ونهض الأمير أبو زكريا بعده إلى تلمسان فكان عبد القوى وقومه فى جملته حتى إذا ملك تلمسان ورجع إلى الحضره عقد لعبد القوى هذا على قومه ووطنه وأذن له فى إتخاذ الأدلة فكانت أول مراسم الملك لبنى توجين هؤلاء وكانت حالهم مع بنى عبد الوادى تختلف فى السلم والحروب ولما هلك السعيد على يد يغمراسن وقومه كما ذكرناه استنفر يغمراسن سائر أحياء زناتة فنفروا إلى المغرب ومسابقة بنى مرين إليه فبقى معه عبد القوى فى قومه سنة سبع وأربعين وانتهوا إلى تازى واعترضهم أبو يحيى بن عبد الحق أمير بنى مرين فى قومه فنكصوا واتبعهم إلى أى مكان فكان النقاء وانكشفت جموع بنى يادين وكانت الهزيمة التى ذكرناها فى أخبار بنى عبد الوادى وهلك عبد القوى مرجعه منها بالموضع المعروف بأحمون من مواطنهم وتصدى للقيام بعده بأمرهم ابنه يوسف فمكث فى تلك الإمارة اسبوعًا ثم قتله على جدث أبيه اخوه محمد بن عبد القوى وولى عهد أبيه سابع مواراته وفر ابنه صالح بن يوسف

إلى بلاد صنهاجة بجبال المدية فأقام بها هو وبنوه واستقل محمد برياسة بنى توجين واستغلظ ملكه وكان الفحل الذى لا يقرع أنفه ونازعه يغمراسن أمره ونهض إلى حربه سنة تسع وأربعين وعمد إلى حصن تافركينت فنازله بها يومئذ حافده علي بن زيان بن محمد فى عصابة من قومه فحاصره أياما وامتنعت عليه فرحل عنها ثم تواضعوا أوزار الحرب ودعاه يغمراسن إلى مثل ما دعا إليه أباه من غزو بنى مرين فى بلادهم فأجاب ونهضوا سنة سبع وخمسين ومعهم مغراوة فانتهوا إلى كلومان ما بين تازى وأرض الريف ولقيهم يعقوب بن عبد الحق فى جموعه فأكشفوا ورجعوا منهزمين إلى بلادهم كما ذكرناه وكانت بينه وبين يغمراسن بعد ذلك فتن وحروب فنازله فيها جبل وانشريس مرات وجاس خلال وطنه ولم يقع بينهما مراجعة لاستبداد يغمراسن بالمُلك وسموه إلى التغلب على زناته أجمع وبلادهم وكانوا جميعًا منحاشين إلى الدولة الحفصية وكان محمد بن عبد القوى كثير السلطان المنتصر ولما نزل النصارى الإفرنجة بساحل تونس سنة ثمان وستين وطمعوا فى تلك الحضرة بعث المنتصر إلى ملوك زناتة بالصريخ فصرفوا وجوههم إليه وخف من بينهم محمد بن عبد القوى فى قومه ومن احتشد من أهل وطنه ونزل على السلطان بتونس وأبلى فى جهاد العدو أحسن البلاء وكانت له فى أيامه معهم مقامات مذكورة ومواقف مشهورة وعند الله محتسبة ولما ارتحل العدو عن الحضرة واخذ محمد بن عبد القوى فى الإنصراف إلى وطنه أسنى السلطان جائزته وعم بالإحسان وجوه عساكره وأقطعه بلاد مغراوة وأوماش من وطن الزاب وأحسن منقلبه ولم يزل بذلك متعلقًا بطاعته ومستظهرًا على عدوه بالانحياش إليه. ولما استغلظ بنو مرين على يغمراسن بعد استيلائهم على أمصار المغرب واستمرارهم بملكه وصل محمد بهم فى الاستظهار على يغمراسن وأوجد ابنه زيان بن محمد عليهم، ولما نهض يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان سنة سبعين وأوقع يغمراسن فى الواقعة التى هلك فيها ابنه فارس نهض محمد بن عبد القوى للقائه ومر فى طريقه بالبطحاء وهى يومئذ ثغر لأعمال يغمراسن فهدمها وبقى يعقوب بن عبد الحق متلومًا عليها إلى أن يلحق محمد وقومه ببلادهم حذرًا عليهم من غائلة يغمراسن ففعل وملأ حقّابهم بإتحافه وعين لهم مائة من الجياد العتاق بالمراكب الثقيلة وأراح عليهم ألف ناقة حلوب وعمهم بالصلات والخلع الفاخرة واستكثر لهم من السلاح والفازات والأخبية والعملات وارتحلوا ولحق محمد بن عبد القوى

بمكانه من جبل وانشريس واتصلت حروبه مع يغمراسن وكثر أجلابه على وطنه وعينه فى بلاده وهو مع ذلك مقيم على موالاة يعقوب واتحافه بالعتاق من الخيل والمستجاد من الطرف حتى أن يعقوب اشترط على يغمراسن فى مهاداته أن يجعل سلمهم من سلمه وحربهم من حربه كان نهوض يعقوب بن عبد الحق سببًا لما اشترط عليه ذلك ، وحج فى قبوله فنهض إليه وأوقع به بخرزورة ثم أناخ عليه بتلمسان ووافاه هناك محمد بن عبد القوى فلقيه بالقصاب وعاثوا فى نواحى تلمسان نهبًا وتخريبًا ثم أذن يعقوب لمحمد وقومه فى الإنطلاق إلى بلادهم وتلوّم هو بمكانه من نواحى تلمسان مدة منجاتهم إلى مكانهم من وانشريس حذرًا عليهم من اعتراض يغمراسن ولم يزل شأنهما ذلك إلى أن هلك يغمراسن فى سدلونة من بلاد مغراوة خاتمة إحدى وثمانين وفى خلال ذلك استغلظ بنو مرين على بنى عبد الوادى واستوسق لمحمد هذا ملكه فتغلب على بلاد صنهاجة بجبال المهدية وأخرج الثعالبة من جبل ينطرى بعد أن غدر بمشيختهم وقتلهم فانزاحوا عنه إلى سباط متيجة وأوطنوها واستولى محمد على حصن المدية وهى المسمى بأهل المدية بفتح اللام والميم وكسر الدال وتشديد الياء بعدها وياء النسب فى آخرها وهم بطن من بطون صنهاجة وكان المختط لها بركين بن زيرى ولما تولى محمد عليها وعلى نواحيها أنزل أولاد عزيز بن يعقوب من حشمه بها وجعلها لهم موطنا وولاية وفر بنو صالح ابن أخيه يوسف بن عبد القوى من مكانهم بين صنهاجة منذ قتل أبوه يوسف كما ذكرناه ولحقوا ببلاد الموحدين بإفريقية فلقوهم مبرة وتكريمًا وقطعوا لهم بضواحى قسنطينة فى إيالة الملوك من آل أبى حفص يعسكرون معهم فى غزواتهم ويبلون فى حروبهم ويقومون بوظائف خدمتهم وكان الموالى من أولاد عزيز على المدية وموطنهم الأول ماخنون وكان بين يديه يدلاتن أيضا من بنى توجين قد استولوا على حصن الجعبات وقلعة تاوغزوت ونزل القلعة كبيرهم سلامة بن علي مقيمًا على طاعة محمد بن عبد القوى وقومه فاتصل مُلك محمد بن عبد القوى فى نواحى المغرب الأوسط ما بين مواطن بنى راشد إلى جبال صنهاجة بنواحى المدية وما فى قبلة ذلك من البلاد السرسو وحماله إلى أرض الزاب وكان يبعد الرحلة فى مشتاه فينزل الروسن ومغراوة والمسيلة ولم يزل دأبه ذلك ولما هلك يغمراسن سنة ٨١ كما ذكرناه استجدت الفتنة بين عثمان ابنه وبين عبد القوى على أثر ذلك سنة ٨٤ وولى من بعده ابنه سيد الناس فلم تطل مدة ملكه وقتله أخوه موسى من بعد

مهلك أبيه وأقام موسى بن محمد فى إمارة بنى توجين نحوا من عامين وكان من أهل مرات من أشد أهل وطنه شوكة وأقواهم غائلة فحدثته نفسه أن يستلحم مشيختهم ويريح نفسه من محاذرتهم فأجمع لذلك ونزلها ونذروا بشأنه ورأيه فيهم فاستماتوا جميعًا فثاروا به فقاتلهم ثم انهزم مثخنا بالجراح والجوع إلى مهاوى الحصن فتردى فيها وملك من بعده عمر ابن أخيه إسماعيل بن محمد مدة أربعة أعوام ثم غدر به أولاد عمه زيان بن محمد فقتلوه وولوا كبيرهم إبراهيم بن زيان وكان حسن الولاية عليهم يقال ما ولى بعد محمد فيهم مثله وفى خلال هذه الولايات استغلظ عليهم بنو عبد الوادى واشتدت وطأة عثمان بن يغمراسن عليهم بعد مهلك أبيهم محمد فنهض إليهم سنة ست وثمانين وحاصرهم بجبل وانشريس وعاث فى أوطانهم فسادا ونقل زروعها إلى مازونة حين غلب عليها مغراوة ثم نازل حصن تافركينت وملكها بمداخلة القائد بها غالب الحصن مولى سيد الناس بن محمد وقفل إلى تلمسان ثم نهض إلى أولاد سلامة بقلعة تاوعزون وامتنعوا عليه مراراً ثم أعطوه اليد على الطاعة ومفارقة بنى عبد القوى فنبذوا لهم العهد وصاروا إلى إيالة عثمان بن يغمراسن وفرضوا لهم المغارم على بنى يدلاتن وسلك عثمان ابن يغمراسن مسلك التخريب بين قبائل بنى توجين وتحريضهم على إبراهيم بن زيان أميرهم فعدا عليه زكراز بن أعجمى شيخ بنى مادون وقتله فى البطحاء فى إحدى غزواته لسبعة أشهر من ملكه وولى بعده موسى ابن زرارة بن محمد بن عبد القوى بايع له تبعرين واختلف سائر بنى توجين فأقام بعض سنة وعثمان بن يغمراسن فى خلال هذا يستألف بنى توجين شعباً شعباً إلى أن نهض إلى جبل وانشريس فملكه وفر أمامه موسى بن زرارة إلى نواحى المدية فى قبائل صنهاجة وغدروا بأولاد عزيز فصالحوا عثمان بن يوسف على الأتاوة والطاعة كما كانوا مع محمد بن عبد القوى وبنيه فملك عثمان بن يغمراسن عامة بلاد توجين بما دهمه من مطالب بنى مرين أيام يوسف بن يعقوب فولى على بنى توجين من بنى محمد ابن عبد القوى أبو بكر بن إبراهيم بن محمد مدة عامين أخاف فيها الناس وأساء السير ثم هلك فنصب بنو تبغرين بعده أخاه عطية المعروف بالأصم وخالفهم أولاد عزيز وجميع قبائل توجين فبايعوا ليوسف بن زيان بن محمد وزحفوا إلى جبال وانشريس فحاصروا به عطية وبنى تبغرين عامًا أو يزيد وكان يحيى بن عطية كبير بنى تبغرين هو الذى تولى البيعة لعطية الأصم فلما اشتد بهم الحصار واستفحل

مُلك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان ورغب فى مُلك وانشريس فبعث الجيوش لتنصر اخاه أبا سرحان ثم أخاه أبا يحيى وكان نهوض أبى يحيى سنة إحدى وسبعمائة فتوغل فى ناحية الشرع ولما رجع محمد إلى جبل وانشريس هدم حصونه وفعل ونهض ثانية إلى بلاد بنى توجين فشردهم عنها وأطاعه أهل تافركينت ثم انتهى إلى المدية[1] فافتتحها صلحًا واختط قصبتها ورجع إلى أخيه يوسف بن يعقوب فانتفض أهل تافركينت بعد صدره عنهم ثم راجع بنو عبد القوى بصائرهم فى التمسك بالطاعة ووفدوا على يوسف بن يعقوب فتقبل طاعتهم وأعادهم إلى بلادهم واقطعهم وولى عليهم ابن الناصر بن عبد القوى وجعل وزارته ليحيى بن عطية فغلبه على دولته واستقام مُلكه وهلك خلال ذلك فعقد يوسف بن يعقوب مكانه لمحمد بن عطية الأصم واستقام على طاعته وقتا ثم انتفض بين يدى ملكه سنة ست وحمل قومه على الخلاف ولما هلك يوسف بن يعقوب وتجافى بنو مرين من بعده لبنى يغمراسن منها ودفعوا المتغلبين عنها ولحق المغل من أولاد عبد القوى ببلاد الموحدين فجعلوا من دولتهم إلى محل الآثار والتركمة وكان للعباس بن محمد بن عبد القوى من الملوك من آل أبى حفص مقام الخلة والفصاحة إلى أن هلك وبقى عقبة فى جند السلطان ولما خلا الجو من هؤلاء المرشحين تغلب على جبل وانشريس من بعدهم كبير بنى تبغرين أحمد بن محمد ابن أعقاب يعلي بن محمد السلطان ببنى يغزن فأقام يحيى بن عطية هذا فى رياستهم أيامًا ثم هلك وقام بأمره من بعده أخوه عثمان بن عطية ثم هلك وولى من بعده ابنه عمر بن عثمان واستقل مع قومه بجبل وانشريس واستقل أولاد عزيز بالمدية ونواحيها ورياستهم ليوسف بن علي بن حسن بن يعقوب وكل فى طاعة أبى حمو سلطان بنى عبد الوادى لما غلبهم على أمرهم وانتزع الرياسة من بنى عبد القوى أمرائهم إلى أن خرج على السلطان أبى حمو ابن عمه يوسف بن يغمراسن ولحق بأولاد عزيز فبايعوه ودخلوا فى كناسة عمر بن عثمان كبير بنى تبغرين وصاحب جبل طي وانشريس فأجابهم وأطفق معهم سائر الأعشار وبكوسة وبنو يزناتى ورجعوا مع محمد بن يوسف إلى السلطان أبى حمو فى معسكره بنهل ففضوه وكان شأن فتنته معهم ما ذكرناه فى أخبار بنى عبد الوادى إلى أن هلك

(١) المدية: بلدة تقع إلى الجنوب من الجزائر العاصمة.

السلطان أبو حمو وولى ابنه أبو تاشفين فنهض إليهم فى العساكر وكان عمر بن عثمان قد لحقته الغيرة من مخالطة محمد بن يوسف لأولاد عزيز دون قومه فداخل السلطان أبا تاشفين فى الإنحراف عنه فلما نزل بالجبل ولحق بأبى تاشفين ودله على مكان فى الحصن فدله إليه أبو تاشفين وأخذ بمخنقه وافترق عن محمد بن يوسف أولياؤه وأشياعه فقبض عليه وقيد أسيرًا إلى السلطان أبى تاشفين من ملوك المرابطين فقتل بين يديه قطعًا بالرماح سنة تسع عشرة وبعث برأسه إلى تلمسان وصلب شلوه بالحصن الذى امتنع فيه أيام انتزائه ورجع أمر وانشريس إلى عمر بن عثمان هذا وحصلت ولايته لأبى تاشفين إلى أن هلك بتلمسان فى بعض أيامهم مع بنى مرين أعوام نازلها السلطان أبو الحسن كما ذكرناه فى أخبار الحصار ثم بعد تغلب بنو مرين على المغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن ابنه نصر بن عمر على الجبل وكان خير فى الولاية وصدقًا فى الإنحياش وإحسانا للملكة وتوفيرًا للجباية، ولما كانت نكبة السلطان أبى الحسن بالقيروان وتطاول الأعياض من زناتة إلى استرجاع ملكهم انتزى بضواحى المدية من آل عبد القوى عدى بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوى ونازع الخوارج فى دعوتهم واشتمل على بنى عزيز هؤلاء وبنى يزناتلى جيرانهم وزحف إلى جبل وانشريس لينال مع الحشم مُديلى أمرهم والمداخلين لعدوهم فى قطع دابرهم وكبيرهم يومئذ عصر بن عمر بن عثمان وبايع نصر لمسعود ابن أبى زيد بن خالد بن محمد بن عبد القوى من أعقابهم ثم خلص إليهم من جملة عدى وقومه فامتنعوا عليه ودارت بينهم حروب كانت العاقبة فيها والظهور لنصر بن عمر وقومه ثم دخل عدى فى جملة السلطان أبى الحسن لما خلص من تونس إلى الجزائر وبقى مسعود بينهم وملك أبو سعيد بن عبد الرحمن تلمسان هو وقومه فلم يزل هنالك إلى أن غلبهم السلطان أبو عنان فسار فى جملته بعد أن فر إلى زوارة واستنزله منها ونقله إلى فاس وانقضى ملكهم ودولتهم وانقطع أثر بنى محمد بن عبد القوى وأقام نصر بن عمر فى ولاية جبل وانشريس وعقد له السلطان أبو عنان على سائر دولته ولم يزل قائما بدعوة بنى مرين من بعده إلى إن غلبهم السلطان أبو حمو الأخير وهو ابن موسى بن يوسف على الأمر فأعطاه نصر الطاعة ثم اضطرمت نار الفتنة بين العرب وبنى عبد الوادى أعوام سبعين وسبعمائة وقاموا بدعوة أبى زيان ابن السلطان أبى سعيد عم أبى حمو فانحاش نصر بن عمر إليهم وأخذ بدعوة الأمير أبى زيان حينا ثم هلك أيام

تلك الفتنة وقام بأمرهم من بعده أخو يوسف بن عمر متقبلاً مذاهبه وهو لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين صاحب وانشريس وحاله مع أبي حمو مختلفة في الطاعة والخلاف والله رب الأمور لا مالك غيره.

وأشار للطبقة الثانية بقوله الخبر عن بني يزناتن إحدى بطون توجين من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم من التغلب والإمارة وذكر أوليتهم ومصائره كان بنو يزناتن هؤلاء آخر قبائل بني توجين وأعزهم جانبًا وأكبرهم صيتا، ولما دخل بنو توجين إلى المغرب الأوسط قاموا بمواطنهم الأولى ما بين ماصون ورمته ثم يعودون من القبلة يجولون جانبي نهر واصل من أعلى وادي شلق وكانت رياستهم في نصر بن علي بن تميم بن يوسف بن بو نوال وكان شيخهم مهيب بن نصر منهم وكان عبد القوي بن العباس وابنه محمد أمير بني توجين يختصونهم بالأثرة والتجلة لمكانهم من قومهم وما يؤنسون من عظيم غنائهم وكان محمد بن عبد القوي في سلطانه يوثر عليهم من أولاد عزيز وكان واليهم لعهده وعهد بنيه عبو بن حسن بن عزيز وقد كان أصهر مهيب بن نصر إلى عبد القوي إلى ابنته فانكحه إياها وولدت له نصر بن مهيب فسارت خؤولته لمحمد بن عبد القوي وعلا كعبه في إمارته ثم تولى بعده ابنه علي بن نصر وكان له من الولد نصر وعشرة آخرون يعرفون بأمهم واسمها تاسرغنيت وولي بعده نصر بن علي فطال أمد إمارته في قومه واختلف بنو عبد القوي وغلب بنو عبد الوادي على ما بأيديهم فصرفت ملوك زناتة وجه العناية إليه فبعد صيته وعرف بنوه من شهرته وكان والدا يقال أنه خلف ثلاثة عشر من البنين ما منهم إلا صاحب حرب أو مغنب ومن مشاهيرهم عمر الذي قتله السلطان أبو الحسن بمرات حين سعي به أنه داخل في اغتياله ففر وأدرك وقتل بمرات ومنهم منديل الذي قتله بنو تبغرين أيام ولوا علي بن نصر وقتلوا معه عبو بن حسن بن عزيز ومنهم عنان ومات قتيلاً في حصار تلمسان أيام أبي تاشفين ومنهم سعود ومهيب وسعد وداود وموسى ويعقوب والعباس ويوسف في آخرين معروفين عندهم هذا شأن أولاد نصر بن علي بن مهيب وأما ولد عشر أخيه فكان رسيا على بني أبيه وكانت إحدى وظائفهم سقطت بدار عثمان بن يغمراسن وادعت الحمل من سيدها أبي الفتوح وجاءت بأخ لعيسى يسمى معروفا

وربى بدارهم واستوزر لأبى حمو وأخيه من بعده وبلغ المبالغ فى دولتهم وكان يدعى معروفًا الكبير ولحق به أيام رياسته وفى دولة أبى حمو الأول أخوه عيسى بن أبى الفتوح مغاضبا لقومه فسعى له فى الولاية على بنى راشد وجباية أوطانهم وأنزله بلدة سعيدة[1] فكانت له إمارة وكان له من الولد أبو بكر وعبو وطاهر وترماء وعندما غلب بنو مرين على بنى عبد الواد ولأهم السلطان أبو الحسن على بنى يزناتن متوالين وأما ولد تاسرغنيت من بنى علي بن نصير بن مهيب فلم يكن لهم ذكر فى رياسة قومهم إلا أن بعض وظائفهم سقطت أيضًا إلى دار بنى تاشفين فولدت غلامًا يعرف بعطية بن موسى نشأ فى دارهم ونسب إلى بنى تاسرغنيت هؤلاء وتناولته النجابة فى خدمتهم فولوه الأعمال النبهة وهو لهذا العهد عامل أبى حمو الأخير على شلف[2] وما إليها وقد غلب العرب لهذا على وطن يزناتن وملكوا عليهم يعود وماحون وبقيت جبايتهم بجبل ورنيد وعليهم لهذا العهد سعيد بن عمر من ولد نصر بن علي بن نصر بن مهيب يعطون المغرم للسلطان ويصانعون العرب الأتاوة وبيد الله تصاريف الأمور سبحانه .

وأشار للطبقة الأخيرة بقوله الخبر عن بنى راشد بن محمد وذكر أوليتهم وتصاريف أحوالهم قال ابن خلدون فى العبر: وإنما قدمنا ذكرهم قبل استتمام بنى بادين لأنهم لم يزالوا أحلافا لبنى عبد الوادى ومن جملتهم فكانت أخبارهم من أخبارهم وأما راشد أبوهم فهو أخو يادين واختص بنوه كما قلنا بنى عبد الوادى وكانت مواطنهم بالجبل بالصحراء المعروف براشد اسم أبيهم وكانت مواطن مديونة من قبائل البربر قبيلة تاسلت وبنو ورنيد من بطون دمر قبلة تلمسان إلى قصر سعيد وكان جبل هوارة موطنًا لبنى يلومة الذين كان لهم الملك كما قدمنا ولما اضمحل أمر بنى يلومة وذهبت دولتهم زحف بنو راشد هؤلاء من بطونهم بالجبل إلى بسائط مديونة وبنى ورنيد فشنوا عليهم الغارات وطالت بينهم الحرب إلى أن غلبوهم على مواطنهم وألجأوهم إلى الأوعار فاستوطن ورنيد الجبل ثم استوطنوا جبلهم المطل على تلمسان واستوطن مديونة جبل تاسالت وملك بنو راشد بسائطهم ثم

---

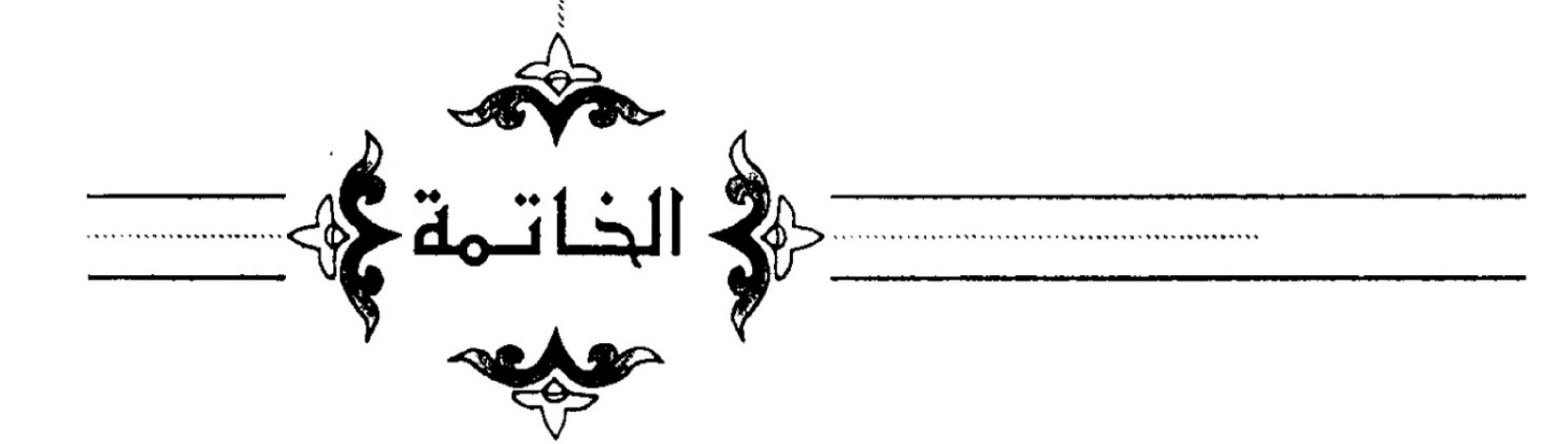
(١) سعيدة: مدينة جزائرية تقع جنوب شرق وهران وتقع فى شرقها جبال سعيدة.

(٢) شلف: من أكبر سهول بلاد الجزائر تقع جنوب وشرق وغرب وهران وتقع به مدن وهران ومستغانم وأرزيو على البحر وبيريقو والسيق وعين تموشنت فى الداخل.

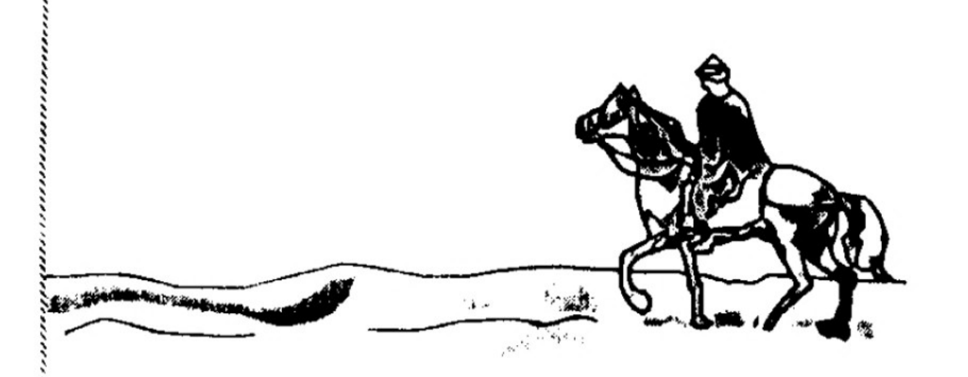
استوطنوا جبلهم المعروف بهم لهذا العهد وهو بلد بنى يفرن(*) الذين كانوا ملوك تلمسان فى أول الإسلام وكان منهم أبو قرة الصفرى كما قدمنا وكان منهم بعد ذلك يعلي بن محمود الأمير الذى قتله جوهر العنقلى قائد الشيعة كما ذكرنا فى أخبارهم ويعلي هو الذى اختط بهذا الجبل مدينة ايكفان التى هدمها جوهر يوم قتله فلما ملك بنو راشد هذا الجبل استوطنوه وصار حصنًا لهم ومحلاتهم فى ساحة القبلة إلى أن غلبهم العرب عليها لهذا العهد وألجأوهم إلى الجبل وكان غلب بنو راشد على هذه الأوطان بين دخول بنى عبد الوادى إلى المغرب الأوسط وكان شيعة لهم وأحلافًا فى فتنتهم مع بنى توجين وبنى مرين وكانت رياستهم فى بيت منهم يعرفون ببنى عمران وكان القائم بها لأول دخولهم إبراهيم بن عمران واستبد عليه أخوه وترمار وقام بأمرهم إلى أن هلك فولى ابنه مقاتل بن وترمار وقتل عمه إبراهيم وافترقت رياسة بنى عمران من يومئذ بين إبراهيم وبنى وترمار إلا أن رياسة بنى إبراهيم أظهر فولى بعد إبراهيم بن عمران ابنه وترمار ولا أدرى معاقبًا القائم أو توسطهما أحد ولما زحف بنو مرين إلى تلمسان آخر زحفهم صار بنو راشد هؤلاء إلى طاعة السلطان أبى الحسن وشيخهم لذلك العهد أبو يحيى موسى ابن عبد الرحمن بن وترمار بن إبراهيم وانحصر بتلمسان بنو عمه كرجوت بن وترمار وانقرض أمر بنى عبد الوادى وأشياعهم ونقل بنو مرين رموس زناتة أجمع إلى المغرب الأقصى فكان بنو وترمار هؤلاء ممن صار إلى المغرب وأوطنوه إلى أن صار الأمر لبنى عبد الوادى الكثرة الثالثة على يد أبى حمو الأخير موسى بن يوسف وكان شيخ بنى راشد لعهده ابن أبى يحيى بن موسى المذكور أقبل إليهم من إيالة بنى مرين فاتهمه أبو حمو بمداخلتهم فقبض عليه واعتقله مدة بوهران وفر من معتقله فلحق بالمغرب وارتحل بين أحيائهم مدة ثم رجع إلى الطاعة واقتضى العهد من السلطان أبى حمو فولاه على قومه ثم قبض عليه واعتقله إلى أن قتله بمحبسه سنة ثمان وستين وسبعمائة وانقرض أمر بنى وترمار بعد ما قُتل وترمار وأخاه أبا زركن ثم ابنه يوسف ابن أبى زركن ثم آخرين من بعدهم لم تحضرنى أسماؤهم إلى أن غلب عليهم بنو وترمار بن إبراهيم وقد ذهبت لهذا العهد رياسة أولاد عمران جميعًا وصار بنو راشد هؤلاء حول السلطان وبقيتهم يحملهم على الحال التى ذكرناها والله وارث الأرض ومن عليها.

---

(١) بنو يفرن: قبيلة من قبائل زناتة البربرية ينسب إليها أبى سعدة اليفرنى المسمى «خليفة الزناتى» قائد ملوك تلمسان الذى قدم بجيشه لوقف زحف عربان هلال بعد تغلبهم على تونس من ملوك صنهاجة بعد عام ٤٤٥ هجرى ثم قُتل فى الزاب بشرق الجزائر على يد دياب بن غانم الزغبى من فرسان الهلالية.



الخاتمة



الخـاتمـة

فى ذكـر بعض ملوك هذه الأمة المحـمديـة صلى الله على صاحـبهـا وسلم وشرف وكـرم مبتـدئًا بذكر الخلفـاء الأربعة رضى الله عنهم فـمن بعدهم من ذوى المُلك العضـود إلى آخر المائة الثـانية عشـرة من الهجرة فـأقول : خـلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه اسمه عبد الله بن أبى قحافة وعثمان بويع له فى ربيع الأول سنة إحدى عـشرة بعد الهـجرة وأقام سنتـين وثلاثة شهور وتسـعة أيام وتوفى ليلة الجمعة سابع جمادى الآخرة سنة ثلاث عـشرة وعمره ثلاث وستون سنة، وخلافة عمر بن الخطاب هو أبو حفص رضى الله عنه بويع له بعد موت أبى بكر رضى الله عنه وأقام عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال وتوفى فى الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وعمره ثلاث وستون سنة.

خلافة عثمان بن عفـان الملقب بذى النورين رضى الله عنه كنيته أبو عبد الله بويع له أول المحرم سنة أربع وعـشرين وأقام اثنتى عـشرة سنة إلا اثنى عشـر يومًا وتوفى فى شوال سنة خمس وثلاثين وعمره اثنان وثمانون سنة ودفن بالبقيع[١] فى المدينة المنورة.

خلافة علي بن أبى طالب رضى الله عنه بويع له بعد وفـاة عثمان وأقام أربع سنين وتسعة أشهر وتوفى ليلة الجمعة سـابع عشر رمضان سنة أربعين وعمره ثلاث وستون سنة ودفن بالكوفة بالعـراق، وخلافة الحسن بن علي بن أبى طالب رضى الله عنه سبط رسول الله ﷺ بويع له يوم مـات أبوه وأقام ستة أشهـر وخلع نفسه فى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومات سنة خمـسين وعمره سبع وأربعون سنة ودفن بالبقيع.

وروى ابن عباس رضى الله عنه قـال سمعت رسول الله ﷺ يقـول الخلافة بعدي ثلاثون عامًا ثم تكون مُلكًا عضودًا وكـان آخر ولاية الحسن تمام ثلاثين سنة من

** من المعروف أن أبى بكر وعمر رضـى الله عنهما قد دفنا إلى جوار الحبيب المصطفـى ﷺ في المسجد النبوى بالمدينة المنورة.

(١) البقيع : مقابر قديمة من عهد النبى ﷺ وبها الكثير من آل البيت والصحابة وتبعد خطوات عن المسجد النبوى، وقال النبى ﷺ : « أنا أول من تنشق الأرض عنى يوم البعث وأزف كما يُزف العروس من أهل البقيع».

خلافة أبي بكر الصديق رضى الله عنهم فقدانقضت الخلافة بآخر خلافة سيدنا الحسن بن علي تسليمًا لمعاوية بن أبي سفيان سدًا لباب الفتن وحقنًا لدماء المسلمين المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام في حق الحسن: إن ولدى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

أما خلفاء بنى أمية فهم كما في بلاغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء ما نصه:

أول الخلفاء بعد عثمان رضى الله عنه معاوية وهو أبو عبد الرحمن معاوية ابن أبى سفيان واسمه سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ويلتقى هو والنبى ﷺ فى عبد مناف وأولاده عبد الرحمن ويزيد وعبد الله وهند ورملة وصفية وعائشة ثم ولى الأمر يزيد ولده بعده وأولاده معاوية وخالد وهو أبو سفيان وعبد الله الأكبر وعبد الله الأصغر وعمير وعبد الرحمن وعتبة الأعور وزيد ومحمد وهو أبو بكر وحرب والربيع وعبد الله. وفى أيام يزيد قتل الحسين بن علي بن أبى طالب رضى الله عنهما بكربلاء فى قصته المعروفة ثم مروان بن الحكم هو أبو الحكم وقيل أبو عبد الملك وهو مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وهذا مروان إليه ينسب خلفاء بنى مروان وأولاده عبد الملك ومعاوية وأم عمرو وعبيد الله وإبان وعبد الله وداود وعبد العزيز وعبد الرحمن وأم عثمان وبشر ومحمد عبد الملك بن مروان ولى بعد أبيه وكنيته أبو الوليد ويقال مروان ولقبه رشح الحجر لبخله ويكنى أبا ذباب لبخره وأولاده الوليد وسليمان ومروان الأكبر ويزيد ومروان ومعاوية وهشام ويسار والحكم وعبد الله ومسلمة وعيينة ومحمد وسعيد والحجاج وقبيصة فولى بعده الوليد بن عبد الملك ويكنى أبا العباس وأولاده أربعة عشر ذكرًا سوى البنات، منهم يزيد وإبراهيم وليا الخلافة ومنهم العباس فارس بنى مروان كان يركب فى ستين من صلبه وعبد العزيز وسره ثم ولى من بعده سليمان بن عبد الملك وهو أبو أيوب ويقال أنه كان نكاحًا شرها يأكل فى كل يوم نحوًا من مائة رطل وأولاده أربعة عشر ذكرًا. ثم ولى بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان ويكنى أبا حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ويسمى الأشج لأن فى وجهه شجة من دابة

ضربتـه، وأولاده كانوا أربعة عشـر ذكرًا وخمس بنات من أولاده عبـد الملك وكان مات فى حياته ومنهم عبد الله وكان شجاعًا ولى العراق لزيد بن الوليد واحتفر نهر أبى عمرو بالبصرة،(يزيد بن عبد الملك) يكنى بأبى خالد وأولاده ثمانية ذكور وقيل عشـرة منهم عبد الله بن يزيد مـتولد مـن سـبعـة خلـفاء أبـوه يـزيـد وجـده عـبد الملك وجد ابيه مـروان وجدته لأبيه عاتكة بنت يزيد بن معاوية وأمـه سعدى بنت عبد الله بن عمر بن عثمـان وام عبد الله بن عمر وهى بنت عمر بن الخطاب ومنهم الوليدبن يزيد وقيل هشام بن عبدالمـلك يكنى أبا الوليد ولى الخلافة وأولاده عشرة ذكور وإناث مـنهم معاوية بـن هشام وهو أبو عبـد الرحمن ومنـهم سليمان قـتله السفـاح، (الوليد بـن يزيد) بن عبـد الملك ولى الخلافـة وأولاده ثلاثة عشـر ذكرًا وبنات، (يزيد بن الوليد) بن عبد الملك كـان يكنى أبا خالد ولى الخلافة، (إبراهيم ابن الوليد) بن عبد الملك كان يكنى أبا إسحاق، (مـروان) أبا محمد الجعدى وكان يلقب بحمار الجزيرة لصبره على الحـروب وهو أبو عبد الملك مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبى العـاص بن أبى أمية بن عـبد شمس بن عبـد مناف يلتقى هو والنبى ﷺ فى عبد مناف وهو آخـر خلفاء بنى أمية وبإنقضاء خـلافته انقضت خلافة بنى أمـية وأولاده عبد الله وعـبيد هربًا بعد قتله أما عـبيد الله فقتله الحـبشة وأما عبـد الله فله عقب ويقال أنه أخذ وحـبس ولم يزل محبوسـا إلى أيام الرشيد فأخرج ضريرًا ومات ببغداد قال فى بلاغة الظرفاء: وجميع خلفاء بنى أمية من لدن معاوية بن أبى سفيان إلى مروان بن محمـد الجعدى أربعة عشر خليفة وكانت مدة خلافتـهم إحدى وتسعين سنة وتسعة أشـهر وخمسة أيام منهـا فتنة ابن الزبير تسع سنين واثنان وعشرين يومًا ثم تفرقت بنو أمية فى البلاد هربًا .

ومن كتـاب الكرديوس فى أخبار المشرق والأندلس: فـأول من تأمر فى بلاد الأندلس وملكها شيئًا بعد شئ عبد الملك بن عبد الرحمن[1] الأموى ابن مروان ثم بعده ولده هاشم ثم حكيم ثم عبـد الرحمن ثم ابنه محمد ثم عبـد الله ثم الحفيظ الناصـر ثم بعده الحكم المنتـصر ثم هاشـم ثم قام عليـهم قائم وادعى بأنه المهـدى

(١) عبد الرحمن الأعور الأموى ولقب بصقر قريش وسمى عبد الرحمن الداخل لأنه اول من دخل الأندلس من بنى أمية.

وبقيت فترة عظيمة الفتن ثم تولى سليمان بن الحكم بالأندلس على قبائل البربر الذين قطعوا الجزيرة مع موسى بن نصير في بداية الأمر واستوطنوا البلاد وحاصروا لهاشم في قرطبة ثم أرسل هاشم لصاحب سبتة وأحوازها وكان فيها وتملكها علي بن حمود من الأدارسة فقطع إليه من سبتة في جموع من البربر وأغاثة وهو علي بن حمود بن ميمون بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط ابن علي فقطع البحر إلى إغاثته وتبعه بعض أهل الجزيرة مع قومه ونزل على سليمان وهو محاصر لهاشم في قرطبة وقتله وقتل جموعه فادعى لنفسه علي بن حمود وولي البيعة بالأندلس.

قال في الأقنوم ذكر دولة بني أمية:

أولهم سيدنا معاوية	بويع في (ما) بأول مايه
(يه) و(جيم) ثم (كه) ومضى	(نط) (وواو) ثم (يه) إذ قضى
ثم يزيد ابنه (جيم) و (ما)	بعد (حجب) و (يه) المحى
ثم معاوية ابنه تلا	(قيب) من الأيام قد تجللا
ثمت مروان وعبد الله	(صج) و (بارای) لدي التناه
وفي (عج) (وهابا) اندرج	«بياض في الأصل»
ابن الزبير فتبقى بعده	(يب) و (دال) ثم (هاء) عده
ثم ابنه الوليد (طاراى كط)	مدته وموته لما فرط
خمس وتسعون وخمسة شهور	ونصف شهر ثم بعد ظهور
ملك سليمان بن عبد الملك	عاش به مع سبع (وكد) قد حكى
وموته لما مضت ثمانية	تسعون مع شهر (ويج) تالية
وعمر العدل وعامين بقى	وخمسة و (يج) مات بعد قى
وستة من الشهور ثم (كو)	ثم ابن عمه يزيد قد حكوا
في خمسة ومائة توفيا	ثم هشام بعده قد وليا
ومات عام خمسة وعشرين	ثم الوليد وتلاه في الحين
ثمت إبراهيم فيها مروان	وحينه في مائة ولج حسان
وزال ملكهم عن الشرق إلى	أندلس من بعد ذاك انتقلا

ولم يـزل بهـــا إلى أن ظـهـــرا بهـــا المرابـطون فى (نـت) يرى .

نسب الخلفاء العباسيين

قال فى بلاغـة الظرفاء: أول الخلفاء العـباسيـين أبو العباس الـسفاح هو أبو أيوب عبد اللهِ بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ويلتقى هو والنبى ﷺ فى عبد المطلب وهو أول خليفة من بنى العباس وامه ريطة وقيل رابطة بنت عبد الله بن عبد الله بن المدان الحارثى وأولاده كـان له ولد يسمى محمدا مات صغيـرًا. (أبو جعفر المنصـور) وهو أخو السفاح واسمـه عبد الله بن محـمد وأمه سلاّمه بنت بشير بن مزنة وأولاده محمد المهـدى وجعفر وصالح وسليمان وعيسى ويعقوب والقاسم وعبد العزيز والعباس والغالية.

تولى منهم بعد أبيه أبو جعفر (محمد المهدى) ويكنى ابا عبد الله وهو محمد ابن عبـد الله المنصور وأمـه أم موسى بنت مـنصور بن عبـد الله بن شهـر بن يزيد الحميرى وأولاده هارون الرشيد وموسى الهادى وعلي وعبيد الله ومنصور ويعقوب وإسحـاق وإبراهيم والغالية والعـباسية وسـليمة (فمـوسى الهادى) هو أبو محـمد موسى بن مـحمد المهدى وأمـه الخيزران وأولاده ستـة ذكور هم عيسى وإسـحاق وجعـفر وعبد الله وإسـحاق وموسى وكان عـيسى أعمى وله بنات منهن أم عـيسى تزوجها المأمون، (هارون الرشيد) هو أبو محمد وقيل أبو جعفر هارون بن محمد المهدى وأمـه الخيزران وأولاده محمـد الأمين وعبد الله المأمـون ومحمد المعـتصم وصالح ومحـمد أبو عيسى والقاسم وعلي وإسحـاق وابو العباس وابو أيوب وأبو أحمـد وبنات الواحدة من بناته تعـد عشرة خلفـاء كلهم لها مـحرم، هارون أبوها والهادى عـمهـا والمهدى جدهـا والمنصور جد أبيـها والسـفاح عم جـدها والأمين والمامون والمعتـصم أخوتها والواثق والمتوكل أبناء أخـيها، (محـمد الأمين) هو أبو عبد الله وقيل أبو موسى وقيل أبو العباس محمد بن هارون الرشيد وأمه أم الواحد وقيل أم العزيز بنت جعفر بن ابى جعفر المنصور ولقبها زبيده وأولاده موسى وعبد الله وإبراهيم، (عـبد اللهُ المأمون) وهو ابو الـعباس وقـيل أبو جعـفر عـبد الله بن هارون الرشـيد وأمـه من أجل أم ولد وأولاده مـحمـد الأصغـر وعبـد الله وعلي

والحسن وإسماعيل والفضل وموسى وإبراهيم ويعقوب والحسين وسليمان وجعفر وإسحاق وأحمد وهارون وعيسى وعدة بنات، (المعتصم بالله) هو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد وكان قويًا يقال إنه كان يحمل ألف رطل ويمشى بها خطوات في ما ذكر وكان أميًا لا يكتب وهو المثمن من اثنى عشر: هو الثامن من ولد العباس والثامن من ولد الخلفاء وولى سنة ثماني عشرة ومائتين بعد الهجرة وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وتوفى وله ثمان وأربعون سنة وولد في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة وخلف ثمانية ذكور وثماني بنات وغزا ثماني غزوات وخلف ثمانية آلاف دينار ومثلها دراهم ومن أولاده هارون الواثق وجعفر المتوكل ومحمد أبو المستعين وهو الذى امتحن أحمد بن حنبل فى خلق القرآن فامتنع أن يقول ذلك فضربه عدة سياط (الواثق بالله) أبو جعفر هارون بن المعتصم ابن الرشيد أمه قراطيس أم ولد وأولاده محمد المهتدى وعبد الله وأحمد وإبراهيم وعائشة (جعفر المتوكل على الله) هو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد وأمه تركية اسمها شجاع وأولاده محمد المنتصر وقيل المستنصر وكان أحدب والمعتز وإبراهيم والمؤيد وأحمد المعتمد على الله وطلحة الموفق وإسماعيل وجماعة (محمد المنتصر) هو أبو جعفر محمد بن جعفر المتوكل وأمه رومية تسمى حبشية وأولاده أربعة ذكور (المستعين بالله) هو أحمد بن محمد بن المعتصم بالله بن هارون الرشيد وأمه مخارق أم ولد وأولاده تسعة ذكور، (المعتز بالله) هو أبو عبد الله محمد وقيل هو الزبير بن جعفر المتوكل وأمه فتحية وأولاده عبد الله بن المعتز الشاعر، (المهتدى بالله) هو أبو عبد الله محمد بن هارون الواثق ويقال له أبو جعفر وأمة رومية اسمها قرب وأولاده خمسة عشر ذكرًا، (المعتمد على الله) هو أبو العباس أحمد وقيل أبو جعفر المتوكل وأمه فينان أم ولد وأولاده عبد العزيز وجعفر ومحمد وإسحاق، (المعتضد بالله) هو أبو العباس أحمد ابن طلحة الموفق ابن جعفر المتوكل وأمه ضرار أم ولد وأولاده المكتفى والمقتدر بالله والقاهر وهارون وإحدى عشر بنتا، (المكتفى) هو أبو محمد علي بن المعتضد بالله وامه خاضع ام ولد وأولاده المكتفى بالله وثمانية ذكور، (المقتدر بالله) هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله وامه شعب أم ولد وأولاده الراضى والمتقى وإسحاق والد القادر والمطيع وعبد الواحد وعباس وهارون وعلي



وإسحاق وعيسى وموسى وأبو العباس (القاهر بالله) هو أبو المنصور بن المعتضد بالله وامه قبول أم ولد وأولاده الفضل وعبد الصمد وأبو القاسم عبد العزيز وهو ولى عهده (الراضى بالله) هو أبو العباس محمد بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بالله أمه ظلوم أم ولد أولاده أبو جعفر أحمد والفضل وعبد الله (المقتفى بالله) هو أبو إسحاق بن المقتدر بالله جعفر بن المعتصم بالله وامه خلوب (المستكفى بالله) هو أبو القاسم عبد الله بن المكتفى بالله بن المعتضد وامه عضى (المطيع بالله) هو أبو القاسم وقيل أبو العباس الفضل بن المقتدر بالله بن المعتضد وامه مشعلة وأولاده أبو بكر الطائع وعبد العزيز وجعفر (الطائع لله) هو أبو بكر عبد الكريم بن الفضل المطيع بن المقتدر بالله بن إلمعتضد بالله وإمه أم ولد، (القادر بالله) هو أبو العباس احمد بن إسحاق بن المقتدر بالله بن المعتضد بالله وأمه ثمين وأولاده أبو جعفر عبد الله ولى عهده (القائم بأمر الله) هو أبو جعفر عبد الله بن احمد القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر بالله بن المعتضد بالله وامه بدر الدجى أم ولد وأولاده أبو العباس محمد ذخيرة الدين وأبو القاسم عبد الله ولد ولده ولى بعده (المقتدى بالله) هو أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بالله بن اسحاق بن المقتدر بالله بن المعتضد بالله (المستظهر بالله) هو أبو العباس أحمد بن أبى عبد الله المقتدى بالله ابن القائم بأمر الله بن القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر بالله بن المعتضد بالله وأولاده أبو منصور الفضل المسترشد بالله وأبو عبد الله محمد المقتفى لامر الله (المسترشد بالله) هو أبو منصور الفضل ابن أبى العباس أحمد المستظهر بالله (الراشد بالله) هو أبو جعفر بن المسترشد بالله، (المقتفى لأمر الله) هو أبو عبد الله بن أحمد المستظهر بالله وأولاده منهم يوسف ولى عهده (المستنجد بالله) هو المظفر يوسف بن المقتفى لامر الله بن المستظهر بالله، (المستضئ بنور الله) أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله. تمت أخبار بنى العباس رضى الله عنه من لدن قيام أبى العباس السفاح إلى عام سبع وستين وخمسمائة أحمد (الناصر لدين الله) بن المستضئ بنور الله خطب له بجامع الإسكندرية مستهل صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة وخلافته سبع وأربعون سنة تمام الدولة العباسية من غير شهور كما فى بلاغة الظرفاء (الظاهر بالله) أبو نصر محمد بويع له فى سنة

ثلاث وعشرين وستمائة ومات فى السنة المذكورة ثمّ بعده الإمام أبو جعفر (المستنصر بالله) أول خلافته سنة أربع وعشرين وستمائة وتوفى سنة أربعين وستمائة وولى بعده ولده الإمام أبو محمد عبد الله، (المستعصم بالله) فى السنة المذكورة وهو المنصور آخر الخلفاء العباسيين والذى انتهت به خلافة بنى العباس عام ٦٥٦ هـ بعد اجتياح التتار «المغول» لأرض العراق ودخولهم بغداد .

﴿تم بحمد الله وصلى الله وسلم على سيدنا محمد علم الهدى وخير الورى وعلى آله الطاهرين وصحابته المكرمين﴾

﴿تنويه﴾

سيقوم المؤلف إن شاء الله تعالى خلال العام القادم ١٩٩٨م/ ١٤١٦ هـ بتجميع ملخص كامل عن الأشراف السعديين والأشراف العلويين الذين يحكمون المملكة المغربية في الوقت الحاضر، وهم إمتداد للأشراف الحسنيين والله ولي التوفيق،

المؤلف،

المراجع

• تاريخ العبر ومبتدأ الخبر	العلامة عبد الرحمن بن خلدون
• قلائد العقيان	المقريزى
• تاريخ القرطبى	القرطبى
• مشارع الأشواق فى مصارع العشاق	ابن إسحاق
• تحقيق الأصول فى شرح سلاسل الفصول	أبو المكارم محمد بن عبد الله
• فرائد الجمان	أبو الوليد إسماعيل الأحمر
• وفيات الأعيان	ابن خلكان
• الروض الأنف	السهيلى
• المقباس	محمد عبد الملك الوراق
• شرح الهمزية	الإمام ابن زكريا
• سراج الملوك	الطرطوشى
• الخريدة	العماد الأصبهانى
• قلائد الجمان	القلقشندى
• تحقيق الصفا فى تراجم الوفا	جار الله المكى
• عمدة الطالب لآل أبى طالب	ابن عنبة
• الاكتفاء	ابن عبد الحكيم
• معالم الإيمان	ابن ناجى
• تاريخ ابن عفير	عثمان بن سعيد بن عفير
• جذوة المقتبس	عبد الله الحافظ عبد الحميد الحميدى
• تاريخ الأندلس	ابن بشكوال
• الأنيس المطرب روض القرطاس	أبو الحسن ابن أبى زرع
• الدر والعقيان	الإمام التنيسى
• شرح الشقراطة	النورزى المصرى
• معجم البغوى	البغوى
• السنة الكبير	ربيعة السعدى
• المدارك	القاضى عياض
• المسالك والممالك	البكرى
• الدرر المكنونة	المازونى
• المشارق	ابن حجر
• شرح الرسالة	العارف بالله الشيخ زروق
• تاريخ الاكريين	وزير حلب القبطى

المحتويات